عاقل ،فاخر
علم النفس وتطبيقه على التربية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01001762

DATE DUE

SAFETY LIFE
11 JUL 2005
Circulation Dept.

SAFETY LIFE
15 FEB 2007
Circulation Dept.

الى مكتبة ... مع
احترام المؤلف
150
A31imA
c.1

علم النفس

و

تطبيقه على التربية

فاخر عاقل
استاذ التربية وعلم النفس

يحتوي على برنامج علم النفس لطلاب المدارس التجهيزية ودور المعلمين

59600

مطبوعات :
مكتبة العلوم والآداب لصاحبيها طواحيني وهاشمي
١٩٤٥

مطبعة الترقي بدمشق

Cat. Oct. 1945
Gift. Author

تصدير

هذه صفحات في (علم النفس وتطبيقه على التربية) . تعمدتُ في اختيارها أن أقتصر على الحقائق الثابتة والنظريات المرجحة والملاحظات المفيدة ؛ وتعمدتُ ، إلى هذا ، أن أتجنب ، ما أمكن ، ذكر النظريات المتضاربة والآراء المتباينة التي إن أفادت العالم ، فلا تعود على الطالب إلا ببلبلة الفكر واضطراب الذهن .

وقد صدّرتُ كل فصل بتصميم ليساعد الطالب على نظم عِقد الموضوع ؛ وقسمت كل مبحث إلى أقسامه الرئيسية وفقراته الأساسية لئلاّ يتيه التلميذ في بيدائه ، وأظهرت الحقائق الهامة بالحرف الرقمي لتبرز لباصرتي القارئ فيعيرها اهتماماً أكبر ؛ وأثبتُّ في آخر الكتاب وبعد كل فصل قائمة ببعض المراجع العربية التي تفيد الطالب في إستكناه علم النفس عامة والفصل المعين خاصة .

والكتاب وافٍ بغرض طلاب علم النفس في المدارس التجهيزية ودور المعلمين بحسب البرنامج الجديد الذي وضعه معالي المشاور الفني لوزارة المعارف من جهة ، ومفيد لكل من يحب الاطلاع على علم النفس وعلم النفس التربيوي من جهة أخرى .

هذا وقد اعتمدت في وضع الكتاب على عدد من المصادر الانكليزية والافرنسية ، وأخص بالذكر منها الكتب الثلاثة الآتية :

١ — Educational Psychology — P. Sandiford

٢ — Psychologie Appliquée à l'Education — C. Mélinand

٣ — Psychologie Appliquée à l'Education — L. Riboulet

ولا بدَّ من الإشارة إلى وجود عددٍ من الأخطاء المطبعية الفاحشة التي أعتذر عنها وأرجو القارئ الكريم تصحيحها قبل البدء بقراءة الكتاب

وبعدُ فلست أدعي لهذا العمل المتواضع الكمال ، وأعترفُ سلفاً بأخطائي الكثيرة فيه ، ولكني زعيم بأني بذلت فيه جهداً كثيراً ، ولم أبتغ من ورائه ربحاً ولا استغلالاً ، فإذا قُدّر له أن يخدم غرض زملائي الأساتذة وإخواني التلامذة ، فحسبي بهذا ربحاً ومغنماً ، وإلا فعزائي أني ما انتويت إلا خدمتهم أجمعين .

فاخر عاقل

أستاذ التربية وعلم النفس في دور المعلمين والمعلمات

دمشق
أيار ١٩٤٥

الفهرس

الصفحة

تمهيد ١

تعريف علم النفس ٢ ، صفات الحوادث النفسية ٣ ، طرائق علم النفس ٣ ، أقسام علم النفس ٦ ، أنواع علم النفس ٧ .

الفصل الأول : الجملة العصبية والغدد ٩

الجسد والنفس وتأثيرهما المتبادل ١٠ ، تشريح الجملة العصبية ١٠ ، أقسامها ١٠ ، تركيبها ١٤ ، الغدد ١٥

الفصل الثاني : الفعل المنعكس ، الفعل المنعكس الشرطي ، الغريزة ١٨

قوس الانعكاس ١٩ ، السلوك الثابت ٢٠ ، الفعل المنعكس ٢١ ، الفعل المنعكس الشرطي ٢٣ ، الغريزة ٢٦

الفصل الثالث : العادة ٣٠

آثار العادة ٣١ ، نتيجة العادة ٣٢ ، أسباب العادة ٣٣ ، طبيعة العادة ٣٤ ، الاعتياد ٣٥ ، العادة والتربية ٤١

الفصل الرابع : الاحساس والادراك الخارجي ٤٦

وصف الحوادث ٤٧ ، تجارب قياس الاحساس ٥٢ ، نتائج نظرية الادراك ٥٥ ، الحلم ٥٦ ، تربية الحواس ٦٤

الفصل الخامس : الذاكرة ٦٨

تعريف الذاكرة ٦٩ ، تحليل الذكرى ٧٢ ، ذاكرة الطفل ٨٠ ، التعلم وقوانينه ٨٠ .

الصفحة

الفصل السادس : تداعي الأفكار ٨٩

ماهيته وأنواعه وقوانينه ٩٠ ، تداعي الأفكار عند الطفل ٩٢ ، تداعي الأفكار والتربية ٩٣

الفصل السابع : التخيل ٩٥

نوعا التخيل ٩٦ ، وظائف الخيال الثلاثة ٩٧ ، أهمية الخيال في الحياة ٩٩ ، الخيال عند الطفل ١٠١ ، تربية الخيال ١٠٢ ، اللعب ١٠٣ ، القصص ١٠٤ .

الفصل الثامن : الانتباه ١٠٦

أشكاله ١٠٧ ، درجاته ١٠٧ ، صفاته ١١٠ ، أهميته ١١١ ، تربيته ١١١ ، التشويق ١١٤ ، التعب ١١٥ .

الفصل التاسع : اللغة ١١٩

طبيعتها ١٢٠ ، لغة الكلام ١٢٣ ، علاقات اللغة بالفكر ١٢٥ ، تطور اللغة عند الطفل ١٣١ ، بسيكولوجيا اللغة ١٣٥ .

الفصل العاشر : الأفكار العامة (التجريد والتعميم) ١٤٣

خصائصها ١٤٤ ، طبيعتها ١٤٤ ، فائدتها ١٤٧ ، أخطارها ١٤٨ ، التجريد والتعميم عند الطفل ١٤٩ ، الأفكار العامة والتربية ١٥١ .

الفصل الحادي عشر : الحكم ١٥٣

العملية العقلية في الحكم ١٥٤ ، العمل الإرادي في الحكم ١٥٥ ، قانون التوكيد ١٥٦ ، أحكام الطفل ١٥٧ ، الحكم والتربية ١٥٨ .

الفصل الثاني عشر : المحاكمة ١٦٢

الاستنتاج ١٦٣ ، الاستقراء ١٦٥ ، التمثيل ١٦٨ ، حاجات العقل الأساسية ١٧٢ ، محاكمات الطفل ١٧٤ ، المحاكمة والتربية ١٧٥ .

الصفحة

الفصل الثالث عشر : الخطأ ١٧٨

أهم أنواعه ١٧٩ ، طبيعته ١٨١ ، سبب الفكرة الخاطئة ١٨٢ ، أسباب الاعتقاد الخاطئ ١٨٣ .

الفصل الرابع عشر : الذكاء ١٨٦

طبيعته ١٨٧ ، قياسه ١٨٩ .

الفصل الخامس عشر : الرغبة ١٩٧

طبيعتها ١٩٩ ، كبتها ٢٠٣ ، أنواع الرغبات الهامة : النزعات الشخصية ٢٠٦ النزعات الاجتماعية ٢٠٩ ، النزعات غير الشخصية (المثالية) ٢١١ ، الرغبة والتربية ٢١٣ .

الفصل السادس عشر : الهيجان ٢٢٠

النظرية المحيطية ٢٢٢ ، دلائل بجانبها ٢٢٤ ، احتجاجات عليها ٢٢٦ ، قيمتها الحقيقية ٢٢٩ ، طبيعة الهيجان الحقيقية ٢٣٢ .

الفصل السابع عشر : الغضب ٢٣٦

أزمة الغضب عند الطفل ٢٣٧ ، الأزمة عند الراشد ٢٣٧ ، طبيعة الغضب ٢٣٩ ، أنواعه ٢٤١ ، العلاجات ٢٤٣ .

الفصل الثامن عشر : الخوف ٢٤٦

مظهر الأزمة ٢٤٧ ، كيف تتولد ٢٤٨ ، طبيعة الخوف ٢٤٩ ، الحالات المرضية ٢٥٠ ، العلاجات ٢٥١ .

الفصل التاسع عشر : الخجل ٢٥٣

صفات الأزمة ٢٥٤ ، أسبابها ٢٥٥ ، طبيعة الخجل ٢٥٦ ، الخجل كصفة من صفات الطبع ٢٥٨ ، علاجاته ٢٥٩ .

الصفحة

الفصل العشرون : الهوى ٢٦٠

كيف يتولد ٢٦١ ، مظاهره ٢٦٢ ، طبيعته ٢٦٤ ، قيمته وعلاجاته ٢٦٦ .

الفصل الحادي والعشرون : اللذة والألم ٢٧١

الألم الجسدي ٢٧٢ ، الألم المعنوي ٢٧٣ ، اللذة ٢٧٤ ، اللذة والألم في التربية ٢٧٦ .

الفصل الثاني والعشرون : الإرادة ٢٧٨

الأشكال المختلفة للحادث الإرادي ٢٧٩ ، دراسة التصميم الارادي ٢٨١ ، علاقات الاردة بالرغبة ٢٨٣ ، إرادة الطفل ٢٨٥ ، تربية الارادة ٢٨٦ .

الفصل الثالث والعشرون : الشعور واللاشعور ٢٩٢

طبيعة الشعور ٢٩٣ ، الحوادث النفسية تحت الشعورية ٢٩٥ ، وظيفة الحوادث النفسية المتصفة بشعور ضعيف ٢٩٨ ، الشعور واللاشعور في التربية ٣٠٠ .

الفصل الرابع والعشرون : الشخصية ٣٠٣

الأنا ٣٠٤ ، أمراض الشخصية ٣٠٨ ، الطبع ٣٠٩ ، المؤثرات التي تكونه ٣١١ ، شخصية الطفل وطبعه ٣١٢ ، تربية الشخصية والطبع ٣١٥ .

الفصل الخامس والعشرون : الوراثة ٣١٨

الوراثة ٣١٩ ، قوانينها ٣٢٠ ، الوراثة الاجتماعية ٣٢٤ .

تمهيد

تصميم البحث

آ — تعريف علم النفس :

١ — علم حوادث النفس

٢ — علم السلوك البشري

ب — صفات الحوادث النفسية :

١ — داخلية لا يدركها مباشرة الا صاحبها

٢ — لا تشغل المكان بل تجري في الزمان

٣ — لا تقاس

ج — طرائقه :

عمليتان أساسيتان : وصف وتفسير :

١ — طرائق الوصف :

أ ـ شخصية : التأمل الباطني

ب ـ موضوعية : دراسة السلوك ويمكن ان تصبح علمية بواسطة عمليات مخبرية

ج ـ تجريبية

د ـ مرضية

٢ — طرائق التفسير :

أ ـ بواسطة العضوية

ب ـ بواسطة المجتمع

ج ـ بواسطة حوادث نفسية اخرى اكثر بساطة

د ـ وقد يكون هذا التفسير بواسطة قوة نفسية

د — أقسامه :

التصنيف التقليدي للحوادث النفسية في ثلاثة أمور :

١ — حوادث فاعلة

٢ — حوادث انفعالية

٣ — حوادث عقلية

هـ — أنواعه

١ — لن نقف طويلاً عند طبيعة علم النفس وموضوعه ومناهجه إيماناً منا بأن خير وسيلة لمعرفة حقيقة علم ما هي ممارسته ؛ فلنسارع إلى ذلك إذن ، ولنقتصر على الضروريات في التعريف والمناهج والأقسام .

— آ —

٢ — لعلم النفس تعريفان رئيسيان : أولهما التعريف الاتباعي التقليدي الذي يكاد يكون عالمياً ألا وهو : « **علم دراسة حوادث النفس** » ، فالمخلوق البشري مكوّن من جسد ونفس . وكما أن علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) يصف حوادث الجسد ويحاول تفسيرها فكذلك علم النفس يصف حوادث النفس من حركات وصور وأفكار وعواطف وغيرها ويحاول تفسيرها .

وأما التعريف المتأخر فقد اختصت به المدرسة السلوكية وهو :

« **علم دراسة السلوك البشري** » أو «دراسة الأعمال البشرية» . وعالم النفس ، في رأي هذه المدرسة ، لا يفعل أكثر من وصف أعمال الجنس البشري بدقة شأنه في ذلك شأن عالم الحيوان الذي يصف سلوك النمل مثلاً .

٣ — والحق أن التضاد بين هذين التعريفين أقل بكثير مما قد تتصور : وذلك لأن معرفة حالات البشر النفسية ضرورية لفهم سلوكهم ، كما أن الاهتمام بما يجري في النفس البشرية غايته تفسير ردود الفعل الخارجية والاجتماعية والتنبؤ عنها .

٤ — يضاف إلى ذلك أن التعريف الأول شائع لدرجة لا يمكن معها الاستغناء عنه ، سيما وأننا لا نكاد نسمع اسم (علم النفس) حتى نفكر في الحالات الداخلية ، في حالات الشعور ، في تحليل العواطف والأفكار ؛ فلنحتفظ به إذن على أن نذكر دائماً أن معرفة السلوك البشري من أهم ما يهتم به علم النفس .

— ب —

٥ — يتميز الحادث النفسي عن غيره من الحوادث بصفات ثلاث :

أولها : **ان الحادث النفسي داخلي** لا يدركه مباشرة إلا صاحبه بخلاف الحوادث الأخرى ، فيزيائية كانت أو اجتماعية أو كيمائية أو غيرها ، التي يستطيع عدد كبير على المشاهدين ادراكها في وقت واحد : ففي الحادث النفسي يكون المشاهد (بالكسر) والمشاهد (بالفتح) شيء واحد ولا يستطيع أحد غير صاحب الحادث النفسي ادراك هذا الحادث النفسي بصورة مباشرة أما الآخرون فانما يدركون آثاره وما قد يستتبع من سلوك أو رد فعل . ونحن إذ ندرك خوف غيرنا أو خجله فانما ندرك هذا الخوف أو الخجل بمقارنته بخوفنا أو خجلنا .

٦ — وثانيها : **ان الحوادث النفسية لا تشغل مكاناً بل تجري في الزمان** . فلا مكان للارادة ولا محل للخوف . وقد يعترض معترض بأن محل الحب القلب وأن محل الفكر الدماغ فنذكره بأن ما من برهان علمي يقوم على أن الحوادث النفسية موجودة في داخل حجيرات الدماغ رغم اعترافنا بما بين الجسد والنفس من وشائج وصلات .

٧ — وثالثها : **ان الحوادث النفسية ذاتها لا تقاس** ، وإذا اعترض على هذا القول بمحاولات قياس العواطف والميول وغيرها كان جوابنا إن ما يحاول قياسه هو آثار هذه الحوادث النفسية لا ذواتها .

— ح —

٨ — تتألف طريقة علم النفس ، كطرائق علوم الحوادث كلها ، من عمليتين : **وصف و تفسير** .

أما الوصف فأشكاله عديدة نستعمل كلها :

٩ — يمكن الوصف بالاستعانة بالملاحظة الباطنية أو الشخصية وتسمى **بالتأمل الباطني** ؛ وهو نظر الانسان في نفسه وتأمله حادثاً من حوادثه النفسية ، وهو إما أن يكون عفوياً أو إرادياً . أما التأمل الباطني العفوي فهو سريع مبهم غير

مقصود . وقد يسترعي الانتباه في بعض الأحيان ويقود إلى التأمل والتدقيق فينقلب إرادياً ، فيمعن الانسان النظر في الحادث النفسي ويحلله محاولاً تبين دوافعه وأسبابه ومجراه متقصياً دقائقه مقرباً إياه من الحوادث النفسية الأخرى معللاً إياه محاولاً الكشف عن القوانين التي تجمعه بغيره ويخضع لها مع سواه . وقد اعترض بعض علماء النفس على التأمل الباطني بما يلي :

(١) يطلب إلى النفس أثناء التأمل أن تراقب نفسها ، وهكذا ينقسم انتباهها بين عمليتين أولاهما العملية النفسية الجارية ، وثانيتهما الانتباه إلى هذه العملية وملاحظتها .

(٢) ولذلك فهي إنما تصف ، حين تصف ، ذكريات مضت أو قيد المضي .

(٣) مراقبة الحادث النفسي تغير الحادث ، فالمغضوب مثلاً إذا راقب غضبه هدأ لأن التأمل يتطلب الهدوء وهو عكس الغضب .

(٤) تغير الحالات النفسية السريع يجعل من المتعذر مراقبة الحوادث النفسية السريعة ويقصر التأمل على الحالات البطيئة .

(٥) ليس في مكنة كل انسان أن يتأمل بسهولة وضبط .

(٦) في النفس حوادث لا تقع تحت طائلة التأمل كالأعمال الفيزيولوجية وما يلحق بها من حوادث نفسية وكالعادات والأوضاع .

(٧) الحالة النفسية فريدة من نوعها لا تتكرر ، فخجلي الآن هو غير خجلي بالأمس ، وتصميمي اليوم مختلف حتماً عن تصميمي بالغد .

(٨) يهتم التأمل الباطني بالاشخاص الأسوياء فقط أو النابهين ويهمل غيرهم ممن تفيد دراستهم ، كما سنرى ، فائدة جلى .

ومهما كان في هذه الاعتراضات من الوجاهة والحق ، فانها لا تنتهي بنا أبداً إلى القول بوجوب ترك التأمل الباطني والاستعاضة عنه بقصر علم النفس على دراسة سلوك المخلوقات البشرية لسبب بسيط جداً وهو أنه ما من أحد يستطيع الاستغناء عن هذا التأمل .

١٠ — ويمكن الوصف بالاستعانة **بالملاحظة الخارجية** أو الموضوعية وحينئذ يكون سلوك الناس وتصرفاتهم تحت المراقبة كما يكون أي حادث من حوادث الطبيعة ، وبهذا يصبح الوصف ممكن الضبط : لأن المراقبين الآخرين يستطيعون ملاحظة حركات وأعمال الانسان المدروس . وهذا النوع من الوصف هو النوع الوحيد الممكن مع الأطفال وهو آمن الأنواع ، في الغالب ، مع الراشدين .

ومن البديهي أن نذكر بهذه المناسبة بأن استعمال بعض أجهزة المخبر في الملاحظة الخارجية يمكن أن يجعل هذا الوصف أكثر علمية وضبطاً .

١١ — هذا ويمكن أيضاً اللجوء الى **التجريب** ، أي إثارة الحوادث للتمكن من ملاحظتها جيداً في الظروف التي اخترناها ؛ وبهذه الطريقة يمكننا تصور تجارب مختلفة وأنواع عديدة من الاختبارات لقدر انتباه الطفل أو ذاكرته أو ذكائه أو غيرها. ومن البديهي أنه هنا ، كما في غيره من العلوم ، من المرغوب فيه الحصول على القياس العددي إن أمكن .

١٢ — وأخيراً يمكن اللجوء إلى **ملاحظة الامراض** ، أعني الأمراض العصبية والعقلية ؛ فكثيراً ما تقدم لنا الطبيعة التجارب التي كنا نريد إجراءها لولا أن الأخلاق تمنعنا من ذلك .

وأما التفسير فيمكن البحث عنه في اربع اتجاهات مختلفة :

١٣ — يمكن **البحث عنه في الجسم** وخاصة في الجملة العصبية والدماغ . إذ من المعلوم أن بعض حالاتنا النفسية متعلقة بما يحدث في عضويتنا وتفسر بتوازن هذه العضوية العام أو بتأثير الجملة العصبية ؛ إذن فهناك **المنهج الفيزيولوجي** في التفسير .

١٤ — ويمكن **البحث عنه في المجتمع** إذ من المعلوم أيضاً أن كثيراً من حالاتنا النفسية وأفكارنا ومعتقداتنا وحتى عواطفنا تتعلق بالمحيط الاجتماعي الذي نعيش فيه وإذن فهناك **المنهج الاجتماعي** في التفسير .

١٥ — ويمكن **البحث عنه في الحوادث النفسية نفسها** وذلك لانه من غير المشكوك فيه أن بعض حالات النفس تفسر بحالات نفسية اخرى أبسط وأسبق فمثلاً نرى إرادة الطفل تبزغ رويداً رويداً من التقليد والطاعة اللتين كانتا حتى الآن الشكل الوحيد لتصرفه . إذن فهناك **منهج تولبدي** يرينا حادثاً ينجم عن آخر .

١٦ — وأخيراً فمن الممكن على الأقل ، وما من شيء يسمح لنا بنكران ذلك

سلفاً ، أن بعض حالات الشعور تفسر **بفعالية النفس نفسها** ؛ بوجود قوة عميقة فينا هي المنبع الثر لجهودنا وأعمالنا ؛ إذن فهناك **المنهج البنافيزيكي** الممكن في تفسير الحوادث الداخلية .

وسنتحدث عن هذه المناهج في موضعها من الفصول المقبلة بالتفصيل .

وقديماً قيل : **أصعب صعوبات علم النفس القيام به .**

La grande difficulté de la psychologie, c'est d'en faire

وذلك لأننا **كثيراً ما نتكلم في الاخلاق او المنطق** في الحين الذي نحسب فيه أننا نتكلم عن النفس . فمثلاً عوضاً عن أن نصف الحوادث كما هي (متواضعة او منحطة ، كثيرة القرب من الحيوانية) نصورها كما يجب أن تكون (معقولة ، حرة ، سامية) وبهذا الشكل يصور لنا الانسان مفكراً في كل أعماله ، باحثاً دوماً عن الأحسن — أخلاق .

وكثيراً ما توصف الحوادث لا كما هي ولكن كما يمكن أن تكون على شكلها الأحسن بلغة معقولة متناسقة ولكنها للأسف غير واقعية ولعل أصدق مثال على ماتقول هو التعريف الاتباعي **للارادة** الذي يقول أن في العمل الارادي يجب أن يكون إدراك Conception ومذاكرة Délibération واختيار Choix . والواقع أن هذا يمكن أن يكون وهو كائن بعض الاحايين ولكن في مرة واحدة من عشرة — منطق .

— ٥ —

١٧ — **التقسيم الاتباعي** للحوادث النفسية هو تقسيم ثلاثي :

١ً — **الحوادث الفاعلة** : ردود فعل غريزية وعادية وإرادية .

٢ً — **الحوادث الانفعالية** أو الحسية ، سرور ، ألم ، هيجان ، رغبة ، عاطفة .

٣ً — **الحوادث العقلية** : أي تلك التي تتميز بأنها معارف : إدراك ، محاكمة ، ذكرى ، صورة ، فكرة ، الخ ...

١٨ — **ويمكن** أن تقسم إلى قسمين وذلك لأن الكائن البشري **عمل و فكر** أي أنه يحيا وينظر في حياته ، يناضل ويتأمل . وهكذا فالهيجان ليس إلا عارض من عوارض العمل .

١٩ — أما فيما يتعلق **بوحدة النفس** فهناك فرضيات ثلاثة :

١ً) **اما ان يكون الفكر في خدمة العمل** : إن بحثنا أو عرفنا أو اهتدينا إلى علم فما ذلك إلا نتيجة من نتائج السلوك العملي وحينئذ فالأساس العمل .

٢ً) **واما ان يكون العمل في خدمة الفكر** : إن سعينا أو جاهدنا أو تعاونا فما ذلك إلا ليسود الشعور والعقل في العالم وحينئذ فالاساس الفكر .

٣ً) واخيراً **فمن الممكن ان لا يكون احدهما في خدمة الآخر** : فالانسان مخلوق يناضل ويفكر ويتأمل .

وليس لدينا الآن واسطة حل هذه المشكلة ، إلا أننا سندرس الحوادث النفسية مبتدئين بالسهل البسيط منها ، منتقلين إلى الصعب المركب ، غير آخذين بتقسيم معين ، مستهدفين الأخذ بيد الطالب إلى فهم الأمور بالانتقال من المشاهد الواقع تحت الحس الى الذي يحتاج للتحليل وإعمال الفكر .

٢٠ — علم النفس على أنواع عدة هي :

١ً) **علم نفس الاسوياء** : ويتناول بالبحث نفسية الناس الأسوياء العاديين ويدرس سلوكهم .

٢ً) **علم نفس غير الاسوياء** : ويتناول بالبحث نفسية الشواذ الذين في جهازهم العصبي خلل او نقص وفي عقولهم ضعف أو شذوذ .

٣ً) **علم نفس الراشدين** : ويتناول بالدرس نفسية الراشدين من الاسوياء فقط .

٤) **علم نفس الاطفال** : وهو يدرس نفسية الاطفال وتطور هذه النفسية ووقت بزوغ قواهم النفسية المختلفة . وهو قسم من اقسام علم النفس التوليدي .

٥) **علم النفس البشري** : ويصف سلوك البشر بمقارنته مع سلوك الحيوانات.

٦) **علم النفس الحيواني** : وهو علمي بحت ، يدرس سلوك الحيوان .

٧) **علم نفس الفرد** : ويهتم بصورة خاصة بدرس الفروق الفردية واختلاف نفسية البشر وسلوكهم .

٨) **علم نفس الجماعة** : وهو يهتم بالفرد ضمن المجتمع ويدرس تأثره بهذا المجتمع.

٩) **علم النفس المحض** : وهو الذي يدرس حقائق الحوادث النفسية ويحاول الوصول إلى القوانين التي تخضع لها دون اهتمام بتطبيقها .

١٠) **علم النفس المطبق** : وهو عبارة عن تطبيق علم النفس المحض على الحياة العملية . واقسامه الرئيسية هي :

ا — علم النفس التربيوي .
ب — علم النفس الصناعي .
ح — علم النفس الشرعي .

ويمكن تلخيص ما تقدم بالشكل التالي :

علم النفس { سوي — الراشدين — البشري — الفرد — المحض
غير سوي — الاطفال — الحيواني — الاجتماعي — المطبق

وسنهتم نحن بدراسة علم النفس المحض للراشدين الأسوياء كما سنهتم بتطبيقة على التربية مستفيدين من الاقسام الاخرى في توضيح القسم الذي نهتم به .

الفصل الأول

الجملة العصبية والغدد

تصميم البحث

الجسم والنفس وتأثيرهما المتبادل

آ — تشريح الجملة العصبية :

١ — الجملة العصبية وأقسامها وأنواعها

٢ — السينابس

٣ — قوس الانعكاس .

ب — أقسام الجملة العصبية :

١ — الجملة العصبية المركزية :

آ) المخ ، المخيخ ، الدماغ المتوسط ، القنطرة ، النخاع المستطيل

ب) الحبل الشوكي

٢ — الجملة العصبية المحيطية :

آ) الاعصاب المخية الشوكية

ب) الجملة العصبية المستقلة .

ج — تربية الجملة العصبية

د — الغدد :

١ — الغدد ذات الافراز الخارجي : الغدد اللعابية ، الغدد المعدية ، الكبد ، البانكرياس ، الغدد الدمعية ، الغدد العرقية ، الكليتان ، الغدد التناسلية .

٢ — الغدد ذات الافراز الداخلي : الغدة الدرقية ، التيموس ، الغدة النخامية ، الغدد التناسلية ، الكظران .

علاقة هذه الغدد بالحياة النفسية .

مراجع البحث .

١ — تقول الحكمة القديمة المشهورة : « العقل السليم في الجسم السليم » وهو قول صحيح تؤيده التجربة والخبرة اليومية البسيطة ؛ فالعليل لا إرادة له ولا صحة لحاكماته ، والمحموم لا يحسن التذكر ولا الانتباه . وليس هذا فحسب لكن عكسه صحيح أيضاً : فسلامة الجسم تتطلب سلامة العقل ، إذ أن المجنون لا يحسن العناية بجسده ، وقد يضر بهذا الجسد ضرراً لا مبرر له إلا عدم سلامة العقل .

٢ — ونحن وإن كنا لا نذهب مذهب السلوكيين ، فنرى أن علم النفس جزء من (علم وظائف الأعضاء) أي الفيزيولوجيا ، يبحث في سلوك الانسان فقط دون سائر الحيوانات ، وأن الفرق بين علم النفس وعلم وظائف الأعضاء هو أن الثاني يهتم بعمل أجزاء الجسم وأقسامه منفصلة في حين أن الأول يدرس رد فعل الجسم كوحدة ؛ أقول : ونحن إن كنا لا نذهب هذا المذهب ، فاننا نؤكد أن الصلة وثيقة بين الجسد والنفس وأنه لا بد من فهم ميكانيكية الجسد وتركيبه لفهم حوادث النفس وما يجري فيها ، ونحن وإن كنا لا نرى « أن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء » فاننا نجزم بعلاقة الجملة العصبية بالنفس وتأثير بعض الغدد في الحياة النفسية وبأهمية الحواس لهذه الحياة .

٣ — ولهذا نرى أنه لا بد لنا ، لفهم الحياة النفسية فهماً صحيحاً ، من دراسة الجملة العصبية ووظائفها وتأثيرها في الحياة النفسية ، كما أنه لا بد لنا من دراسة الغدد والحواس وتبين أهميتها بالنسبة للنفس وعملها فيها .

آ — تشريح الجملة العصبية

٤ — تتألف الجملة العصبية من حجيرات عصبية تدعى واحدتها « نيورون » Neurone ويقدر ما يوجد في جسم الانسان من هذه الحجيرات بعشرة مليونات حجيرة ؛ وهي صغيرة جداً ولا ترى بالعين المجردة . وليست الحجيرات العصبية متساوية بالشكل والحجم ، وبعضها أكثر تعقيداً من بعض .

٥ — تتكون الحجيرة العصبية عادة من ثلاثة أقسام :

جسم الحجيرة : ويحتوي على النواة .

المحور : وهو طويل غير متفرع .

الفروع : وهي تشبه أغصان الشجر ويختلف عددها فتبلغ المائة أحياناً . وهي أقصر من المحور . ولكل حجيرة جسم ومحور حتماً . هذا ومما تجدر الاشارة إليه في هذا الصدد هو أن التيار العصبي يدخل من الفروع ويخرج من المحور .

وتقسم الحجيرات العصبية ، بالنسبة إلى وظيفتها ، إلى ثلاثة أقسام :

١) **حجيرات الحس** : وهي ترتبط بالحواس في أطراف الجسم ووظيفتها حمل التيار العصبي إلى الجهاز العصبي المركزي .

٢) **حجيرات الحركة** : وتتصل بالعضلات والغدد وتحمل التيار العصبي من الجهاز العصبي المركزي إلى الخارج .

٣) **حجيرات الوصل** : وهي في داخل الجهاز العصبي المركزي وتصل بين أقسام الجهاز العصبي .

٦ — **يحتاج نقل التيار العصبي عند الحيوانات الفقرية الى حجيرتين او اكثر** فيمر التيار من حجيرة إلى أخرى ويكون ذلك بواسطة تقارب محور إحدى الحجيرات من فروع حجيرة أخرى . والمظنون أنه لا يوجد اتصال تام بين الحجيرات العصبية ، بل يوجد غشاء حاجز بين كل اثنين منها ؛ وهذا الغشاء لا يسمح بمرور التيار العصبي إلا في اتجاه واحد فقط ، وهذا الاتصال غير التام يسمى (**سينابس**) . وليس (السينابس) شيئاً إنما هو مكان وله مقاومة ، أي أنه يقاوم مرور التيار العصبي فيه ؛ ولكن مقاومته تقل وتتناقص بعد مرور التيار الأول ، وكلما زاد عدد مرات المرور قلت المقاومة وهذا هو التعليل الفيزيولوجي للتعلم والعادة . هذا وتجب الاشارة إلى أنه إذا لم يكن هناك اتصال طبيعي بين حجيرتين فيمكن للتربية والتدريب أن تخلقا ، إلى حدما ، اتصالا بينهما ، والمعنى التربوي لهذا واضح لا يحتاج

إلى شرح . وعلى هذا يكون التعلم عبارة عن تكوين ممرات فضلى بين الحجيرات العصبية بالقضاء على مقاومة السينابس تدريجياً . وإذا أهمل الممر زمناً طويلاً تعود المقاومة ، أي ينسى الانسان ما كان يعرفه . والذكي هو من كانت اتصالاته العصبية المكتسبة عديدة ومتنوعة .

ويؤثر بعض العقاقير والفضلات السامة الناتجة من التعب على هذه المقاومة : فالتعب العقلي يزيدها وكذلك الكحول والكلوروفورم والنيكرتين والمورفين ، أما الكافئين والستركنين فتقلل المقاومة .

٧ — قلنا أن نقل التيار العصبي يحتاج إلى حجيرتين عصبيتين على الاقل يكوّنان ما يسمى **بقوس الانعكاس** ؛ وقوس الانعكاس يتألف عادة من حجيرات ثلاث أو أكثر هي : حجيرة حس وحجيرة حركة وحجيرة أو حجيرات موصلة تصل بينها . وفي الجسم البشري ألوف من هذه الأقواس . وتسمى الأفعال التي تجري فيها بالأفعال المنعكسة ، وتختلف درجة التعقيد في أقواس الانعكاس هذه ، وتكاد تكون ممرات التيارات العصبية التي تجري فيها الأفعال المنعكسة ثابتة ، وكثير منها وراثي وواحد عند كل الناس ، وقد يشترك فيها الانسان والحيوان معاً . ويرى علماء النفس أنه بالامكان دائماً إيجاد صلات جديدة في بعض أقسام الجهاز العصبي ، أي أن الانسان يستطيع أن يتعلم في كهولته وشيخوخته .

٨ — كان يظن قديماً أن الأعصاب أنابيب تسري فيها الروح ، أما الآن **فلسنا نعلم ما اذا كان التيار العصبي نتيجة تفاعل كيماوي او كهربائي او الاثنين معاً** . إلا أن أغلب الأدلة تتضامن على أنه حاصل نتيجة سلسلة من الانحلالات الكيماوية السريعة ذات الطبيعة الكهربائية . وليس من السهل أن تتعب الأعصاب وذلك لواحد من سببين : إما لأنها غير قابلة للتعب أو لقدرتها على استعادة نشاطها بسرعة . وأغلب الظن أن التعليل الأخير هو الاصح .

ب — أقسام الجملة العصبية

٩ — تقسم الجملة العصبية إلى قسمين :

١) **الجملة العصبية المركزية :**

آ — الدماغ : ويقسم إلى خمسة أقسام : المخ ، المخيخ ، الدماغ المتوسط ، القنطرة ، النخاع المستطيل .

ب — الحبل الشوكي .

٢) **الجملة العصبية المحيطية :**

آ — الأعصاب المخية الشوكية .

ب — الجملة العصبية المستقلة .

وليس هنا مجال البحث المفصل في هذه الأقسام ووضعها التشريحي والفيزيولوجي ولذلك فسوف نكتفي بوصف سريع لها ولأعمالها ، مما قد يساعدنا في دراستنا النفسية .

١٠ — أما المخ ، ذو الشكل البيضوي ، فهو أكبر أجزاء الدماغ ، ويقسم الى نصفين متصلين من الأسفل منفصلين من الأعلى . والطبقة الظاهرة للمخ رمادية تشتمل على مراكز الحس المختلفة ، وتتألف من تلافيف عديدة ، يظن بأن عددها وعمقها يختلفان باختلاف ذكاء الانسان وتتصل الجهة اليمنى من هذه المراكز بالجهة اليسرى من الجسم والعكس على العكس ، والمراكز المتصلة باجزاء الجسم السفلى موجودة في أعلى المخ ، أما المراكز المتصلة بأجزاء القسم العليا فهي في الأسفل ، **ويسيطر المخ على جميع الحركات الارادية وغير الارادية ، وهو مصدر الاحساس والتفكير والارادة والانفعال .**

يولد الطفل مزوداً بهذه المراكز كلها فبعضها يعمل منذ ولادته ، وبعضها الآخر يحتاج إلى وقت يطول أو يقصر .

١١ — اما **المخيخ** فهو أصغر من المخ ويوجد في أسفل الجمجمة ويتصل بالمخ من أسفل ؛ وهو مقسوم إلى نصفين كرويين أيضاً . **يشتمل على مراكز حركة العضلات وترابطها ، ويعمل على حفظ توازن الجسم ويعاونه المخ في ذلك .**

١٢ — وأما **النخاع المستطيل** فمخروطي الشكل تتصل قمته بالنخاع الشوكي وتتصل قاعدته بالمخ والمخيخ . **والقنطرة** هي الجزء الأمامي العلوي منه ، وبها عقدة الحياة التي تتقاطع عندها الأعصاب الآتية من المخ إلى الحبل الشوكي ، فتذهب الأعصاب الآتية من نصف المخ الأيمن إلى الجزء الأيسر من الجسم والعكس على العكس . **يدير النخاع المستطيل الحركات الحيوية الهامة** ، كحركات التنفس وضربات القلب وفعل الهضم .

١٣ — أما **النخاع الشوكي** فهو حبل اسطواني يبتدئ من الطرف الأسفل للنخاع المستطيل ، وتتفرع عنه الأعصاب الشوكية وعددها (٣١) من كل جانب ، **ويسيطر النخاع الشوكي والأعصاب الشوكية على الافعال المنعكسة** كالسعال والعطاس وإغلاق العين عند اقتراب شيء منها فجأة الخ ...

١٤ — وأما **الجملة العصبية المستقلة** فتتركب من سلسلتين من العقد العصبية ، متقابلتين مع جانبي العمود الفقاري . وهي تتفرع إلى خيوط عصبية دقيقة جداً تنتشر في الأعضاء التي تقوم بالأفعال غير الارادية كالقلب والرئتين والكبد وغيرها من الأعضاء الباطنة كالمعدة مثلاً كما تنتشر في جدرا الأوعية الدموية . وهي **تعمل والنخاع المستطيل على توافق الوظائف الحيوية للاعضاء الرئيسية** في جسم الانسان . **وهذا العمل آلي** لا يتدخل فيه المخ إلا في الحالات الخاصة .

٥ — تربية الجملة العصبية

١٥ — هذا الأثر الذي بيناه للجملة العصبية في إدارة الجسم وعمل العقل يُظهر لنا بوضوح وجوب العناية بهذا الجهاز والتوفر على تربيته ، سيما وأن الجملة

العصبية ، كغيرها من الأجهزة ، غير تامة النمو عند الولادة فلا بد إذاً من تربيتها . وهذه التربية تبدأ في أيام الحمل ، فسهر الأم وقلقها وتعرضها للمؤثرات الشديدة أثناء حملها يؤثر في الجملة العصبية لجنينهـــا ، فيولد الطفل عصبي المزاج ، شديد الانفعال . وإذا ولد الطفل كان من واجب الأبوين ، في سبيل ضمان صحة هذه الجملة العصبية ، أن يعنيا بمراعاة القواعد الصحية في تربيته ، فينشأ صحيح الجسم ؛ ومراعاة القواعد الصحيحة في تربية عقله ، فينمو صحيح العقل ؛ وتتهذب غرائزه وتوجه ميوله ويستغل نشاطه وتربى حواسه فينمو إدراكه وعقله . ثم على المربي أن يُعنى بمحيط الطفل وما في هذا المحيط من مؤثرات ، فيسمح بالصالح منها ويقويه ويبعد الطالح ويقصيه . وليذكر المربي ، أماً وأباً ومعلماً ، أن على حسن تربية المجموع العصبي يتوقف نماء شخصية الطفل وسيرها في الطريق الأخلاقي القويم. وليذكر المربي دائماً أن المعاملة الليّنة والهدوء الشامل والابتعاد عما يثير الأعصاب ويهيج العاطفة أجدى في تربية العصبيين من الأطفال .

د — الغدد

١٦ — لا يستغني طالب علم النفس ، في سبيل فهم الحياة النفسية والاحاطة بدقائقها ، عن دراسة الغدد ، ولا سيما غدد الافراز الداخلي التي بدأ علم النفس وعلم وظائف الاعضاء يعزوان إليها كثيراً من الأمراض الجسدية والنفسية التي كانت تعلل قبلاً بأسباب لا تمت إلى الصحة بصلة .

١٧ — والغدد الموجودة في جسم الانسان على نوعين :

آ — ذوات الأقنية أو ذوات الافراز الخارجي .

ب — التي لا أقنية لها أو ذوات الافراز الداخلي .

أما غدد الافراز الخارجي فهي :

١) الغدد اللعابية ، الغدد المعدية ، الكبد ، البانكرياس ؛ وهي تساعد الهضم

٢) الغدد الدمعية وهي ترطب العين وتغسلها .

٣) الغدد العرقية وهي تنظم حرارة الجسد .

٤) الكليتان ووظيفتها اطراح الفضلات .
٥) الغدد التناسلية للانتاج .

وأما غدد الافراز الداخلي فهي تنتج مواد كيماوية معقدة التركيب ، متناهية القوة والتأثير تدعى « الهرمونات » تنصب في الدم وتدور معه فتصل انحاء الجسد كافة وتؤثر فيها . وعلى مجموع فعاليات هذه الغدد وتناسقها يتوقف النماء الجسدي والعقلي والعاطفي ؛ ومن هنا كانت أهميتها البالغة بالنسبة لعالم النفس والمربي .

١٩ — **الغدة الدرقية** : وهي موجودة أمام الحنجرة ، الى الاسفل منها قليلا ، تزن (٣٠) غراماً تقريباً ، وهي قد تضمر وقد تتضخم ويؤدي ضمورها وتناقص فعاليتها إلى ايقاف النمو الجسدي والعقلي وتنتهي بالمريض إلى حالة تعرف بـ (**القماءة**) فيقف طول المريض ويجف جلده ، ويخشن شعره ، ويصبح بطيئاً ، ويظهر عليه التأخر العقلي بشكل واضح وينتهي به الأمر الى ضعف عقلي اقرب الى البلاهة منه إلى أي شيء آخر وتبدو عليه قلة الاهتمام .

أما تزايد فعاليتها فيسبب ارتفاع الضغط الدموي الى درجة عالية جداً ، وجحوظ العينين ، والتهيج العصبي ، واضطراب الطبع وتقلقله .

وعلاج الحالتين يكون باعطاء المريض خلاصة الغدد الدرقية المأخودة من الحيوانات وباليودين . وهذه الخلاصة تفيد في تنشيط الملكات العقلية عند الاصحاء .

٢٠ — **البتموس** : موجودة في أسفل العنق وعلى جانبي الرغامي ، تفرز هرمونات تؤثر في نمو العظام وتضبط نمو الغدد التناسلية .

٢١ — **الغدة النخامية** : موجودة في أسفل المخ ، وظيفتهـــا ضبط نمو الهيكل العظمي . زيادة إفرازها تجعل المريض عملاقاً أو مفرطاً في غلاظة ملامح الوجه ، مندلع الذقن . ويرجح أن زيادة إفرازها تسرّع العمليات العقلية وتهيجها أما تناقص إفرازها فيؤخر هذه العمليات العقلية . وهذه الغدة تلعب دوراً أساسياً في عمل الغدد التناسلية والدرقية .

٢٢ — **الغدد التناسلية** : وهي على أقسام مختلفة يهتم أحدها بعملية التناسل والآخر بضبط الصفات الجنسية الثانوية كشكل الجسم ومحيطه والصوت وتوزيع الشعر في الجسم الخ ... ولسنا ندري إذا كانت تسبب فروقاً عاطفية وعقلية بين الجنسين ، وعدم جزمنا هذا مرده إلى صعوبة مراقبة المحيط وأثره ، فلا نتمكن من الجزم بأن هذه الفروق سببها جنسي او محيطي .

٢٣ — **الكظران** : غدتان موجودتان في أعلى الكليتين ولا يستطيع الانسان أن يعيش ٢٤ ساعة بدونها ، يكمل عملها عمل الجملة العصبية المستقلة وتجلى تأثيرها في الحالات العاطفية . يستخرج منها مادة تدعى الأدرينالين تقبض الاوعية الدموية وتخفف نبضات القلب .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الفصل الرابع
٢ — الجارم وأمين : الباب الثاني
٣ — صليبا ـ جميل : الفصل الثاني من الكتاب الاول
٤ — عبد المسيح ورفاقها : الباب الخامس
٥ — نجار ـ فريد : الفصلان الثالث والخامس

الفصل الثاني

الفعل المنعكس . الفعل المنعكس الشرطي

الغريزة

تصميم البحث

آ — قوس الانعكاس :

م ← د ويحتاج الى حجيرة حسية واخرى حركية تتوسط بينهما ثالثة مركزية .

ب — السلوك الثابت :

١ — تعريفه : مجموعة ردود فعل موروثة .
٢ — تمييزه : أسس تمييز السلوك الثابت .
٣ — أنواعه : ١) الأعمال الفيزيولوجية
٢) الفعل المنعكس
٣) الغريزة .

م — الفعل المنعكس :

كل فعل بسيط ، كثير الحدوث ، سريع وتام منذ الولادة .
أنواعه .
قوانينه .

د — الفعل المنعكس الشرطي :

ميكانيكيته . أنواعه . صفاته . قيمته في التربية .

ه — الغريزة :

معرفة للعمل فطرية . الفروق بينها وبين الفعل المنعكس . صفاتها . الغريزة عند الانسان انواعها . أهم الغرائز . أصل الغريزة . الغريزة والتربية .

آ — قوس الانعكاس

١ — قلنا في حديثنا عن الجملة العصبية أن نقل التيار العصبي من عضو الحس إلى عضو الحركة يحتاج إلى حجيرتين أو أكثر ، إحداها حسية والاخرى حركية وسمينا هذه السلسلة من الحجيرات **بقوس الانعكاس** (في العادة لا غنى عن حجيرة أخرى مركزية وعدد كل الحجيرات الحسية والحركية والمركزية أكثر من واحد وقوس الانعكاس هذا على درجات مختلفة من التعقيد) ؛ فلو وخزت إصبعك بدبوس لتلقت هذا الاحساس حجيرة حسية موجودة في نهاية أنملك فنقلته إلى حجيرة مركزية في دماغك وهذه بدورها أصدرت أمرها إلى حجيرة حركية موجودة في عضلتك فتسحب إصبعك . ولو رمزنا إلى الدبوس بـ (م) ولسحبك إصبعك بـ (ر) لأمكننا أن نشير إلى ما حصل بـ :

م ⟵ ر

قاصدين بـ (م) **المؤثر** و بـ (ر) **رد الفعل** وهكذا **فلكل مؤثر رد فعل حتماً** .

٢ — وبديهي أن نذكر بأننا سهلنا الأمر كثيراً بهذا الوصف . فالواقع يشير إلى وجود عدد كبير من الاتصالات بين هذا الجزء الذي تلقى الاحساس من أنملك وبين الدماغ ، كما أنه يوجد عدد كبير من الاتصالات بين المركز الدماغي الذي تلقى الاحساس وبين أجهزة الحركة ، ولذلك فأنت قد لا تكتفي بسحب يدك بل تلجأ إلى الصراخ والضرب والاهتزاز وغير ذلك من الحركات والأفعال .

٣ — ولسنا نحب أن نفهم مع السلوكيين أن الأمر آلي بحت ، وأن الجسم آلة لرد الفعل . فالعقل يشترك في رد الفعل هذا فيقويه أو يضعفه ، وقل الأمر نفسه عن العاطفة والارادة . ولكن الأمر في أساسه آلي .

ب — السلوك الثابت

٤ — **كلما ازدادت العضوية الحيوانية تعقداً ازداد سلوكها تعقداً أيضاً**، وليس أدل على تعقد تركيب العضوية الحيوانية من تعقد تركيب جملتها العصبية؛ فالحيوان البسيط التركيب يكون سلوكه كله، أو أغلبه، ثابتاً لا يتغير، وكلما صعدنا إلى الحيوانات المعقدة التركيب العضوي تناقص الثابت وحل محله السلوك المتغير؛ والأمر نفسه صحيح بالنسبة للوليد البشري. فهو يولد، حين يولد، بسلوك ثابت موروث، وما يكاد يأخذ بالنمو حتى يتناقص سلوكه الثابت ويزداد سلوكه المتغير (المكتسب).

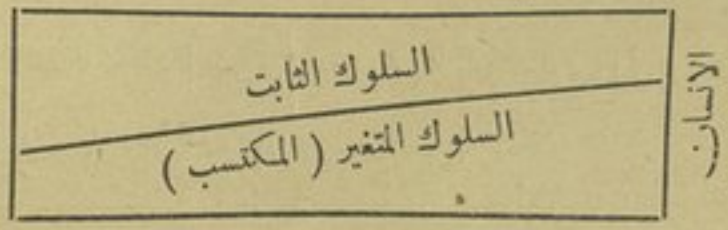

٥ — **والسلوك الثابت هو مجموعة ردود فعل موروثة**، ويتجلى عند الانسان في الأعمال الفيزيولوجية التي تحفظ بقاءه كعملية الهضم وإخراج الفضلات والتنفس ودوران الدم. ولكن هذه الاعمال نفسها ليست مطلقة الثبات إذ أنها تقبل بعض التكيف. وهذه الاعمال الفيزيولوجية تامة منذ الولادة.

٦ — كيف نميز السلوك الثابت؟ لقد اقترحت أسس عدة لتمييز السلوك الموروث عن السلوك المكتسب وأهم هذه الأسس **العمومية**، وهي أساس جيد إذا قيد بصرف النظر عن المحيط ولم تقم الدلائل على عكسها. واقترحت أسس أخرى **كالنفع و كمال النمو منذ الظهور** وغيرها مما لا يعتمد عليها. أما الأسس المقبولة فهي ثلاث:

١) انتقال صفة ما من جيل إلى آخر بطريقة الوراثة البيلوجية بحسب قانون مندل (وسندرسه حين ندرس بحث الوراثة) ودون تأثر بالمحيط دليل على أن هذه الصفة وراثية وأنها من السلوك الثابت.

٢) كون الصفة ناتجة عن ميزة خاصة في تركيب المخلوق دليل على أنها وراثية. ويظن أن هذا الأساس خيرها .

٣) ظهور رد فعل ما رغم منع كل الوسائط والظروف التي تسبب اكتسابه دليل على أنه موروث .

حـ — الفعل المنعكس

٧ — قلنا أن الأعمال الفيزيولوجية تدخل ضمن السلوك الثابت وهي النوع الأول منه . أما النوع الثاني فهي الأفعال المنعكسة .

والفعل المنعكس رد فعل أو مجموعة ردود فعل بسيطة جداً تشمل عدداً من الأقواس العصبية الانعكاسية ، وهي وراثية وكاملة منذ الولادة . ولذلك فمن الصعب تغيير الأفعال المنعكسه ، ويمكننا أن نعتبر فعلاً منعكساً . **كل فعل بسيط نسبياً ، كثير الحدوث ، سريع ، وتام نسبياً منذ الولادة .**

٨ — أما تصنيف الأفعال المنعكسة فأمر اختلف فيه العلماء ، واختلافهم هذا راجع لنقص معلوماتنا النفسية والفيزيولوجية الحاضرة . والتصنيف الذي نورده هنا هو تصنيف (وارن Warren) .

١) **الافعال المنعكسة المحضة** (أي التي قلما تتكيف عند الراشدين) كحركة بؤبؤ العين ، والافعال المنعكسة المعدية ، وسحب اليد ، والقشعريرة الخ ...

٢) **الافعال المنعكسة المحضة الى حد كبير** (يمكن إضعافها أو تقويتها أحياناً) كالفواق والعطاس والتثاؤب والقيء وسيلان اللعاب واحمرار الوجه أو اصفراره الخ..

٣) **الافعال المنعكسة المحضة أحياناً** (كثيراً ما تتكيف) : كالسعال واللهاث والنشيج الخ ...

٤) **الافعال المنعكسة المحضة عند الاطفال ، المتكيفة عند الراشدين :**

كالمص والبصق وادارة الرأس الخ ...

٥) **الافعال المنعكسة الانتصابية** : كانتصاب الرأس والتوازن الخ ...

٩ — يخضع الفعل المنعكس لقوانين أهمها :

١) **قانون العتبة** : لا يحدث المؤثر رد فعل ما إلا حين يبلغ حداً أصغرياً من القوة ونسمي هذا الحد الأصغري بعتبة المؤثر .

٢) **قانون المطابقة بين المؤثر ورد الفعل** : يزداد ردالفعل ازدياداً أبطأ من ازدياد شدة المؤثر .

٣) **قانون التفاوت بين المؤثر ورد الفعل** : تختلف شدة رد الفعل عن شدة المؤثر (تزيد عنها زيادة كبرى) .

٤) **قانون نوعية رد الفعل** : يختلف رد الفعل بحسب نوع المؤثر بل بحسب نوع الخلية . فمؤثر واحد يحدث ردود فعل مختلفة في الخلايا المختلفة (عضلية ، عصبية ، الخ ...)

وهذه القوانين ، كما يلاحظ ، هي قوانين تنطبق على ردود الأفعال كما تنطبق على الأفعال المنعكسة ؛ ويضاف إليها قوانين خاصة بالأفعال المنعكسة اليك أهمها :

٥) **قانون التحديد** : ضعف المؤثر يحصر الفعل النعكس في الناحية المنبهة .

٦) **قانون الانتشار** : شدة المؤثر تسبب انتشار الفعل المنعكس ، وقد تعم الحركة كل الجسد .

٧) **قانون الاهتزاز المستمر** : قد ينقطع المؤثر ويبقى التأثير في النخاع الشوكي مدة فتنشأعن ذلك جملة من الأفعال المنعكسة المتتالية .

د – الفعل المنعكس الشرطي

١٠ – اعطى (**بفلوف** Pavlov) الروسي كلباً قطعة لحم فكان سيلان لعابه رد الفعل الطبيعي لذلك ، ثم قرن إعطاءه اللحم للكلب بقرعه جرساً وكرر ذلك فرأى بعد عدة مرات أن قرع الجرس وحده كاف لاسالة لعاب الكلب فسمى سيلان اللعاب في المرة الثانية **بالفعل المنعكس الشرطي** :

١م	(قطعة اللحم)	← ر١ (سيلان اللعاب ، فعل منعكس طبيعي)
٢م	(صوت الجرس)	← ر٢ (الفعل المنعكس الطبيعي لهذا الصوت)
١م + ٢م	(الاثنان معاً)	← ر١ (سيلان اللعاب بعد التكرار)
٢م	(صوت الجرس فقط)	← ر١ (سيلان اللعاب ، فعل منعكس شرطي)

ولم يكتف بفلوف بهذا بل نوعه فاستبدل بقرع الجرس الربت على ظهره ، ولمس جلده بقطعة جليد فحصل دوماً على الفعل المنعكس الشرطي (سيلان اللعاب) .

وقد تابع (**وطسن** Watson) الاميركي هذه التجارب فطبقها على الاطفال فاهتدى إلى الأفعال المنعكسة العاطفية الشرطية كما قرر إمكان فك الأفعال المنعكسة الشرطية إلى مؤثراتها الطبيعية .

١١ – في هذا المثال الذي ذكرناه أتينا بالمؤثر الطبيعي والمؤثر الشرطي في وقت واحد ، ويدعى الفعل المنعكس الشرطي الذي نحصل عليه من هذا النوع **بالفعل المنعكس الشرطي المقترن** .

وقد وجد بفلوف أننا إذا تركنا فاصلاً زمنياً بين المؤثر الطبيعي والمؤثر الاصطناعي وسبق إطعام الكلب قرع الجرس فلا يحصل الفعل المنعكس الشرطي . وهذا أمر بديهي طبيعي إذ لا داعي لاهتمام الكلب بالجرس بعد أن شبع . وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى في التربية **فاذا سبق المؤثر الطبيعي المؤثر الشرطي فلا يتكون في الحيوان فعل منعكس جديد** .

أما إذا قرعنا الجرس وداومنا على قرعه ، ثم أطعمنا الكلب بعد فاصل زمني أثناء القرع ، فان الفعل المنعكس الشرطي يتكون ولكن بصورة تختلف عن السابقة . فاذا جعلنا ، مثلاً ، الفاصل الزمني دقيقتين فان الفعل المنعكس الشرطي يتأخر دقيقتين ويدعى هذا النوع **بالفعل المنعكس الشرطي المتأخر** .

وأما إذا قرعنا الجرس ، وبعد فاصل زمني أطعمنا الكلب (وقد كففنا عن قرع الجرس) فيحصل نوع من الفعل المنعكس يسمى **بالاثر الشرطي أو الافعال المنعكسة الذاكرونية** وذلك لأن المؤثر هنا هو ذكرى صوت الجرس ؛ وهنا أيضاً يتأخر الفعل المنعكس الشرطي بقدر المدة الفاصلة بين المؤثرين الاصطناعي والطبيعي:

١٢ — تتصف الافعال المنعكسة الشرطية بالصفات العامة التالية :

١) الفعل المنعكس الشرطي **موقت وغير ثابت** فاذا أهمل مدة طويلة فقد قوته ولذلك كان لا بد للابقاء عليه من التكرار . هذا مع الملاحظة بان مثل هذه الافعال المهملة يسهل استرجاعها .

٢) الفعل المنعكس الشرطي **خاص** أي أنه من غير الممكن اثارته إلا بالمؤثر الشرطي المقترن به .

٣) يخضع الفعل المنعكس الشرطي **لقانون الاشتراك** فاذا قرنا فعلاً منعكساً بمؤثرين أحدهما صوتي والآخر بصري في وقتين مختلفين ثم استعملنا المؤثرين معاً كان الفعل المنعكس أقوى منه في حالة الانفراد .

٤) **صعوبة الغاء الافعال المنعكسة الشرطية** ، وذلك باستخدام المؤثر الشرطي مراراً عديدة دون قرنه بالمؤثر الطبيعي .

٥) **الغاء واحد من الافعال المنعكسة الشرطية لا يستدعي الغاء الباقي وليس لقوة المؤثر تأثير في طول مدة بقائه .**

٦) **وجود مؤثر معيق اثناء حدوث الفعل المنعكس الشرطي يضعفه .**

٧) تكوين الافعال المنعكسة الشرطية عند الصغار أسهل وأسرع منه عند الكبار .

١٣ — فتح الفعل المنعكس الشرطي آفاقاً جديدة واسعة أمام المربين ، وأطلعهم على حقائق واسعة وسهل مهمتهم وأوضح كثيراً من غوامض عملية التعلم والتعليم وبالتالي ارتقى بها ارتقاءً محسوساً .

لنفرض أن طفلاً لمس الموقد واحترقت إصبعه فسحبها متألماً ، فما سبب خوفه المستمر من النار أو حتى من كل المواقد ؟ جواب هذا السؤال نجده في الفعل المنعكس الشرطي وذلك كما يلي :

ش١ (رؤية الموقد) ← ر١ (اللعب به) رد فعل طبيعي

ش٢ (الاشياء الحارة) ← ر٢ (احتراق اليد وسحبها) ر ″

ش١ + ش٢ (الموقد الحار) ← ر٢ (سحب اليد)

ش٣ (رؤية الموقد حاراً اوغيرحار) ← ر٢ (سحب اليد) فعل منعكس شرطي

ويكفي لهذا الخوف اختبار واحد لأن ألم الحرق شديد . وتعلم الاطفال اسماء ما يحيط بهم من أشياء وأشخاص إنما يجري باقتران منظر هذه الاشياء وهؤلاء الاشخاص بأسمائها وحصول افعال منعكسة شرطية .

والفائدة الكبرى من دراسة الافعال المنعكسة الشرطية هي تحليل المؤثرات وردود الفعل التي تنتج عنها ودراسة كيفية هذا الاقتران مما يزيد انتباهنا لعملية التعلم ومهارتنا في عملية التعليم . فالطفل الذي يولد بردود فعل وأفعال منعكسة بسيطة لا يلبث أن يكتسب كثيراً من الافعال المنعكسة الشرطية ، اي انه يتعلم اشياء جديدة عديدة ندعوها بالعادات والتعلم .

والفرق بين الذكي والابله ، بين العادي والنابغ ، إنما يتجلى بسرعة محوه لافعال منعكسة شرطية قديمة وتكوين أخرى جديدة . وكثيراً ما نكسب عدداً من الافعال المنعكسة الشرطية بصورة لا شعورية .

٥ — الغريزة

١٤ — النوع الثالث من السلوك الثابت هو **الغريزة** . وتمتاز الغريزة عن الفعل المنعكس بالصفات التالية :

١) الفعل المنعكس بسيط يقوم به عضو واحد ، أما الفعل الغريزي **فمركب** يقوم به الجسم بأجمعه .

٢) لا يتوقف الفعل المنعكس إلا على مؤثر خارجي ، اما الغريزي فله **دافع داخلي** إلى جانب المؤثر الخارجي .

٣) غاية الفعل المنعكس حفظ العضو ذي العلاقة . أما **غاية الفعل الغريزي** فحفظ الكائن الحي باعتباره كلاً .

٤) الغالب في الفعل المنعكس ان يكون آلياً ، اما **الفعل الغريزي** فمصحوب **بادراك وعاطفة وارادة** .

٥) لا يمكن تعديل الفعل المنعكس بخلاف الفعل الغريزي الذي **يمكن كبته او تكييفه** .

١٥ — وهكذا نرى ان الغريزة تمتاز على الفعل المنعكس بانها أكثر تعقداً وكمالاً وأقرب إلى العقل . وهكذا تكون الغريزة **معرفة للعمل فطرية** (رابيه Rabier) أو قل هي **دافع باطني يعين الاعمال الخارجية للحياة الحسية ويوجهها دون محاكمة وبصورة فطرية محضة** (له راي Leray) . فالعصفور يبني عشه بدافع من غريزته .

١٦ — أما صفات الغريزة فهي التالية :

١) **تتكيف الغريزة وفقاً لغايات المخلوق** وما اعجب ما نلاحظ بهذا الصدد عند الحيوانات التي نجد بينها بنائين ومهندسين وجراحين الخ ...

٢) الغريزة **عمياء** وليست تأملية . فالحيوان يجهل الغاية التي يعمل لها رغماً عن وجود هذه الغاية .

٣) والغريزة **نوعية** فكل نوع من الحيوان يختص بنوع من الغرائز .

٤) وهي **فطرية وكاملة منذ ظهورها** .

٥) وهي **ثابتة** فنحلنا يبني خليته بالطريقة ذاتها التي كان نحل أجدادنا يبني بها خليته . وهذا لا يناقض ماجاء في الصفة الاولى . فالافعال الغريزية تتكيف بحسب غايات المخلوق وحسب مقتضيات المحيط . أما الغريزة نفسها فهي ثابتة لا تتغير ، والتكييف غير الارتقاء .

١٧ — **اما الانسان فغرائزه تتجلى بشكل ميول غريزية** اكثر مما تتجلى بصناعات فطرية ومعرفة للعمل كاملة ، وهي تتكيف منذ حداثة السن . فهي مرنة تتأثر بالمحيط تأثراً كبيراً . ولا تظهر غرائز الانسان كلها مباشرة بعد الولادة وإذا ظهر بعضها في ذلك الحين فلا يكون ناضجاً . وتحكم عقل الانسان وارادته بغرائزه إلى حد بعيد فينفي عنها كثيراً من العمى الذي عزوناه الى الغرائز . وتترافق عادة بعواطف تقويها او تضعفها ، فكل غريزة تصحبها عاطفة او انفعال يناسبها ، وهذه العاطفة تختفي عند القيام بالفعل الغريزي وتظهر عند انعدامه . والفعل الغريزي يصبح عادياً بالتكرار والمران . وأخيراً فالغرائز موجودة في أساس الميول وتؤثر فيها .

١٨ — الغرائز على **أنواع ثلاث : فردية** ترمي الى حفظ بقاء الفرد كالبحث عن الغذاء والادخار وبناء الاعشاش الخ ... و **نوعية** ترمي الى حفظ النوع كإطعام الصغار والدفاع عنها ، و **اجتماعية** كالتقليد والمشاركة العاطفية الخ ...

ويحصر بعض العلماء هذه الغرائز جميعها بأربع عشرة يقابلها أربعة عشر انفعالا :

الغريزة	الانفعال
حب الاطلاع	التعجب
الهرب	الخوف
المقاتلة	الغضب
السيطرة	الزهو
الخضوع	الاستكانة
الوالدية	الحنو
النفور	الاشمئزاز
الاستغاثة	اليأس
الاجتماع	الشعور بالوحدة
البناء	الحنين الى البناء
التملك	حب التملك
الجنسية	الشهوة
الضحك	المرح

البحث عن الطعام الجوع

١٩ — وليس من واجبنا هنا ان نحل مشكلة الاصل الحقيقي للغريزة : هل حصل عليها اسلاف الحيوانات الحاضرة كعادة ؟ وهذه المشكلة ، في الواقع ، فرع من المشكلة الكبرى التي تبحث عن أصل الانواع الحيوانية ، بل هي مشكلة التطور كلها . وعلى هذا فلن نتعرض لحلها هنا . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن **ميكانيكية الغريزة ، كما نلحظها حالياً هي الميكانيكية نفسها التي نلحظها في العادات الفوية جداً** والتي لا يمكن مقاومتها . وعلى هذا فنحن نستطيع ان نؤكد أن **الغريزة تشبه تماماً العادات المستأصلة** ، لا اكثر ولا اقل .

٢٠ — ينصح وليم جيمس ، محقاً ، المربين بأن **يضربوا الحديد حامياً** ، اي ان على المربي ان يهتم بانتقاء اللحظة التي يكثر اهتمام الطفل بأمر ما يعلمه اياه .

فالغرائز يجب ان توجه بعناية فائقة منذ اللحظة الاولى التي تظهر فيها وعلى المربين ، والدين ومعلمين ، أن يسهروا على أن لا يدعوا الغرائز دون ملاحظة وعناية ، فيوجه الطالح منها وجهة خير ، ويشجع الصالح تشجيعاً كافياً يسمح له بالنمو والتكامل ؛ كما أن عليهم تجنيب الطفل كل ما يمكن ان يترك أثراً سيئاً في حياة الطفل الحاضر منها والمستقبل .

علينا وقد عرفنا قيمة الغرائز واهميتها ، ان نبحث دوماً عن هذه الدوافع الغريزية بعد توجيهها الوجهة الصالحة ، فنفيد منها في عملياتنا التربيوية : الثناء الابق والعطف الدائم والمنافسة المشروعة الخ ... كلها وسائل تربيوية هامة يمكن الاستفادة منها استفادة لا حد لها .

ولنذكر دوماً ان الغرائز الفردية ضرورية لحفظ بقاء الفرد مفيدة جداً له ولمربيه ولكنها خطرة جداً إذا بولغ فيها ، فلا إفراط ولا تفريط . وقل الامر نفسه عن الغرائز الاجتماعية والنوعية فلننتفع بها ولنحذر المبالغة . ولنذكر أيضاً ان الغرائز الاجتماعية تعدل الغرائز الفردية وتحفظها وتسمو بها .

ولنذكر اخيراً انه من الممكن ان نسمو بهذه الغرائز وان نرتفع بها فنخلق بواسطة ذلك عظماء الناس وجلائل الاعمال .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الاول ، الفصل السادس
٢ — الجارم وأمين : الباب الرابع
٣ — خليل ـ نظمي : الفصل الاول
٤ — صليبا ـ جميل : الكتاب الرابع ، المدخل والفصل الاول
٥ — عبد المسيح ورفاقها : الباب السادس
٦ — نجار ـ فريد : الفصلان السادس والتاسع

الفصل الثالث

العادة

تصميم البحث

آ — الآثار :

١ — أثرها الهام : اتقان متزايد عناصره السهولة والسرعة والامان .

٢ — اثرها الثانوي : الاستغناء عن الارادة والشعور .

ب — النتيجة :

تكون الآلية او مجموعات من الانعكاسية . ترويض الحيوانات وترويض البشر .

ج — الاسباب :

١ — السبب الاول : العمل .

٢ — السبب المقوي : التكرار والانتباه .

٣ — غاء مستمر .

د — الطبيعة :

تفسير فيزيولوجي ممكن بالاستناد الى نظرية الخلايا العصبية .

هـ — الاعتياد (العادة الانفعالية) :

تعريفه : هو عادة انطباع تتلقاه وليس عادة فعل تقوم به . قوانين مزعومة ثلاث ننظر فيها ملياً

١ — اعتياد ، أي عدم اهتمام بالانطباع متزايد :

أ) اعتياد جسمي . فرط حساسيه ٢) اعتياد اخلاقي . فرط حساسية اخلاق

٢ — اضعاف الاحساسات :

قانون خاطيء : صحيح بالنسبة لبعض الاحساسات وخاطيء بالنسبة لغيرها .

٣ — خلق حاجة قانون خاطيء : صحيح بالنسبة لاعتياد المهيجات المادية والاخلاقية .

و — العادة والتربية .

ز — ملحق :

التقليد . التقليد والتربية .

الاعمال العادية هي انموذج الاعمال غير الارادية ؛ حتى أنه **ليس من المستبعد أن تكون كل الاعمال غير الارادية عادة تتراوح في درجة قدمها** . وعلى هذا فالعادة هي كبرى قوانين السلوك البشري ، انها تسود كل الحياة الفيزيكية والاخلاقية وتصادفها في كل مناحي الحياة . **انها مبل الانسان لاعادة عمل قام به من قبل ، ولانه قام به مرة قبل** .

آ — آثار العادة

١ — **اثرها الاهم الاتقان المتزايد للعمل** وهذا الاتقان يدهشنا إذا كان يتعلق بتمارين استثنائية كالتي نشاهدها في ملاعب الحيوانات Cirque فنحن نعجب مثلاً بمهارة لاعب الجمناز او راكب الدراجة المتفنن مع أننا نقوم باعمال فيها مهارة لا تقل عن تلك ولكننا لا نعجب بها على اعتبارنا نقوم بها كلنا ؛ فالكلام والكتابة والقراءة والمشي ، الذي يتطلب تكييف كل خطوة من خطانا مع مقتضيات الطريق ، وصعود الدرج بعد نظرة واحدة نلقيها على ارتفاع الدرجات ، كل هذه الاعمال على مقدار من المهارة كان كفيلاً بادهاشنا لو أن بعض المتخصصين فقط تمكنوا من القيام بها . إذن فأعمال لاعب الجمناز إنما تدهشنا لانها بعيدة عن أعمال البشر العادية .

٢ — ولو بحثنا عن **العناصر التي تكون هذه المهارة** لرأينا أنها : **السهولة والسرعة والاتقان** . فحينما يبدأ العمل يبدأ صعباً يتطلب كثيراً من الانتباه . ثم لا نعود نحتاج هذا الانتباه ، إذ نتمكن من اتمام العمل دون ان نلقى مقاومة حتى كأنه يحدث من تلقاء نفسه . وعلى هذا الشكل ذاته نكتسب السرعة ؛ فالحركة البطيئة المترددة المتخبطة في البدء تصبح سريعة في النهاية ؛ ولعل أحسن مثل على ذلك عازف البيانو . وأخيراً فالعمل يحدث بكل أمان ودون زلل . **وليس صحيحاً**

ما يقوله الكثيرون من ان العمل (يزداد تحسناً) . إذ من الممكن ان اعتاد القيام بعمل ما بصورة رديئة جداً . فمثلا من الممكن ان اعتاد الكتابة بشكل غير مقروء ، وفي هذا الحال لايكون الأمر أمر تحسن ولكنه أمر امان إذ أني اعيد دون زلل عملي غير المستحسن . إذن فأثر العادة الهام هو المهارة .

٣ — أما أثرها الثاني فالكبت المتزايد للارادة و الشعور . بادئ بدء تتزايد (لا ارادية) العمل ؛ أي اني لا أحتاج للارادة لكي اقوم به ولعل الأهم من هذا انه ينزع بالخروج على الارادة حتى أني لا أستطيع منع نفسي من عمله : لا أكاد أعطي شيئاً حتى اقول : شكراً وكأن محركاً يدفعني الى هذا القول . وحين آكل اتناول لقم الخبز بصورة لا إرادية تصل بعض الاحيان الى حد الالم من عدم القيام بها .

٤ — وفي الوقت نفسه يخف الشعور بالعمل تدريجياً حتى يأتي حين من الدهر لا ألحظ فيه العمل مطلقاً : أنظر في ساعتي دون أن اعرف الوقت ثم أعود فأنظر فيها ؛ أكتب بضبط دون ان انتبه الى القواعد واقرأ دون ان انتبه الى الكلمات او المقاطع او الحروف .

ب — نتيجة العادة

٥ — كل هذه الآثار مجتمعة تنتج نتيجة هامة وهي انها تجعل فينا آلة ميكانيكية تلعبان دورهما في كل اعمال حياتنا . وطريقة حدوثها واحدة تتلخص بقوس الانعكاس

(رد فعل يقترن بمؤثر) م ← ر أرى وجه صديق (مؤثر) مثلاً فأسلم (رد فعل) ، أحس بقطرات مطر (مؤثر) فأفتح مظلتي (رد فعل) وهكذا وهذه الميكانيكية البسيطة الابتدائية تفسر العدد الاكبر من اعمال الحيوانات والبشر . وليس ترويض الحيوانات الا هذا ، فالمروض يقرن رد فعل ما بمؤثر معين

فكلب الصيد الممرن يشم رائحة الحجل فيقف ثم تنطلق الطلقة فيركض ويحضر القنيصة . وهكذا كل عمليات الترويض .

ومثل هذا كثير من اعمالنا : لنفحص مثلاً حادث الأكل : آخذ الشوكة والملعقة والقدح ، آخذ لقمة خبز مع كل لقمة لحم أو خضرة ، كل هذا يحدث بصورة آلية أثناء التحدث إلى صديق ولقد كفت رؤيتنا لصحن الطعام لأن تكون مؤثراً اقترن بردود الفعل هذه . وقل مثل هذا عن نزهتنا في الطريق : رؤية درجة هي المؤثر الذي يدفعنا إلى صعودها ورؤية عائق هي المؤثر الذي يملي علينا تجنبه وهكذا ... ولنفحص أعمال المجاملة البسيطة ذاتها : فالتحية والابتسام والشكر والاعتذار والوداع ، كل هذه الامور تحدث وفقاً لميكانيكية ثبتها فينا التهذيب .

إذن فكل واحد منا حزمة غاية في التعقيد من هذه المجموعات البسيطة (مؤثر ـــ رد فعل) .

ح — اسباب العادة

من المفيد ان نميز بين السبب الرئيسي والأسباب المقوية .

٦ — **السبب الاول : السبب الحقيقي هو العمل نفسه** ، انه العمل الذي يترك اثراً عنه وهذا الأثر هو العادة . اتحرك ، ومنذئذ يوجد شيء قد تغير : استطيع في المستقبل اعادة الحركة بصورة اكثر سهولة : اقوم بعمل من اعمال الرياضة فيصبح القيام به اسهل في المستقبل .

٧ — وبقدر مايكون العمل **عميقاً** وبقدر **مايكرر** يزداد نماء العادة . إذن فقول العوام بأن التكرار من أسباب العادة صحيح ؛ ولكن إذا اردنا ان نكون مضبوطين وجب ان نقول انه **سبب مقو** . اما سببها ومصدرها الحقيقي فهو العمل ولكن ليس هناك ، عملياً ، من عادة قوية بدون تكرار وحتى بدون تكرار كثير ؛ هذا ويجب أن لا ننسى ان **عمق العمل** ، او بتعبير آخر مقدار الانتباه الموجه اليه **يوفر كثيراً من التكرار** .

٨ — ونماء العادة هذا يتصف بالتقدم والاستمرار والسرية ؛ فهو يزداد دون ان يُشعر به وحين يُشعر به يكون قدفات الوقت لتوجيهه . وبديهي ان هناك **كل درجات القوة فيما يتعلق بالعادة** . فهناك العادة التي ذر قرنها للتو وهي في هذه الحال ميل لايكاد يُشعر به لاعادة العمل ، كما ان هناك العادة التي تأصلت جذورها وأصبح لها قوة الغريزة وعصمتها وهذا ما يجب نذكره حين الكلام عن العادة .

د — طبيعة العادة

المنهج الفيزيولوجي الذي كثيراً ما يكون وهمياً بالنسبة لعالم النفس تفسير مقبول هنا لان الحقائق تتضافر على البرهان بأن **ميكانيكيات العادة موجودة** في الجسم وخاصة **في الجملة العصبية** . فانر إذن ما يمكن ان يفيدنا به تشريح وفيزيولوجيا الجملة العصبية في هذا الصدد .

٩ — هناك ملاحظة شائعة وهامة يمكن ان توجه بحثنا وهي الملاحظة التي تتلخص فيما يلي : « **حسنات العادة فيما تحذفه تساوي على الاقل حسناتها فيما تثمره** » وهذا يعني أن العمل قبل ان يصبح عادة يكون ممزوجاً بحركات طفيلية لا فائدة لها ومعكرة ؛ فالطفل حين يبدأ بالكتابة لا يكتب بيده فقط ولكن بذراعه وجزعه وقدميه المتحركين ولسانه المتدلى . وقل مثل هذا في راكب الدراجة الذي يتعلم حديثاً . وبواسطة العادة يتوصل الانسان إلى القيام بالحركات المفيدة فقط : فالولد لا يكتب إلا بيده وراكب الدراجة لا يقوم إلا بالحركات الضرورية لسيرها .

ولنترجم الآن هذه الملاحظة فنقول : إن **عمل العادة الأهم ان تشق طريقاً عصبياً وحيداً** عوضاً عن الاتجاهات العديدة التي تحدث بادئ بدء وهكذا يصبح هناك طريق دقيق مستقيم . فالتيار العصبي مثلا يذهب من الدماغ الى اليد عوضاً ان يتفرق في جهات عدة ؛ والفاعلية تصبح لها قناة ذات اتجاه وحيد .

١٠ — ولعل ذلك ليس صورة او رمزاً ، لعله **تعبير صحيح عن حقيقة تشريحية** .

والواقع أنه في المفهوم الحاضر للخلايا العصبية ، ذلك المفهوم الذي ما زال عرضة للمناقشة والصامد لها ، يسير التيار العصبي في طريق عصبي يشق قليلاً قليلاً .

رأينا ان الجملة العصبية المركزية تتكون من الخلايا العصبية ، وهذه الخلايا لا تتصل ببعضها ولكنها تجاور وبينها فواصل كالفواصل الموجودة بين اغصان غابة .

وبسبب هذه الفواصل **فليس هناك في البدء طرق عصبية مرسومة** . والتيارات العصبية القادمة إلى هذه الفواصل يمكن ان تتوجه الوجهة (ا) او (ب) او (ح) او غيرها . وينتج من هذا عمل صعب ، بسبب **المقاومة** التي يصادفها ، عمل بطيء ، متردد ، خاطيء احياناً ، عمل ينتشر في كل اجزاء العضوية ؛ إنه عمل البدء الذي لا قناة له .

وبفضل العمل المتكرر **تتلامس استطالات الخليتين المتجاورتين** كما يتلامس سلكان كهربائيان كانا مفصولين حتى الآن بفجوة ثم اتصلا ، وحينئذ يحدث طريق ممهد مضبوط مستقيم ويصبح العمل سريعاً اكيداً موجهاً .

ويرى من كل ذلك أنه إن صحت هذه النظرية فقد اصبح تفسير العادة سهلاً جداً .

أما **التعب** فيفسر بتباعد هذه النواقل التي لم تعد متماسة تماماً ، الامر الذي يعيق الاتصال ويجعل العمل متردداً من جديد . ولعل سبب هذا التباعد تجمع المواد الكيماوية التي تفرزها العضوية نتيجة تعبها .

واخيراً يكون سبب **النوم** الانفصال التام تقريباً بين الخلايا اللاغبة وبهذا ينقطع الاتصال وينعزل المركز عن العالم الخارجي وهذه بالواقع صفة حالة النوم .

٥ — الاعتياد

١١ — ملحوظ أننا لم نتحدث حتى الآن الا عن عادات الافعال التي هي العادات الحقيقية والتي يسميها علماء النفس العادات الفاعلة . مع أن كلمتي (عادات ، واعتياد)

يمكن ان تؤدي معنى آخر ، ولعله معنى خاطئاً ؛ **فالانسان** لا يعتاد فقط القيام بعم
ما ولكنه **يعتاد ايضاً تلقي انطباع مصدره العالم الخارجي** . فهو يعتاد مثا
البرد والحر وملامسة ثيابه ، وفي ضجة ما ، ورائحة ما ، الخ ...

وعلماء النفس يسمون (**عادة انفعالية**) عادة الانطباع المتلقى هذه المخالفة لعا
فعل نقوم به نحن . ولعله من الأنسب ان نستعمل كلمة (**اعتياد**) .

١٢ — هذا **وان آثاراً ثلاثة جديدة تحدث** في حالة هذه العادة الانفعالية
نفحصها بدقة لأنها **بعيدة عن أن تكون ثابتة** رغم أن علم النفس الاتباعي قد با
في اعتبارها قوانين لكل عادة انفعالية . وهاك هذه الآثار الثلاثة : ١) **عدم اهتما**
متزايد بالانطباع المتلقى . ٢) **اضعاف او تخفيف للاحساس** ٣) **تهيئة عا**

١) — عدم الاهتمام المتزايد :

١٣ — يلاحظ اولا **عدم اهتمام** أو قل إن شئت تسامح متزايد و
ما يسمى بالضبط **اعتياد** . وهناك **الاعتياد الجسمي و الاخلاقي** .

١) **اعتياد جسمي** — **قاعدة عامة** : **يزداد تحمل الجسم ، او يتلاءم**
للمؤثرات التي كان قد خضع لها بصورة مستمرة او مكررة . ومثال ذ
اعتياد البرد وهذا لا يعني عدم الاحساس به ولكنه يعني ان البرد لم يعد خط
(عدم الزكام) ، ومثال آخر هو الاعتياد على علاج ما ، ويعني هذا ان العض
لا تعود تضطرب منه : أي ان الدواء لا يبقى فعالاً وهذا تعليل شكاية المرضى
ان الدواء لم يعد يفعل فيهم شيئاً كأن لا ينبههم المنوم الذي اعتادوه . وقل مثل ذ
عن اعتياد السم وعن المناعة ضد الامراض التي تعني اعتياد العضوية على ما يفرزه
الجرثوم او ذاك من سموم ، والامر نفسه صحيح بالنسبة للقاحات والمصول .

١٤ — ولكن ، لهذه القاعدة العامة **شذوذ هام** : **فهناك حالات كثي**

يتناقص فيها نسائج العضوية عوضاً عن ان تعتاد ، وهذا نوع من (**العادة المضادة**) سمي **فرط الحساسية** . فمثلا كمية كبيرة من مصل لم تؤثر في المرة الاولى ولكن كمية أصغر منها بكثير تقتل في المرة الثانية ، فالانسان عوضاً عن ان يعتاد ازداد حسه .

١٥ — ٢) **اعتياد انفعالي** . من غير المشكوك فيه **ان تأثيرات مشابهة تحدث فيما يختص بهيجاناتنا** .

قاعدة عامة : تتناقص الهيجانات بالعادة ومعنى ذلك أن الظروف التي كانت تنتجها في البدء لا تعود قادرة على ذلك فالاندهاش والمفاجئة مثلا تخفان وهكذا فأعجب الاشياء لا تدهش حين نعيش معها . وقل مثل هذا عن **الخوف الذي يقل بالاعتياد** شأن البحّار اثناء العاصفة والجندي وقت المعركة فيها يفهان الخطر ولكنهما لا يتهيجان إلا في حالات استثنائية سنعرض لها فيما بعد . والقاعدة نفسها صحيحة بالنسبة للسعادة التي تضعف بالتكرار او الاستمرار وهذا ما يحصل بالنسبة للاختراعات التي لا تكاد تظهر وتسبب سعادتنا حتى نعتادها فنفقد هذه السعادة . وكم من اشخاص لا نكاد نراهم حتى يأسرنا حبهم ولكننا لا نلبث ان نفقد هذه العاطفة نتيجة اعتيادنا إياهم . والرحمة ذاتها تضعفها العادة أفليست هذه حال مراقبي المرضى في المستشفيات ؟ والحزن نفسه يتناقص بالاعتياد : وهذا ما يجعل **الاكثار من العقاب في التربية امراً سيئاً ذلك لان العقاب يفقد تأثيره المطلوب** . إذن فكل الهيجانات تخضع للاعتياد .

١٦ — ولكن هنا أيضاً شذوذ إذ يمكننا القول بأنه يوجد **فرط احساس انفعالي** كما يوجد فرط احساس عضوي .

والواقع أن هناك حالات معروفة يزداد فيها التهيج والبغض والخوف بسبب إعادة الاسباب نفسها . فهناك كثير من أخطاء أصدقائنا والمحيطين بنا التي نحملها في

البدء بكل رحابة صدر ثم لا نلبث ان نثور عليها . **وهكذا يحصل في النفس البشرية احيانا سبيان : تتزايد ثورتنا خطأ بسبب من جهة ، ويتناقص احساسنا بالفتنة والجمال يوماً بعد يوم من جهة اخرى ، وهذان الاثران يتعاونان على تهديم عاطفة او صداقة** مخلوقين كانت تظللهما السعادة .

١٧ — ولعل خير مثال على فرط الحساسية الأخلاقية هذه هو التهيج المتزايد ضد ضجة مزعجة تتكرر بلا انقطاع . تصور أنك في قاعة محاضرات تستمع إلى محاضرة وأن اشخاصاً متأخرين بدأوا يتواردون قارعين الباب قبل الدخول ، فالاشخاص الذين قدموا اولاً محتملون ولكن الشخص الثلاثين مثلاً يثير استنكاراً هائلاً ويستقبل أبشع استقبال ممكن مع ان جرمه ، كما هو واضح ، لا يزيد ولا ينقص عن جرم القادم الأول ، إن كان هناك جرم . ولكن تكرار الأمر ، مثل قدوم الشخص الثلاثين ، نقيصة كأنها ضربت بثلاثين .

١٨ — وأخيراً فان هناك **مخاوف لا يخففها التكرار ولكن** ، على العكس ، **يزيدها** . ولقد شوهد في الحرب الماضية بعض هذه الحالات ؛ فالغارات الشديدة التي تحملها جندي في البدء انتهت بان روعته بصورة هائلة . **وفيما يخص الاطفال يجب ان نذكر دوراً فرط الاحساس الممكن حدوثه** : فاذا أردنا إجبار طفل على السير في الظلام لنشفيه من الخوف ، وجب ان نذكر انه ليس من الضروري ان ينجح وليس غريباً ان يتعاظم خوفه من الظلام وان يسبب له هذا اضطرابات عصبية .

٢ — اضعاف الاحساسات :

١٩ — كثيراً ما يخلط هذا الاثر بذاك مع انه يختلف عنه كثيراً ، انه ينحصر في هذا : **يتناقص احساسنا بالانطباع المتلقى** . ولكن هذا الدستور بعيد عن ان يكون قانوناً حقيقياً . انه يصلح لحواس دون اخرى ، لذلك يجب فحص الحواس المختلفة .

٢٠ — بالنسبة **للاحساسات بالحرارة** : هذا القانون **صحيح** على الاقل ضمن حدود . إذ من المؤكد ان حرارة يوم من ايام الصيف يُشعر بها بصورة أقل كثيراً مما لو انها حدثت فجأة في منتصف الشتاء . والقول نفسه صحيح فيما يتعلق بحرارة غرفة لا نشعر بها بعد بضع دقائق . وحرارة الحمام مثال واضح ، فالحمام الذي يظهر لنا حاراً جداً في البدء لا يخلق فينا اي احساس بالحرارة بعد ان ننغمس فيه ربع ساعة .

٢١ — **فيما يتعلق بالبرودة** : **الامر اقل من ذلك صحة بكثير** ، فأنا في منتصف الشتاء لا أصاب بالزكام ، (بسبب الاعتياد) ولكني مع ذلك احس احساساً واضحاً بالصقيع ، وان كان صحيحاً ان احساسي بها اخف من احساسي ببرد اخريات الخريف فانه ليس صحيحاً ابداً ان احساسي يزول .

٢٢ — فيما يتعلق باحساس **اللمس** : الامر **صحيح** ، فنحن لا نحس بملامسة ثيابنا لنا ، وإذا ثبتنا يدنا على شيء ما نفقد إحساسنا به بعد وقت قصير ويجب ان نحرك الاصابع ونقوم بجهد ضغط جديد لكي نحس ثانية .

٢٣ — أما فيما يتعلق بالاحساس **بالطعم** فالأمر **نصف صحيح** . أكيد اننا نعتاد اكل المملّح والمحلّى وأنه بعد تناول بعض صحون المحليات يتناقص الشعور بالطعم ولكنه مع ذلك لا يزول ؛ فنحن نداوم على الاحساس بطعم الخبز رغم كثرة اكلنا له .

والامر **صحيح** تماماً فيما يتعلق **بالاحساس بالرائحة** ولعل هذه خير الحالات . فنحن نشم رائحة كريهة فنتذمر منها ولكننا لا نلبث ان نفقد الاحساس بها .

ومن المعلوم ان فاصلاً زمنياً بسيطاً يدوم ثوان يكفي لاعادة الاحساس . إذن فاستمرار الاحساس ضروري ولا يكفي التكرار .

٢٤ — اما فيما يتعلق **بالسمع** فالأمر **غير صحيح بتاتاً** ؛ فصوت الساعه مسموع دائماً وهنا يجب التمييز جيداً ، إذ كل ما في الامر أننا لا ننتبه ولكن الاحساس

لا يخف مطلقاً ، ويكفي ان انتبه لاسمع بنفس القوة التي سمعت فيها في اول الامر . إذن فقد خلطوا بين عدم الانتباه وبين غياب الاحساس .

٢٥ — واخيراً فالامر **ليس صحيحاً ابداً** فيما يتعلق **بالبصر** . فاذا حدقت في قماشة حمراء اراها حمراء كل النهار والسماء زرقاء ابداً .

وهكذا يتضح ان خفة الاحساسات هذه ليست ثابتة اكيدة بالدرجة التي يحسبون . **وليس هناك ما يبرر وضع قانون في العادة . ولعله ، في الاساس ، ليس للعادة دخل في كل هذا ويجب ان نذكر دائماً اننا لا نشعر باحساس الا بواسطة التضاد** فالحرارة لا يشعر بها الا بتضادها مع البرودة والخشونة مع النعومة ؛ ومن هنا ينتج انه **من الطبيعي ان يقل الاحساس بانطباع امتد زمناً** (ولم يكرر فقط) لانه لم ينفصل عما قبله وبعده وعلى هذا فانه **ليس اثراً من آثار العادة ولكنه شرط من شروط وجود الاحساس .**

٣ً — **خلق حاجة :**

هذا الاثر الثالث للعادة الانفعالية **بعيد بحد ذاته عن ان يكون قياسياً .**

٢٦ — الصحيح انه **في بعض الاحيان يحدث اننا باعتيادنا انطباعاً ما ننتهي بعدم القدرة على التخلص منه .** ولكنه من المحقق ان هذا ليس صحيحاً دائماً . إذ ان هناك كثيراً من الانطباعات اليومية التي نتخلص منها بدون تعب كبير : نتخلص من عادة سماع صوت الساعة او ضجيج الشارع ؛ والدهشة الخفيفة التي يسببها غيابها لا علاقه لها ابداً بألم حاجة لم تحقق [اي ان هذه الدهشة ليست الماً لحاجة لم تحقق] .

٢٧ — ولكي نكون مضبوطين يجب ان نقول بان **هذا الاثر لا يحدث الا فيما يتعلق بعادة المهيجات . والمواد التي توجد فينا تهيجاً عقلياً اي التي تجعلنا نعيش ونفكر بدرجة من العمل اعظم** كالكحول والتبغ والقهوة والشاي الخ ..

تخلق فينا ، كما هو معروف تماماً ، **عادات شديدة خطرة** . والآلام القوية التي تحدث حين القطام تجعله شاقاً عسيراً لدرجة يحتاج معها المريض في بعض الحالات كاعتياد المورفين ، الى ترك نفسه ، جسداً ونفساً ، لعناية طبيب قد يوفق الى شفائه .

هذه هي اذن الحالات التي يصح فيها القول بان العادة تخلق حاجة .

بقي **ملاحظتان هامتان** :

٢٨ — **اولاً** : يجب الملاحظة بأن **آثار الاعتياد** (الذي وصفناه سابقاً) **تختلط بهذا الاثر الجديد (ميل عابر)** ، وهنا يوجد أثران يتجهان الى نقطة واحدة : فمن جهة يزداد احتياج الشخص إلى مهيجه المعتاد كالكحول او المورفين ، ومن جهة اخرى وبسبب الاعتياد لا تفعل الكمية الاولى من المهيج مفعولها . إذن تجب الزيادة للحصول على الهياج المطلوب . وهكذا يتضافر الكل على استعباد الفريسة المسكينة .

٢٩ — ولنلاحظ باهتمام كبير ان الأمر ليس قاصراً على المهيجات التي نشرب أو ندخن أو نحقن الخ ... ولكن هناك عدد كبير من **المهيجات الاخلاقية** ، فالرياضة والرقص والألعاب والحياة الاجتماعية والعمل العقلي نفسه مهيجات يمكن الافراط فيها . وإن صح ان هذه المهيجات أقل خطراً من الاولى فأنه صحيح أيضاً انها ليست خالية من كل خطر .

٣٠ — والخلاصة **فالأحسن ان نقصر كلمة (عادة) على العادات الفاعلة وان نسمي ما كانوا يسمونه بالعادات الانفعالية (اعتياداً)** كما انه من المناسب ان لا نطلق قوانين كالتي ناقشنا .

و — العادة والتربية

٣١ — يرى روسو ان « العادة التي تجب تنميتها في الطفل هي عدم تعويده شيئاً » وحجته في ذلك ان حد الحرية يتناسب طرداً مع كثرة العادات . ويوافقه كانت على

هذا الرأى . ولكننا نرفض هذا الرأي ونرى ان واجب المربي هو ان يحذف الميول الطالحة وأن يتعهد الصالحة بالعناية والتنمية حتى يجعل منها عادات :

عادات جسدية : نظام ، نظافة ، اعتدال الخ ...

وعادات فكرية : انتباه ، دقة ملاحظة ، مثابرة على العمل ، ضبط الخ ...

وعادات اخلاقية : حب الحقيقة ، حب الخير ، حب الجمال ، عبادات الخ ..

٣٢ — يقول وليم جيمس « عمل التربية الاكبر هو ان تجعل جملتنا العصبية حليفاً لا عدواً ؛ وذلك بالحصول على رأس مال من الأفعال ، وبسهولة استخدامه . ولهذا وجب ان نجعل اكبر مقدار ممكن الأفعال المفيدة آلياً واعتيادياً ، كما يجب ان نحذر الافعال التي يمكن ان تصبح عادات ضارة » :

١) **اذا اردت الحصول على عادة جديدة او التخلص من اخرى قديمة فأعهد بأن تقدم على العمل وانت اشد ما تكون حماساً وعزماً .**

استفد من كل الظروف الممكنة لتقوية دوافعك الطيبة ، وأحط نفسك بكل الشرائط المناسبة للنوع الجديد من حياتك ، وإذا كنت في شك من قدرتك فاستعن بالمجتمع على نفسك اي اعلن امام الناس انك ستفعل كذا . وباختصار جمّع حول عزمك كل النجدات التي تخطر ببالك .

٢) **لا تسمح بأي شذوذ قبل ان تأكد من تأصل العادة في حياتك .** فالتمرين المتواصل المتشابه هو الوسيلة الكبرى لتسيير الجملة العصبية سيراً منتظماً .

٣) **اغتنم اول فرصة تسنح لك في التصرف وفقاً للنوايا والدوافع العاطفية التي تعتقد انها تتجه نحو العادات التي تحب الحصول عليها .** فليس المهم ان تكون لديك اطيب النوايا وخير الدوافع فقط انما المهم ان تستفيد منها .

٤) **لا تكثر من وعظ طلابك ، بل انتظر فرصة تقدمها لك الحياة العملية تغتنمها ، ثم خذ بيدهم الى التفكير والاحساس والعمل .** فالسلوك هو الذي

يحدد الطبع ويغرس العادات الطيبة في نفس الطفل .

٥) **تعود بذل الجهد بأن تقوم يومياً بجهود لا غاية مباشرة لها** . وذلك بأن تفعل يومياً شيئاً ما لا لغاية إلا لأنك تفضل ان لا تفعله حتى إذا دقت ساعة اليأس كنت مستعداً للتجربة مالكاً زمام نفسك .

٣٣ — وإذا أراد المعلم تعويد تلميذه عادة جديدة **وجب عليه ان يستعين بعقل هذا التلميذ وعاطفته وارادته** :

١) **ابدأ بتفهيم الطالب بوضوح تام طبيعة العمل المراد تحويله الى عادة وليكن تقديم الموضوع بصورة حدسية ما امكن** : قص حكاية او اعمل شيئاً او الجأ الى التشبيه ثم سمِّ العادة او الصفة المطلوب الحصول عليها وعرفها بوصفها وصفاً محققاً واضحاً مؤثراً .

٢) **حرك عواطفه** : وذلك بأن تتكلم بقناعة عميقة عن السعادة التي تسببها هذه العادة او الاقلاع عنها واعطِ أمثلة .

٣) اختم كلامك **بتحريض الطالب على العزم الشديد** في الحصول على هذه العادة ووجهه التوجيه اللازم لتحقيق هذا العزم وأياً ما كان فان عمل المعلم يعتمد ، لكي يكون منتجاً ، على شروط :

١ — **سلطة الشخصية** : وهذه السلطة انما تتعاظم وتفرض نفسها بواسطة السلوك المستقيم والكلام المتزن والحزم المقرون بالحب والعطف .

٢ — **شدة قناعة المعلم** فالاقناع متوقف الى حد بعيد جداً على الاقتناع الذي له من قوة الايحاء الشيء الكثير .

٣ — **قوة الامثال** التي يضربها المعلم ؛ فالمثل واسطة هامة جداً من وسائط التربية وعلى المعلم ان يفيد منه .

ز — ملحق : التقليد

٣٤ — التقليد الذي يلعب دوراً هاماً في الطفولة والذي يفسر تقريباً كل ما يحصل عليه الطفل منذ الشهر العاشر او الحادي عشر من حياته ولا سيما اللغة ، ليس إلا شكلاً جديداً من أشكال الميكانيكية التي بحثنا عنها حين تكلمنا عن رد الفعل والفعل المنعكس والغريزة والعادة : هناك دائماً **مؤثر ورد فعل** والمؤثر هنا هو المثال المحتذى اعني العمل الذي قام به احد اشباهنا ، او على الاصح كل اشباهنا المحيطين بنا ؛ اما رد الفعل فهو العمل نفسه صادراً عنا : فمثلاً ارى ، وانا في مجتمع ، ان من حولي ينهضون فأنهض مع اني لم ار القادم الذي كان النهوض احتراماً له ؛ اذن فقد كان نهوض الجماعة مؤثراً يشبه المؤثر الطبيعي الا وهو رؤية القادم نفسه .

وبالمعنى نفسه تكفي حركة الرئيس لتكون مؤثراً يشبه رؤية حركة الجماعة وقد يكفي كلام الرئيس . وهكذا يصبح المؤثر (**امراً**) ورد الفعل (**طاعة**) .

٣٥ — **والتقليد بالغ الاهمية في ادوار الحياة عامة وفي طور الطفولة خاصة** فالرضيع يبتسم إذا رأى وجهاً باسماً ويعبس اذا لاحظ العكس وهو انما يتعلم الكلمات بتقليده الاصوات التي يسمع والتي تصبح عادات كلامه فيما بعد وكثيراً ما يقلد الطفل دون ان يشعر وقد لا يكتفي بتقليد الاشخاص الحقيقيين بل ابطال القصص التي سمع او قرأ . وهذه الامور التي يقلدها لا تلبث ان تصبح عادات راسخة ولذلك كان واجب المربين ، والدين ومعلمين ، عظيماً جداً : عليهم ان يراقبوا اعمالهم وحركاتهم واعتقاداتهم وسلوكهم والفاظهم ، لان اطفالهم سيقلدونهم حتماً وستصبح هذه الامور عادات راسخة في نفوس اطفالهم وعليهم ان يراقبوا محيط اطفالهم لأنه سيترك اثراً باقياً في نفوس هؤلاء الأطفال .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الفصل التاسع

٢ — الجارم وأمين : الباب السادس عشر

٣ — خليل ـ نظمي : ص ١٢٥—١٣٤ و ٦٨—٧٧

٤ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث ، الفصل الثاني

٥ — عبد المسيح ورفاقها : الباب الخامس عشر (ص ٢٦٥ —٢٧٣)

٦ — عطية الله ـ احمد : مبحث العادات

٧ — المصري ـ ايريس : الكتاب الاول ، الفصل السابع

الفصل الرابع

الاحساس والادراك الخارجي

تصميم البحث

آ — وصف الحوادث :

تلقي • اثارة • احساس • تفسير الاحساس على انه دليل على حقيقة خارجية • الاحساسات ، بعضها علامة بعض • انواع الاحساس •

ب — تجارب القياس او البسيكوفيزيا الفيزيائية :

١ — مسألة العتبة •

٢ — مسألة علاقات الشدة : قانون فخنر •

ج — نتائج نظرية الادراك :

لا يوجد احساس مباشر من الخارج • التشابه بين الحلم والادراك ـ بين الوهم والادراك ـ قيام مشكلة حقيقة العالم الخارجي • ضلال الحواس •

د — الحلم :

١ — طبيعة الحلم : مقارنة مع اليقظة • الاروق المزعومة • الفرق الحقيقي الوحيد •

٢ — أصل الاحلام •

٣ — حالة النفس اثناء الحلم : تراخي وعدم مقاومة • عزل نسبي للعالم الخارجي • أهمية الوظيفة التفسيرية •

ه — تربية الحواس :

طريقتا منتسوري وديكرولي ، وروح الملاحظة •

آ — وصف الحوادث

الادراك الخارجي **هو معرفة الاشياء الموجودة بواسطة الحواس** . ولفهم ميكانيكية الادراك يجب ان نقتصر على ذكر الامور كما تجري بكل بساطة وضبط .

لنأخذ مثلاً طنة ناقوس ولنتتبع تطورات الحادث . يوجد في البدء ، طبعاً ، صدمة المطرقة للناقوس واهتزاز الناقوس واهتزاز الهواء في الفراغ وكل هذه هي الاسباب الطبيعية التي تعود دراستها لعالم الطبيعة . أما عملنا فيبدأ حين يصل هذا الاهتزاز إلينا .

١ — اول امر إذن هو **تلقي** (استقبال) الاذن للموجة الهوائية او بصورة خاصة تلقي العصب السمعي للموجة الهوائية ، والاذن كلها لم توجد الا لتسمح بهذا الاستقبال وتسهله ، وما يُتلقى على هذا الشكل هو حركة ، حركة اهتزازية لا اكثر ونعني بها الموجة الهوائية . وهذا التلقي يسمى عادة في اصطلاح علم النفس الاتباعي **اثارة او انطباع** .

٢ — وهذه الاثارة ينقلها العصب الى **الدماغ** الذي يثور هو نفسه أي أنه يصبح بدوره مستقر حركة اهتزازية وحوادث كيماوية . ولنلاحظ انه لا توجد **حتى الآن الا حوادث فيزيولوجية نجهلها كل الجهل** ولو لم يعلنها لنا العلم لما عرفنا عنها شيئاً وكل ذلك يجري كما لو ان الموجة الهوائية تلقاها حاكٍ بدلاً منا ولا يزيد الامر على تحرك الابرة وارتسام خط في الشمع .

٣ — وحينئذ يظهر امر جديد هو **الاحساس** بالصوت الشائق او غير الشائق ، الحاد او الغليظ ، القوي او الضعيف . ولو أنا اخذنا عوضاً عن الناقوس مثلاً آخر لحصلنا على احساس آخر كالاحساس بالحرارة او الالم او الطعم او الاحتكاك او الضوء او اللون .

وهنا يبدأ الحادث بالنسبة للشعور .

٤ — وحينئذ يقوم سؤال هام يستحق ان نقف عنده وهو: **ماهي اذن العلاقة بين الاحساس والحوادث التي سبقته؟** فنجيب على ذلك بما يلي:

١ — **يرتبط الاحساس مباشرة بالحادث الدماغي فقط** فاذا وجد هذا لم يكن من الأهمية في شيء أن يكون مصدر الاثارة بعيداً او قريباً لان الاحساس سيجري، ففي الحلم مثلاً، يتولد الاحساس في الدماغ نفسه فتظهر الاحساسات الحقيقية الشديدة.

٢ — **وليس هذا الرابط رابط تشابه او استمرار** لان كلاً من طرفي المجموعة، اي الحركة الدماغية والاحساس الصوتي، في عالم يختلف عن الآخر عالم الحواس وعالم الشعور ولا يشبه صوت الناقوس الحركات الدماغية في شيء.

٣ — ومع ذلك فان لغة العلم تمنعنا من انكار كون **الصلة صلة سبب ونتيجة** فالاثارة العصبية تنتج، تجريبياً، الاحساس ويكفي ان نحذف الاولى حتى يبطل الثاني، فإطباق الاجفان معناه امتناع كل احساس بصري وفتحها معناه رؤية الاضواء والألوان. وهذا كاف في عرف عالم الطبيعة لاثبات السببية الوثيقة **اذن فالحادث العصبي والدماغي هو سبب الاحساس مع انه لا يشبهه في شيء**

ملاحظة: توجد صلة غير مباشرة ولكنها غير حقيقية بين الاحساس والمثير الخارجي. وسندرس هذه العلاقة التي قاسها علماء النفس الفيزيائيين على حدة (انظر الملحق).

٥ — **ويمكن ان ننظر الى هذا الاحساس على شكلين: فأما ان نتحمله فقط ونحسه بحد ذاته** ومن اجله نفسه، وهذا ما يحدث مثلاً بالنسبة للآلام الشديدة او الغامضة، وفي اللذائذ فنحن نقتصر على تحملها او التهيج منها، ولكننا لا نخرج عن انفسنا فلا يوجد اذن ادراك خارجي. **ويمكننا، على العكس، ان نعتبر الاحساس كعلامة او دليل وحينئذ يفتح لنا العالم.**

وعلى هذا **فالادراك تفسير الاحساس المعبر دليلاً على حقيقة خارجية** : احس احساساً صوتياً فلا اقتصر على الاحساس بشدته ولذته ولكني أجد فيه دليلاً على شيء أصدره .

ولنتساءل الآن عن **كيفية حصول هذا التفسير** .

٦ — إنه يحصل بادئ بدء **نتيجة لتطبيق مبدأ السببية** نقول لأنفسنا غريزياً : لهذا الاحساس الذي اشعر به سبب ، سبب خارجي ؛ إن هذا التغير الذي يحدث فيَّ له سبب يوجده وهذا السبب خارج عني . وهنا يجب ان نلاحظ ملاحظتين هامتين : أولاهما انه **ليس من الأهمية في شيء** ، ومن اجل هذه اللحظة ، **ان نعرف فيما اذا كانت هذه محاكمة وبرهنة** يمكنها ان تبرهن على صحة الامر ؛ ولكن المهم وجود محاكمة طبيعية غريزية تتوصل بواسطتها الى الاعتقاد الخاطىء او الصائب بوجود شيء خارج عنا . ولعله ليس لهذه المحاكمة اية قيمة منطقية ولكن لها فائدة بسيكولوجية عظمى : انها موجودة كحادث .

ونلاحظ بعد ذلك ان **الحقيقة الخارجية مستنتجة لا مدركة** وما يدرك هو الاحساس فقط اي الدليل الذي نستنتج منه وجود شيء . وبتعبير آخر فنحن نتلقى رسالة لا نعرف مباشرة الاها ونصعد بواسطة المحاكمة إلى اصلها وكل هذا يشبه **غرفة التلفون** حيث لا نتلقى الا رسالة بعيدة نستنتج منها ان صديقنا موجود في الطرف الثاني .

إذن فنحن نعرف او نحسب اننا نعرف وجود شيء خارجي .

ويبقى ان نتم هذا التفسير بأن نحزر طبيعة هذا الشيء : اي اننا نحزر في المثال الذي أعطينا ان الذي يدق هو ناقوس .

٧ — **وهذه العملية بسيطة وسهل فهمها** : إنها بكل تأكيد نتيجة للقوانين التي تعرفنا عليها من قبل في بحث **المادة** : في الماضي كثيراً ما سمعنا النواقيس ورأيناها

لدرجة اننا لا نكاد نسمع صوت الناقوس حتى نتصوره ، اي نراه عقلياً .

٨ — **يكون بعض الاحساسات ، بفضل العادة ، دليل على البعض الآخر** فما نحسه دليل على ما يمكن ان نحسه بواسطة حاسة اخرى . وبكلمة عامة :

١) **الاحساس البصري علامة الاحساسات اللمسية** : فالرؤية معناها توقع اللمس فعيناناً أمام كرة تتلقيان رسالة ظل وضوء ولكن هذه الاحساسات البصرية تهيج فينا الاحساس اللمسي بالشكل الكروي ، ذلك الاحساس الذي يوجد فينا لو اننا مددنا اليد .

٢) **والصوت علامة عادية للاحساسات البصرية** : فسماع خطوة خلفك معناها انتظارك رؤية انسان .

٣) **والرائحة ايضاً علامة عادية للاحساسات البصرية** : اشم رائحة البنفسج فأبحث عن ازهاره .

٤) **وفي احوال شاذة يقلب هذا الترتيب** ، فمثلاً في الظلام يصبح احساس اللمس دليل الاحساس البصري . تحسس يدي في الظلام سطحاً صلباً فأحس اني ارى الطاولة .

ورقيّ الطفل العقلي هو رقيّ في تفسير الدلائل ، ففي الشهر العشرين يفسر الطفل السويّ الضجات التي يسمعها في البيت كوقع اقدام ابويه ومواء هرته وغيرها .

٩ — كان القدماء يحسبون ان عدد حواسهم خمسة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، اما اليوم فقد اكتشفت في الأذن حاسة جديدة هي حاسة التوازن ، وفي الجلد ثلاث احساسات هي : الاحساس بالألم والاحساس بالحرارة واللمس واضيف إليها الاحساس بالحركة . فأصبح عدد الحواس تسعاً لا خمساً ويضيف بعض العلماء الى هذه الاحساسات التسع إحساساً عاشراً هو الاحساس الباطني

السمع : تسمع الأذن البشرية ضجات واصواتاً ، اما الضجة فهي اهتزازات غير منتظمة ، واما الأصوات فاهتزازات منتظمة . ويتميز الصوت بصفات ثلاثة

الشدة والارتفاع والجرس . اما الشدة فتنشأ من سعة الاهتزازات ، واما الارتفاع فمن عدد هذه الاهتزازات ، واما الجرس فمرده الى الاصوات الثانوية التي تصحب الصوت الأصلي .

البصر : وهو واسطه ادراك الأشكال والألوان وتقدير ابعاد الأجسام . ويميز علم النفس الواناً اربعة اساسية يمكن ان تستخرج منها كل الألوان الاخرى وهي : الاحمر والازرق والاخضر والاصفر . ويصاب بعض الناس بعمى الالوان وهو مرض وراثي لايشفى ولا يتلافى ، وهو اما ان يكون كلياً فلا تختلف الاشياء إلا بدرجة لمعانها (لا بألوانها) واما ان يكون جزئياً فيميز المريض الاصفر والازرق ومركباتها مثلا ولا يميز الاحمر او الاخضر او العكس .

الشم : وبواسطته يميز الانسان بين الروائح وذلك باستنشاقه المواد الكيماوية في الحالة الغازية . والشم عون كبير للذوق فاذا اصيب الانسان بزكام صعب عليه كثيراً ان يتميز طعوم كثيرمن الاطعمة ، ومن خصائصنا ان نعتادالروائح (كريهة او زكية) بسرعة فلا نعود نشعر بها .

الذوق : المواد التي نتذوق هي مواد كيماوية في حالة الانحلال . والطعوم الاصلية اربعة : الحلاوة والحموضة والمرارة والملوحة ومنها تتكون الطعوم الباقية .

حاسة التوازن : في الاذن الداخلية اقنية نصف دائرية وظيفتها ضبط توازن الانسان والدوار الذي قديصيب الانسان مرده الى التشوشات التي تصيب هذه الاقنية .

الاحساس بالألم : في الجلد نهايات عصبية حرة تنقل الألم . والاثارة القوية لاي خلية حسية تخرب هيولاها تسبب الالم ايضاً . والألم على انواع : ألم الوخز واللسع والحرق والغثيان والم المعدة والرض الخ...

الاحساس بالحرارة والبرودة : المؤثر فيها هوالحرارة او البرودة التي تخترق الجلد اذا زادت عن حرارة الجلد او برودته . وفي الجلد نقاط خاصة للاحساس بالحرارة والبرودة . هذا ويجب ان نلاحظ ان هذا الاحساس نسبي اي ان اليد

الباردة تجد حاراً ما تجده اليد العادية الحرارة فاتراً .

اللمس : وكل نواحي البدن تستطيع اللمس فتفرق بين الخشن والناعم والثقيل والخفيف والصلب واللين الخ ... وقد يتمازج اللمس والحس الحركي فيحدث ما يسمى باللمس الحركي او الفاعل وهو موجود في الشفتين واللسان ورؤوس الأصابع .

الاحساس بالحركة : وبه نتعرف على حركات اعضائنا في انبساطها وانقباضها وانتقالها ومستقره العضلات والاوتار والمفاصل .

الاحساس الباطني : ومنشؤه تبدل الاحوال الجسدية وما قد يطرأ على مختلف اجهزتنا من تغيرات . فاحساسنا بالجوع او العطش او التعب او انقباض القلب الخ ... من هذا النوع .

ب — تجارب قياس الاحساس

١٠ — ان الجهود التي بذلت لقياس الحوادث النفسية (كما تقاس الحوادث الطبيعة) انتهت بايجاد **منهج يسمى (نفسي — فيزيائي)** . ولقد اتجهت هذه الجهود بصورة خاصة نحو الإدراك .

وهناك مسألتان رئيسيتان تستحقان توجيه الانتباه إليهما :

مسألة عتبة الاثارة ومسألة علاقات الشدة :

١١ — ١) **مسألة العتبة — حينما تتناقص الاثارة تدريجياً يأتيها وقت لا تسبب فيه احساساً** : فاذا تناقصت اهتزازات وتر ما مثلاً . يأتي علينا حين لا نسمع فيه شيئاً . **والعكس صحيح** اي اننا إذا زدنا تدريجياً احداث صوت ما يأتينا وقت نبدأ فيه بالسمع . وتسمى (عتبة) اقل شدة ممكنة للاثارة الضرورية من اجل تسبيب احساس . وقد عينت نقطة البدء هذه من اجل كل الحواس وهاك بعض امثلة :

من اجل السمع : صوت كرة من اللباد ثقلها ميلغرام واحد تسقط من علو ميليمتر واحد على لوح زجاج على ان تكون الاذن على بعد ٩١ ميلمتراً .

من اجل البصر : اضاءة قطعة من القطيفة السوداء بضوء شمعة على بعد ثلاثة امتار .

من اجل احساس الضغط : ثقل قدره من ٢ — ٤ ميلغرام على ظهر اليد او الاجفان او غيرها من المناطق الاكثر حساسية .

من اجل الحرارة : ارتفاع ثمانية اعشار الدرجه بالنسبة ليد موجودة في حرارة قدرها حوالي ١٨ درجة .

أما من أجل اللمس : فان ما يقاس هو القدرة على تمييز رأسي (فرجاروبر Weber) فيبدأ بفصل الرأسين عن بعضها بمقدار نصف ميلمتر تقريباً فلا يحس الانسان إلا برأس واحد ثم توسع الشقة حتى يشعر باثنين . وبهذا الشكل تعين نقطة البدء وهي تختلف بحسب اختلاف مناطق الجسد فهي مليمتر واحد على رأس اللسان وهي من ٦ — ٧ سم على الظهر وتوجد مسافات مختلفة بين هذين الحدين .

١٢ — ولهذه القياسات المعمولة بوساطة فرجار وبر **فوائد عملية** : فهي تخدم في **تقدير التعب** ، فالأصابع والشفتان تصبح أقل حساسية عند الانسان التعب .

وهذه القياسات تفيد ايضاً في **تقدير الانتباه** ، فكلما ازداد الانتباه ازدادت الحساسية اي ان نقطة البدء تقل عند المنتبه ولهذا كان لفرجار وبر دور هام في مخابر التربية .

١٣ — ٢) **مسألة علاقات الشدة بين الاحساس والمثير** .

آ — من الطبيعي ان **يزداد الاحساس بازدياد المثير** : فاذا زيد عدد المصابيح ازداد الاحساس بالضوء .

ب — ولكن **ازدياد الاحساس اقل من ازدياد المثير** فاذا زدنا عدد

المصابيح عشرة مرات في قاعة منارة انارة جيدة فان هذا لا يعني ان الحضور سيزداد وضوح رؤيتهم عشر مرات .

إذن توجد من جهة الاثارة (عدد المصابيح) التي تزداد بسرعة ، ويوجد من جهة اخرى الاحساس الذي يزداد ببطء كثير .

حـ — ومقارنة الامرين تعطي نتيجة باهرة ؛ ففي حين ان المثير يزداد ازدياد الأرقام ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ لا يزداد الاحساس الا ازدياد الارقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ وبتعبير آخر **يزداد الاحساس ازدياداً حسابياً في حين يزداد المثير ازدياداً هندسياً** .

د — وهذا ما نعبر عنه بقولنا : **يزداد الاحساس وكأنه لوغاريتم المثير** (قانون فخنر Fechner) .

١٤ — وبديهي ان هـذا القول يفترض وجود **الوسائط لقياس الاثنين** : اما فيما يتعلق **بالمثير فالامر سهل بسيط** . واما فيما يتعلق **بالاحساس فالامر شديد صعوبة** وقد قام به وبر وفخنر .

ففي الحين الذي يزداد فيه المثير تدريجياً — كازدياد وزن السائل في وعاء أحمله بيدي ازدياداً بطيئاً مضطرداً — يزداد احساسي على شكل قفزات صغيرة . فمثلاً لا أشعر بأي تغير بين ١٠ — ١٣ غراماً ، أما في (١٣) فأشعر بتغير بسيط ، ولا اشعر بشيء بين ١٣ — ١٧ ، وفي (١٧) بقفزة صغيرة كما اني لا اشعر بشيء بين ١٧ — ٢٣ ، وفي (٢٣) بقفزة صغيرة وهكذا . ولقد فُكر في **قياس الاحساس بمساعدة هذه القفزات الصغيرة** فكل منها تمثل وحدة ولذلك يمكن القول : الاحساس الاول ، الاحساس الثاني ، الثالث الخ... وهكذا تغلبنا على الصعوبة .

١٥ — **ولعل الامر ليس الا ظاهرياً** وعلينا ان نعرف فيما اذا كانت كل من هذه القفزات الصغيرة زيادة واقعة في الوحدة . وقليل من الانتباه كاف لاثارة

شكوكنا في هذا الصدد . ولو أردنا ان نكون مضبوطين لوجب ان نقول ان **الاحساس يتغير في كل مرة** ، وليس من الصحة في شيء ان نقول انه يزداد . **فالماء** الذي كان بارداً يصبح دافئاً ثم محرقاً فهل يمكن القول بأن حرق الأخير هو ازدياد برد الاول ؟ انه احساس آخر وهذا كل ما في الامر . نعم ، ازداد المثير بازدياد درجة الحرارة اما الاحساس فلم يزدد ؛ ليس هناك ازدياد كمي ولكن هناك تغيراً كيفيًّا .

وهذا هو التحفظ الخطير الواجب اتخاذه بالنسبة لهذا المنهج . صحيح أن قانون فخنر مهم ، ولكن يجب ان لانحسب ان مسألة قياس حالات الشعور قد حلت بالفعل .

ح — نتائج نظرية الادراك

التحليل البسيط السابق يسهل علينا استنتاج النتائج الهامة التالية :

١٦ — ١) **نحن لا ندرك ابدا شيئاً خارجياً** : لا ندرك الا **دلائل داخلية ورسائل تصل شعورنا** وهذه الرسائل هي نفسها (بقدر ما نستطيع الكلام عنها علمياً) ترجمات لدلائل (وثائق) دماغية لا نتوصل اليها بحد ذاتها . ونحن في الواقع نشبه انساناً حبس في غرفة تلفون الى الابد ولا يتلقى الا رسائل بعيدة بلغة سرية .

١٧ — ٢) **هناك شبه عظيم بين الادراك والحلم** : فالحلم رؤية داخلية توهمنا بوجود مادي لأشياء حقيقية . فالميكانيكية اذن واحدة .

١٨ — ٣) **وهناك شبه عظيم بين الادراك والوهم** ، فليس الوهم الا **شكلاً جديداً من الحقيقة السابقة** . والوهم امر داخلي محض نحسب انه حقيقة موجودة خارج نفوسنا ، فيحسب الانسان انه يرى حيواناً امامه او يخيل إليه انه يسمع صوتاً . والإدراك السوي له الميكانيكية نفسها . **والفرق الوحيد** هو انه في حالة الادراك يوجد شيء يستطيع الناس ان يروه او يسمعوه كما نراه او نسمعه

اما في الوهم فلا يدرك الآخرون شيئاً . إذن **فحجة الاعتقاد مختلفة اما الاعتقاد فهو نفسه** ويتولد بحسب الشكل نفسه ، ومن هنا ينتج الدستور المشهور للفيلسوف تين : « **الادراك الخارجي وهم حقيقي** » . الذي يعني من جهة انه حادث وهمي تحول من صورة الى حقيقة ؟ ولكنه ، من جهة اخرى ، مرفوق بشيء يمكن التأكد منه فهو لذلك حقيقي شأنه في ذلك شأن حلم ليلي يمكن ان يصبح حقيقة إذا دخل الصديق الذي نحلم به إلى غرفتنا اثناء نومنا ، إذن لا يبقى الحلم حلماً ولكنه يصبح حقيقة . نعم هناك ضلال ولكن هناك توافقاً بين الضلال والحقيقة .

١٩ — ٤) وهذا ما يجعل من الميسور فهم قيام **مشكلة حقيقة وجود العالم الخارجي** . ولا يعود الانسان ينظر الى هذه المشكلة على انها سخيفة . والواقع اننا رأينا بوضوح بأننا لانتلقى الارسائل داخلية . إذن يوجد على الاقل **شك في الاصل** : نعم قد تكون المشكلة سهلة الحل ولكنها موجودة . وهذا ما يسمح لنا علم النفس بفهمه .

٢٠ — ٥) واخيراً نحصل على تفسير بسيط **لضلال الحواس** . معلوم ان هذا الضلال كثير يشمل الحواس كلها .

٢١ — وتعليل هذا الضلال بسيط : **انه خطأ في تفسير الدلائل** . اما الاحساس فليس خاطئاً . انه ما يجب ان يكون . ولو اقتصرت على وصف ما احس به دونما تفسير او اء تنتاج لتجنبت الخطأ .

هذا وسنقف طويلاً عند احدى هذه النتائج ونعني بها الحلم .

د — الحلم

هناك مسائل ثلاثة تتعلق بالحلم : طبيعة الحلم ، أصل الاحلام ، حالة النفس اثناء الحلم .

١ — طبيعة الحلم

٢٢ — يجب ان نقارن الحلم بالادراك اليقظ اي ان ندرس :

١) **تشابههما الشديد** . ٢) **الفروق التي تذكر عادة** . ٣) **الفرق الحقيقي** ان كان هناك فرق حقيقي .

١) **مشابهته للادراك** : نرى في احلامنا الاشياء **نفسها** التي نراها في يقظتنا : الاشخاص والمناظر والشوارع والمنازل الخ ... ونعتقد ، كما في اليقظة ، اعتقاداً كلياً بحقيقتها ونحس إحساساً مطلقاً بوجودها المادي وتظهر لدينا الهيجانات نفسها التي تظهر في حالة اليقظة وعلى نفس الدرجة من الشدة والحيوية إن لم يكن اكثر

٢٣ — ويظهر انه من المحقق كون **الابتدائيين يخلطون بين الحلم واليقظة** . ويقال ان المتوحشين يؤكدن ، حين يستيقظون ، بشكل قوي بأنهم قاموا بحملة (حلموا بها) فيتهمهم رفاقهم الذين لم يفارقوهم بالكذب فتقوم مشاكل ومشاحنات من جراء ذلك ؛ او يصلون ، حين يتأكدون من أنهم لم يكذبوا ، إلى فكرة أن زوجاً غير منظور قد ترك الجسد النائم الى حيث اشار الشخص وهذا هو الشكل الأول لما سمي فيما بعد بالروح .

ويظهر ان الأطفال الصغار حين يبدؤون بالحلم لا يحسنون التمييز بين الحلم والحقيقة.

أما نحن فنميز بين الحلم واليقظة فنرى ان عالم اليقظة هو الحقيقي وان عالم الحلم داخلي وهمي خاطيء .

٢٤ — ٢) **الفروق التي تذكر عادة** : ١ - **يثبت اثناء اليقظة من الادراك بواسطة الحواس المختلفة** فأتأكد من حقيقة الأشياء لان حواسي يضبط بعضها بعضاً : أرى شجرة فاذا شككت في صحة وجودها تقدمت فلمستها فزال الشك . ولكن الامر نفسه صحيح في الحلم ايضاً والفرق موهوم .

٢٥ — ٢ — **يثبت اثناء اليقظة من حقيقة الاشياء بانعاش الناس** : ارى شجرة

ولكني لست الوحيد الذي يراها بل كل من حولي ، أما في الحلم فليس الامر كذلك فالآخرون لا يرون ما أرى .

وهذا الفرق موهوم ايضاً اذ أن الأمور تمر أثناء الحلم كما تمر بالضبط أثناء اليقظة . فنحن نرى انفسنا اثناء الحلم مع غيرنا ونرى انهم يرون ما نرى ولا نعرف خطأنا إلا بعد اليقظة .

٢٦ — ٣ً — والفرق الأهم هو **عدم انسجام الحلم** إذا قورن بتسلسل اليقظة فالحوادث في الحلم تتابع دون رابط فنحن ننتقل في التو من قطر إلى آخر ، وقل الأمر نفسه عن كثير من المستحيلات تحدث أثناء الحلم .

ولكن هذا الفرق أيضاً ليس اكثر أهمية أو صحة من سابقيه إذ ان هناك احلاماً . ولو انها قليلة ، منسجمة متناسقة . والأهم من هذا هو أن استحالة الحلم لا تظهر إلا بعد اليقظة . اما اثناء الحلم فالامر يظهر لنا بسيطاً وطبيعياً . وبديهي ان وجهة نظر النائم غير وجهة نظر اليقظ .

٢٧ — ٤ً — والفرق الرابع، فيما يزعمون، هو **عدم انسجام الاحلام المتتالية** فالحياة الحقيقية كلٌ متتابعٌ أما الاحلام فليس لها وجود متتال .

وليس هذا الفرق أهم مما سبقه ، فنحن لا ندرك عدم الانسجام هذا الا بعد اليقظة ونحن انما ندرس حالة النفس اثناء الحلم .

وهنا خطأ كل هذه المناقشات والفروق فنحن انما نتحدث عن الحلم لا كما هو ولكن كما يظهر بعد اليقظة وعوضاً عن ان ننظر في انطباعات الحالم أثناء حلمه ننظر في انطباعاته عن حلمه بعد يقظته ، والخطأ بيّن ظاهر . إنما نحن في معرض مقارنة الحياة السوية مع حياة الحلم ونحن إنما نصف حياة اليقظة كما هي ، ونحن فيها ، أفليس من الحق أن نصف حياة الحلم كما هي واثناء وجودنا فيها ؟ !

٢٨ — ٥ً — ولو سألنا أحدهم عن الفرق بين الحلم واليقظة لقال : **الحلم تخيل**

اليقظة واعادتها ونتائجها فاليقظة ، لهذا ، حالة حقيقية هامة اما الحلم فصدى عديم الأهمية .

ولكن هذا الجواب دليل على عدم فهم المسألة التي نتناولها بالبحث اذا اننا لا نسأل عن اصل الحلم ومنشئه .

٢٩ — ولنلاحظ بعد ذلك انه **متى في حالة اليقظة نفسها نوجد صوراً هي تمثيل مشاهد عيانية واعادة لها ونتائجها .**

٣٠ — ٣) **الفرق الحقيقي** : هو ابسط من كل ما سبق ولعل بساطته هي السبب في عدم الانتباه له : **يستيقظ الانسان من الحلم ولكنه لا يستيقظ من اليقظة .** هو ذا الفرق الحقيقي وهو ذا السبب في التفريق بين الاثنين . وبين النظر بصورة جدية الى الواحد وغير جدية الى الآخر : عندما نستيقظ نبتسم مما رأينا في الحلم وندهش من اننا اعتقدنا بصحته ففرحنا او تألمنا . وفي هذا الحين ، حين ننظر الى الحلم بعين اليقظة ، نرى الحلم سخيفاً ، حينئذ فقط نراه مفككاً لا انسجام بينه وبين غيره من الاحلام . وعلى العكس ، على الأقل حالياً وفي الشروط السوية العادية للانسانية ، فنحن لا نستيقظ مطلقاً مما ندعوه يقظة ولا نمر الى حالة اخرى نحاكم فيها الحقيقة (اليقظة) كما نحاكم الحلم .

٣١ — إنه فرق صحيح ولكن هل هو فرق أساسي ونهائي ؟ بالطبع كلا . صحيح إنه لا توجد حالة ثالثة هي من اليقظة ما اليقظة من الحلم **ولكن هذا صحيح في الحاضر وفي الظروف العادية الانسانية .** وهذان الشرطان يجب ان نقف عندهما قليلاً .

٣٢ — **ان هذا ليس صحيحاً في الحاضر** فمن الممكن ان ندع هذا الحال الى حال ثالث جديد هو من اليقظة ما اليقظة من الحلم ، فمن الممكن مثلاً ان يكون الموت هذه اليقظة كما تقول اكثر الاديان ؛ وقد نندهش حينئذ من نظرنا الجدي الى هذه الحياة . إن هذا ممكن . وان كان ليس هنا موضع مناقشة ذلك فان من

الحق ان نقول انه يكفي ان يكون محتملاً لكي ينتفي عنا الحق في ان نجعل من الحلم واليقظة ضدين اساسيين .

٣٣ — **ثم ان هذا ليس صحيحاً الا من اجل اواسط الناس** . والواقع يظهر ان هناك اناساً هم في نصف يقظة بالنسبة الى الحياة الحاضرة انهم يقاربون ، ولو لم يتوصلوا اليها ، الحالة الثالثة التي يظهر فيها العالم الحسي وكأنه محلم فليس الحلم إلا انكشاف عالم جديد يختلف عن العالم المحسوس تطوف فيه ذرات وتجاوب فيه امواج . فالعالم قد تجاوز نصف عالم فيه حقائق علوية على الأقل تختلف عن حقائق الفرد العادي والفيلسوف (عالم ما وراء الطبيعة) كأفلاطون مثلاً رجل يتأمل عالماً جديداً ولا يرى حقيقة إلا نصف رؤية .

٣٤ — **ويجب ان لا ندهشنا هذه الحقيقة القائلة بأنه لا يوجد فرق اساسي بالنسبة للشعور بين الحلم واليقظة** لأنها تتفق تماماً مع نظرية الادراك فالاحساس ليس إلا ترجمة الحادث الدماغي إلى لغة شخصية وقل الامر نفسه عن موضوع الحلم فهما إذن متماثلان **والفرق لا يقوم بينهما بقدر ما يقوم بين مصدريهما** ، فمصدر الادراك حادث خارجي ومصدر الحلم عمل داخلي ولكن هذا الفرق لا يمنع تماثلهما .

٢ — أصل الاحلام

نصل الآن إلى المسألة التي اهملنا سابقاً وهي مصدر الاحلام . والاجوبة عليها ، وهي كلها اجوبة صحيحة بحسب الحالات المختلفة ، هي التالية :

٣٥ — ١) **سبب احلامنا المثيرات الخارجية** التي تثابر ، رغم إعاقتها واضعافها على الوصول إلينا . فاذا أشعلنا ضوءاً قوياً مثلاً أمام عيني نائم ثم أيقظناه فجأة قال بأنه حلم بشيء كحريق او غروب الشمس او غيرها وصوت الساعة المنبهة قد يسبب الحلم بنواقيس تدق او أواني تتكسر او مطارق تتهاوى على السندان او غيرها .

٣٦ — ٢) وقد يكون السبب **مثيرات عضوية داخلية** وهو سبب معقول

كثير الحدوث . ففي حال اليقظة تكون المثيرات الصادرة عن الحواس على جانب من الاهمية كبير لدرجة لا نشعر معها بحالة اعضائنا الا في حال تألمها ؛ اما اثناء النوم فاننا ، بسبب ضعف المؤثرات الخارجية وعدم تمكنها من الوصول الى النفس إلا ضعيفة خاملة ، نصبح شديدي الحساسية برسائل الاعضاء والأحشاء ، ودليل ذلك الاحلام المزعجة التي يسببها سوء الهضم وهكذا يكون حلمنا ترجماناً دائماً لحال عضويتنا ووظائفنا العميقة الحسن او السيء . والذي يجعلنا لا نشعر بهذا إلا نادراً كون **هذه الترجمة رمزية** فان التنفس المضطرب لا يسبب الحلم بالتنفس المضطرب فقط ولكنه يسبب الحلم بعدو آخذ بخناقنا .

٣٧ — ٣) **وقد يكون الحلم اعادة بسيطة لمشاهد اليقظة** وما من شك في ان كثيراً من أحلامنا هذا مصدرها ولكن هذا التفسير ناقص لانه يبقى علينا أن نعرف لماذا رأينا هذا المشهد وليس ذاك ، ولماذا كان التمازج على هذا الشكل وليس على ذاك . .

٣٨ — ٤) وأخيراً ظهرت نظرية **فرويد** والفكرة الاساسية فيها هي ان **الحلم يحقق** ، على طريقته الخاصة ، **رغبة لم ترضها اليقظة** . وهو لذلك حالة خاصة من حالات كبت الرغبات . ويبقى ان نميز حالات يزداد تعقدها :

٣٩ — ١) **يحقق الحلم احياناً الرغبة بصورة مباشرة** دون ان تكون هناك صعوبة في التفسير ومثال ذلك احلام الاطفال الصغار : فهذا الطفل يحلم بأنه يأكل سلة كرز لأنه منع من أكل الكرز في النهار ؛ وقل الأمر نفسه عن كبار أقسروا على حياة ابتدائية فرواد الأقطاب مثلاً قد يحلمون بعشاء ممتاز في مطعم فخم من مطاعم بلدهم .

٢) وفي الاعم الاغلب **لا يمكن معرفة الرغبة الموجودة خلف الحلم لأنه توجد فينا ، حتى في حالة الحلم ، (رقابة)** اي [انا] تراقب وتقاوم وتمنع بعض اعمال وتعابير ومثال ذلك رغبة لا يمكن الافصاح عنها **كالانانية والجبن والانتقام**

الخ... فحينئذ تقاوم الشخصية ارضاءها وتقيم عوائق وحواجز في طريقها ولا تسمح الا بإشارات يجب ان يكون المفسر حاذقاً ليكتشف الرغبة التي تقوم خلفها . هذا هو رأي فرويد الذي نشك فيه .

٣) واخيراً فان النزعة التي اشرنا اليها سابقاً ، نزعة الحلم الى استخدام الرمز ، تتدخل في اخفاء الرغبة الحقيقية التي هي سبب كل شيء فان الشيء او العمل الذي يهمنا يحل محله شيء او عمل آخر هو اشارة اليه صعب تفسيرها . وهكذا يرى فرويد ان الانسان الخائف من الموت يحلم بالسفر مثلاً . ويفهم من هذا الرأي انه يمكنه ان يكون هناك تفسير للاحلام علمي لا دحلي . وعالم النفس او الطبيب النفساني الذي يريد العثور على السبب الحقيقي للحلم يجب ان يذهب باحثاً منقباً في ما وراء الحلم في الافكار الخبيئة والرغبات المكبوتة التي لم ترضها الحياة او الارادة .

٣ — حالة النفس اثناء الحلم

لم يصبح الحلم ممكناً إلا بواسطة الحالة الخاصة التي توجد فيها النفس ابان النوم وهذه الحالة تتصف بالتراخي (عدم المقاومة) وانقطاع الاتصال بالعالم الخارجي ودوام الوظيفة التفسيرية .

٤٠ — ١ — حالة تراخي النفس : تكون النفس في حالة عدم مقاومة فلقد أضاعت كل قدرة على الايقاف فهي تقبل اي احساس كان أو صورة كانت او فكرة او محاكمة لانعدام كل ضابط والخلاصة بزول تماماً كل انتباه او ارادة بمعناها الصحيح . فكل شيء مقبول دونما مقاومة ولا تمنع الاستحالة شيئاً ومثال ذلك الاحلام الكثيرة الشيوع التي يرى فيها الانسان ميتاً ويتحدث إليه دون أن يفطن إلى الحقيقة البسيطة التي تتلخص في أنه ميت وهناك الاوضاع الغريبة التي نقبلها على أنها حقيقة لا ريب فيها كأن ترى انك عائش في عصر العباسيين مثلاً او ان

الجحيم تحت غرفتك . وقد تذهب إلى ابعد من هذا فتتحدث بلغة جديدة تخترعها بذكرك بها حاضر في غرفتك اثناء نومك وقد تلفظ خطباً يخيل إليك انها السحر الحلال وقد يصدف أن تحفظ بعضها حين اليقظة فترى انها سخيفة وقد لا يكون لها معنى . **وتراءى النفس هذا قد يظهر بشكل تابع مشاهد حلمية دونما انقطاع** مثلها في ذلك مثل آلة سينما تدور ابداً وذلك بسبب **زوال وظيفة الايقاف** اهم عناصر الانتباه . **فالصفة الاساسية اذن للنفس النائمة هي الناقي المحض** (القبول المطلق) فهي لا ترفض ولا تجتنب شيئاً بل تقبل كل شيء وتستسلم بكليتها للصور .

٤١ - ٢ً — انقطاع الاتصال بالاجسام الخارجية : تأتي الرسائل التي يتلقاها الشعور في حالة اليقظة من العالم الخارجي [هذا هو الرأي العلمي السائد] وبما أن هذه الرسائل هي التي تهمنا فنحن لا نشعر ، الا في حالات المرض والالم بحياة جسدنا الداخلية . أما في حالة النوم فان حواسنا تكون في حالة راحة (غيبوبة) ولذا ينقطع معظم الاتصال مع العالم الخارجي وينتج عن هذا ان تأخذ الرسائل الواردة عن أعضائنا اهمية جديدة وبحسب حالة وظائفنا الهضمية والتنفسية والدموية الخ ... ترد تأثرات مختلفة الى الدماغ وهذه الرسائل العضوية هي التي تفسرها (تترجمها) النفس عوضاً عن الرسائل الخارجية الموجودة في حالة اليقظة .

٣ً — دوام وظيفة التفسير : نظرنا ، في الدرجة الاولى ، نوع من ماكنة للتفسير ، وتداوم هذه الماكنة على العمل حتى اثناء النوم فيتلو ذلك ان تفسر النفس كل الرسائل التي تتصاعد من اعماق العضويه وان تترجم الاحساس بالراحة او الضيق ونجد ، حالاً ، ظروفاً وحالات تجعلها طبيعية تماماً .

ولكننا ، بسبب تراءى النفس الحالم ، نقبل اي تفسير كان واول تفسير يحدث يقبل دونما مقاومة **وليست احلامنا الا اشكالاً تفسيرية لضيقنا او الذنا**

او راحتنا او سرورنا العضوي : تفسير غريب لاننا فاقدين كل قوة دفاعية .

٤٢ — وهاك **بعض امثلة** تريك هذه الميكانيكية الهامة :

حالة عدم الحركة وشلل الجسم النسبي تسبب احلام حركات صعبة حيل دونها : فنحلم بأننا مهددون من قبل عدو او مسمّرون في امكنتنا لخوف او رعب . ووضع الرأس السيء او الرقبة ينتج احلام موت أليم بسبب قتل او مقصلة . وعسر الهضم او اضطراب دورة الدم يخلقان حالة قلق ورعب ويسببان حلم قتل مثلاً . وحلم الطيران ذلك الحلم الجميل الذي يرى فيه الانسان نفسه يسبح في اجواء الفضاء تفسير لحركة تنفسية وقلبية : لأن صدر الانسان المتمدد على فراشه يرتفع وينخفض من الاسفل الى الاعلى بحركة تشبه خفقان الاجنحة .

٥ — تربية الحواس

٤٣ — اظهرت لنا بسيكولوجيا الادراك ان **الادراك معناه تفسير العلامات وفهم الرسائل ويتمرن الطفل كل ذلك بلا انقطاع طيلة الحياة فعلى المربين ان يساعدوه** ويقودوه في هذا التعلم وهذه هي وظيفة تربية الحواس .

ولعل اهم النظريات في هذا الصدد واكثرها جدة موجودة في عمل السيدة **منتسوري** الشهير اليوم باسم (بيت الاطفال) وسنتحدث باختصار ، دون الدخول في التفاصيل ، عن الامور الهامة التي تتعلق بتربية الحواس .

٤٤ — الفكرة الهامة في هذه التربية **هي فكرة الحرية** : **فالمقصود هو ان تنمو الفعالية الداخلية للطفل دونما عوائق** الا العوائق الضرورية جداً للنظام والصالح العام وينتج من هذا ان يكون **المعلم رقيباً** قبل كل شيء فعوضاً عن ان يتداخل في كل لحظة ليوقف حركات الطفل ، عليه ، ضمن حدود الامكان ، ان

يدعه يحقق نفسه ، فيحصل المعلم بذلك على معلومات قيمة عن طبيعة الاطفال وميولهم وردود الفعل الشخصية عندهم .

٤٥ — وتربية الحواس هي ما يحدث بصورة طبيعية مستمرة في (بيت الاطفال) الذي توجد فيه **ادوات كثيرة البساطة** غاية في الرخص : اسطوانات خشبية مختلفة الاطوال والحجوم ، الواح خشبية مختلفة عليها عصابات من قماش او ورق ، مربعات عديدة مختلفة الاوزان ، مكعبات كثيرة ، خضار مجففة ، قطع قرميد الخ .... وبواسطة هذه الآلات المتواضعة تجري :

١ً — **تربية حس اللمس** : تعصب عينا الطفل وتمرر يده على العصابات ثم يطلب اليه تعيين القماش فيقول هـذا قطيفة وذاك حرير الخ ... وبذلك يمرن اللمس منفصلاً عن البصر فيكتسب دقة لا يملكها الا العميان .

٢ً — **تربية حاسة الثقل** : على الطفل المعصوب العينين ، ان يميز بين المربعات المختلفة الثقل فيدل على الاثقل والاخف . وبما أن هذه المربعات من حجم واحد كان الذي يعمل إنما هو حس الثقل .

٣ً — **تربية حاسة اللمس للاشكال** : يطلب الى الطفل المعصوب العينين ان يميز قطع القرميد والمكعبات وحبات الفاصوليا والعدس الخ...

٤ً — **تربية حاسة الابصار** : على الطفل ان يحكم على حجم الاسطوانات الخشبية بواسطة النظر فقط فيقول ان هذه تملأ الثقب الفلاني وتلك الثقب الآخر وهكذا .

أما من اجل حاسة اللون فتستعمل أقمشة ذات الوان زاهية ، لعبٌ من لباد ، طابات من صوف: فنريه طابة مثلاً ثم نطلب إليه إعطاء اللون نفسه .

٥ً — **تربية السمع** : وهي اكثر صعوبة لانه من غير الممكن ان نترك الاطفال يمرنون لوحدهم . ويستعمل في ميلان (١٣) ناقوساً و (٤) مطارق صغيرة تخرج ١٣ نوتة من (دو) الى (لا) . فالمعلمة تضرب ناقوساً وعلى الولد ان يعطي النوتة نفسها على لعبة نواقيس اخرى .

٤٦ — وتربية الاذن هذه تساعد الى حد كبير **بلعبة السكوت** فتعطي المعلمة المثل الكامل في السكوت فتحبس انفاسها وتمتنع عن الحركة ويقلدها الصغار فيسود السكوت وتسمع النأمات الخفيفة وفي هذا رياضة للارادة غاية في النفع .

٤٧ — وكل هذه التمارين الحسية كثيراً ما تكمل **بألعاب صغيرة في البناء** بالخشب او الورق واخيراً بالقراءة والكتابة نفسيها اللذين هما تمرين حقيقي للبصر واللمس لان **القراءة تعلم باصرار اليد على حروف منقطعة على ورق ناقر** (وهذا تعليم للكتابة في الوقت نفسه) .

والخلاصة : ليست تربية الحواس هذه الا تطبيقاً لعلم النفس ، اذ يعلم الطفل تفسير الرسائل والعلامات بطريقة تزداد امناً ووضوحاً .

٤٨ — وهكذا يتضح لنا ان الغاية من تربية الحواس هو تدريبها على القيام بعملها فتتسع معلومات الطفل وتصبح صحيحة دقيقة . وتدريب الحواس هذا هو الخطوة الاولى في التربية العقلية وذلك لان الاحساس هو الواسطة الهامة الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي وما فيه كما رأينا .

٤٩ — ومن هنا أيضاً كانت تربية الحواس تربية لروح الملاحظة تلك الروح التي بدأت التربية الحديثة تعني بها عناية عظيمة حتى ان اساس طريقة دكرولي هو روح الملاحظة هذه ، والطريق للوصول إليها هو الحواس وتربية هذه الحواس وتعويد الطلاب على الاستفادة من حواسهم واستخدامها على الوجه الصحيح وتجنيبهم أخطاءها .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثاني . الفصول : الثاني والثالث والرابع

٢ — الجارم وأمين : الباب السابع

٣ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث : التوطئة والفصول الاربعة الاولى

٤ — عبد المسيح ورفاقها : الباب العاشر

٥ — عطية الله ـ احمد : (ص ٣٩ — ٤٦)

٦ — المصري ـ ايريس : الفصل الثامن

٧ — نجار ـ فريد : الفصل الرابع

الفصل الخامس

الذاكرة

تصميم البحث

آ — تعريف الذاكرة :

تدل الكلمة بالمعنى الدارج على انواع اربعة من الحوادث .

١ — ذاكرة لفظية .

٢ — ذاكرة عقلية .

٣ — ذاكرة الأشياء .

٤ — ذاكرة الحوادث .

الثلاثة الأولى عادات ، أما الأخيرة فهي الذاكرة — التمييز بين آثار الماضي ورؤية الماضي .

ب — تحليل الذكرى :

١ — صورة حاضرة .

٢ — تظهر على أنها بعيدة في الزمان .

٣ — تفسير هذا الوهم عن المسافة الزمنية .

ج — قصة الذكرى :

١ — الاكتساب .

٢ — التثبيت .

٣ — الحضور .

٤ — النسيان ، الامنزيا (فقدان الذاكرة)

د — الذاكرة عند الطفل :

هـ — التعلم :

قوانين التعلم . التقدم في التعلم . النسيان في التعلم .

آ – تعريف الذاكرة

تعريف الذاكرة يستدعي دراسة دقيقة لمعاني كلمة (ذاكرة) المختلفة .

١ — تستعمل هذه الكلمة للدلالة على **انواع اربعة من الاحداث** ، مختلفة قليلاً او كثيراً .

١ً — نقصد بها احياناً **الذاكرة اللفظية** . والنوع المعروف من هذه الذاكرة هو **الحفظ** عن ظهر قلب . فيقال ذاكرة الطفل قوية اذا كان يحفظ عن ظهر قلب كثيراً من القصائد والدروس والمفردات الخ ...

٢ً — وفي أحيان اخرى يقصد بها **الذاكرة العقلية** اي **ذاكرة الافكار والمحاكمات** . فيقال مثلا عن رياضي متأكد من ايجاد محاكمة رياضية معقدة دون ان يحفظها عن ظهر قلب ، ولكن دون ان يخترع شيئاً ، انه يستخدم ذاكرته . وقل الامر نفسه عنا حينما نجد من جديد افكاراً وقوانين اكتشفناها سابقاً او تأملناها ولكننا لانحفظ نصها عن ظهر قلب . وهذا النوع يختلف عن السابق كما هو ملحوظ .

٣ً — وفي حالة ثالثة يقصد بها **ذاكرة الاشياء** وبصورة خاصة **الذاكرة البصرية** [والذاكرة السمعية او اللمسية الخ ... ايضاً] . فنحن مثلاً قادرون ان نرى من جديد ، وبصورة ذهنية ، قلعة حلب . ونقول في هذا الحال ان هنا حادث تذكر . ظاهر ان هذا نوع ثالث يختلف عن سابقيه فان رؤية وجه صديق غائب بالفكر تختلف عن معرفة اسمه او وجود فكرة واضحة عنه .

٤ً — واخيراً هناك **ذاكرة الحوادث** اي **معرفة ماضينا** وقصة حياتنا . فاذا قصصت ما فعلت طيلة نهار امس مثلا أكون قد تذكرت .

٢ — هذه هي الانواع الاربعة من الذاكرة التي يشار إليها عادة ولننظر الآن فيما اذا كانت كلها من طبيعة واحدة ويجب ان تسمى باسم واحد

ا — ولنبدأ **بالنوع الاخير** لانه لا يتناوله الشك مطلقاً : **انه تذكر لا شك فيه** وانما يبرهن الانسان على وجود ذاكرة عنده بأن يقص ما فعل بالماضي . وهذه الذاكرة **تتصف بما يلي :**

١ً — **انها تشتمل على فكرة الماضي** ، فأنا أعرف ان الامر متعلق بحادث قد جرى . ارى من جديد لحظة من حياتي وأنا على علم بأنها ليست من الحاضر .

٢ً — **ارى ترتيباً لجريان الحوادث** اي فكرة عن (**قبل**) و (**بعد**) فاذا ذكرت جولة علمت اني مررت اولاً بالمرجة ثم بالمهاجرين كما ارى تتابعاً ودواماً ووقتاً **ويتجه الانتباه الى هذا الترتيب اكثر من اتجاهه الى شكل الاشياء المرئية**

٣ً — وهناك وضع خارجي هو التعبير السوي عن هذه الذاكرة ونعني **روايتها** . فالرواية هي العلامة الاكيدة الوحيدة لوجود الذكرى ؛ وما فائدة الذاكرة الا ذلك الذي يعجز عن رواية ما قام به .

هذه هي صفات ذاكرة الحوادث .

ب — **هل تتصف الذاكرة اللفظية بالصفات نفسها ؟** لقد قلنا ان نموذجها الاشهر هو **حفظ نص ، وحفظ النص ينحصر في قابلية يحصل عليها بالتكرار** فيلحظ اذن انها نوع من الحوادث يختلف عن السابق **انها اثر من آثار الماضي ، ولكن هذا الماضي قد يكون مجهولاً بالكلية** من قبل المتذكر ؛ وهو كذلك في أغلب الاحيان فليس لدي أية فكرة عن اللحظة التي تعلمت فيها هذه القصيدة وحفظتها عن ظهر قلب .

وواضح ايضاً **انها نوع من العادة** ، والواقع ان العادة كما نعرف ، **لباقة حصل عليها لتحقيق اعمال بعينها** وهنا الامر امر لباقة حصل عليها في عملية الحفظ وهذه هي الصفة الخاصة الوحيدة بهذه العادة .

ح — ولنمر الآن الى **ذاكرة الافكار**

٣ – انها قابلية اعادة محاكاة ما بسهولة او تكوين فكرة ما من جديد ، يحصل عليها بالتكرار والانتباه : أنا لا أعرف الدستور عن ظهر قلب لكني قادر على ان اعيد بنفسي التفكير في الاستنتاج او التجريد الذين قمت بهما مرات عديدة .

اذن فليست هذه الذاكرة من نوع ذاكرة الحوادث لاني ، في اغلب الاحيان لا اعرف مطلقاً ، او لا افكر مطلقاً ، بأن الامر متعلق بأمر ماضي . نعم انا استفيد من الماضي ، ولكن هذا امر مختلف كل الاختلاف .

إنها سهولة يحصل عليها ونزعة إلى اعادة عملية عقلية قمنا بها سابقاً . والكلمة المناسبة هنا هي ايضاً (عادة) : انها عادة خاصة ، عادة عقلية ، عادة دماغية ان جاز لنا ، ولكنها مع ذلك وعلى كل حال عادة .

د — ذاكرة الاشياء .

٤ — انها قابلية ، يحصل عليها بالتكرار والانتباه ، لاعادة رؤية او ادراك ماضيين في النفس . فبقدر ما اكثر من رؤية تمثال مثلاً يسهل علي تمثله .

إذن فليست هذه الذاكرة مشابهة لذاكرة الحوادث لاني استطيع ان لا افكر في الماضي مطلقاً وهذا ما يحدث في اغلب الاحيان : أنهمك في تمثل حاضر لا اكثر ولا أقل .

انها اثر أبقاه الماضي فينا اي انها عادة : عادة عقلية كسابقتها ولكنها عادة حسية او ادراكية وليست منطقية .

٥ — من هذا التحليل والمقارنة تنتج النتائج التالية :

هناك شيئان يجب تمييزهما بعناية فائقة : آثار الماضي ورؤية الماضي اما آثار الماضي فتسمى عادات وقد تكون حركية او ذهنية ولكنها في كل حال

عادات ومن الضبط العلمي ان تسمى عادات لا ذاكرات . اما رؤية الماضي ومعرفة ان الحادث ماض فحادث مختلف كل الاختلاف عن السابق إنه الوظيفة التذكرية بالمعنى المضبوط .

٦ — ومع ذلك فهناك **ظل من الحقيقة في هذه التسمية** المشتركة لأن **الكلمات والافكار والصور** هي في الغالب ، او يمكن ان تكون دائماً ، **بقايا ذكريات مفككة** نرى مشهداً من مشاهد الحياة يعتبر كذكرى لنا لمدة من الزمن ثم تبقى منه بقايا تسبح في النفس من صور مفككة ، الى افكار مجردة ، الى دساتير ، فنداوم على تسميتها ذكريات دون ان نخطىء خطأ كلياً ؛ لأنها وان لم تكن ذكريات بالضبط فهي اشلاء ذكريات تائهة .

وهكذا نعتمد في دراستنا العلمية للذاكرة ذاكرة الحوادث اما الباقيات فقد درست في الفصل الخاص بالعادة .

ب — تحليل الذكرى

٧ — لنفحص ذكرى ما ، **في حين تكون حادثاً واقعياً اي في حين ظهورها في النفس** .

١ — انها ، بادئ بدء ، **صورة والصورة هي انبعاث ادراك ماض في نفوسنا** بصورة اضعف من السابق بصورة عامة (ولكن ليس في كل الحالات : الحلم مثلاً) فصورة صديق ماهي تولدٌ جديد في نفوسنا لرؤية صديقنا بصورة أقل شدة ودقة منها في الحاضر .

٢ — وهي **صورة حاضرة** انها في شعوري الآن ؛ مثلها في ذلك مثل فكرة افكر فيها الآن او محاكمة اجريها حالياً .

٣ — ومع ذلك فان **هذه الصورة الحاضرة تظهر كأنها بعيدة** ، بعيدة لا في المكان ولكن **في الزمان** فأنا انظر إليها على انها تراجع في الزمان ؛ انها تفترق

عني بمسافة زمنية يمكن أن تكون عظيمة وهنا **يوجد وهم بشري** غريب :
هناك صورة موجودة فينا حالياً ومع ذلك فنحن نتوهم رؤية حادث ماض قديم حتى لكأننا ننظر إلى الصورة من خلال نظارتين خاصتين تبعدانها في الزمان.

٨ — ٤ — لم هذا الوهم الغريب ؟

من اجل فهمه يجب التعمق في المبدأ الثاني — الذي يظهر حادث الحلم بشكل خصب — وهو ان **كل صورة تميل لان تصبح ادراكاً كاملاً وانها تصبح كذلك اذا لم تصادف المقاومة الكافية لكبتها** . وهذا ما يجري في الحلم . اذن فوهم الذاكرة يتفسر بالشكل التالي :

١) تريد الصورة ان تصبح ادراكاً كاملاً ، وهي تصبح كذلك اذا نمت . ومتى استيقظت **كبتتها الاحساسات الحاضرة** . **فهي اذن تزول من الحقيقة الحاضرة** .

٢) **ومنذئذ تتكبت وتبقى في نوع من (نصف الوجود) هو الوجود في الماضي** . فحين نبعدها عنا زمانياً ننسب إليها حقيقة من نوع خاص في منتصف الطريق عن (غير الحقيقة) . والواقع اذا نظرنا الى **حادث ماض** من قريب ظهر لنا على انه **امر غير موجود وموجود في آن واحد** . الماضي وسيط مضبوط بين الوجود وعدمه .

وهذا سبب ابتعاد الذكرى في الزمان .

وبديهي **ان هذا يفترض اننا نحمل في نفوسنا ، فطرياً او وراثياً عن المجتمع ، الرؤية الداخلية للزمان** او كما يسميه كانت «صورة الوقت La forme du temps».

٣) **واذا لم تجد الصورة واسطة للتمركز حتى في الماضي تكبت أيضاً وتحذف منه الذاكرة فتنسب اما الى المستقبل او الى الخيال .**

٩ — ذلك هو وهم الذاكرة ويلحظ انه **يناسب وهم الادراك ، انما الواحد في الزمان والآخر في المكان** . وميكانيكية الادراك هي مايلي : احساس حاضر داخلي يظهر لنا وكأنه يبتعد عنا في المكان . اما ميكانيكية الذاكرة فهي التالية : صورة حاضرة تظهر لنا وكأنها حادث يبتعد عنا في الزمان .

حـ — قصة الذكرى

الآن وقد عرفنا ما هي الذكرى ، يمكننا ان نتتبع قصتها من البدء الى النهاية اي ندرس :

١ً — كيفية اكتسابها .
٢ً — كيفية تثبيتها .
٣ً — كيفية خطورها .
٤ً — كيفية فقدها .

١ً — **اكتساب الذكرى** : يجب التمييز بين السبب الاساسي واسباب التقوية .

١٠ — **السبب الاساسي هو الحادث نفسه اي الادراك أو العمل** . يحدث حادث أمامنا فندركه وبالتالي تتكون فينا صورة : فاما ان تكون هذه الصورة بقية الادراك نفسه واما ان تتولد معه ، ولايعني هذا ، كما قيل في كثير من الاحيان دون برهان جدي ، ان كل حوادث الحياة تترك ذكريات يمكن ان تخطر . ولكن قد يكون من المحتمل ان كل الصور تترك صوراً وقتية على الاقل .

أما الاسباب التي تقوي الذكرى فهي :

١ً) **الانتباه** : وهو السبب الرئيسي ، فالطفل العديم الذاكرة [من اجل درس معين] هو تلميذ غير منتبه [لهذا الدرس] . ومن هنا كانت اهمية الاهتمام .

٢ً) **رغبة الرواية** : نتذكر في كل الاحيان تقريباً ، حادثاً ما لكي نرويه لانسان آخر ونتمرن على حفظ مغامرة لنرويها ؛ وفي بعض الاحيان نحفظه لنرويه لانفسنا .

٣) **التكرار** : وهنا يجب ان نكون دقيقين بعناية فائقة . **فليس الامر متعلقاً بتكرار الحادث** ، لأن خاصة الحادث عدم امكان اعادته . وحين نقول اننا قمنا بسياحة ما عشرة مرات لا نكون مضبوطين لأن هناك عشر رحلات مختلفات لكل منها تاريخها وظروفها ، والذاكرة الطيبة هي التي لا تخلط بين الاولى والخامسة منها مثلاً . ولكننا نقصد هنا **تكرار رواية الحادث أو فكرة الحادث** فكلما ازداد تكرير تفكيرنا بحادث ما ازداد تذكرنا له .

والذي يجعل بعض الناس يعلنون بلا تردد أن التكرار يقوي الذكرى هو انهم يقصدون دائماً ويفكرون بالذاكرة اللفظية اي الحفظ عن ظهر قلب .

٢ — **تثبت الذكرى** :

١١ — **ماذا يحدث للذكرى بين لحظة تكونها ولحظة ظهورها ، أو قل ماذا يحدث لها بين ظهورين ؟** وبأي شكل تثبت في نفوسنا ؟

هناك كثير من الغموض والخلط حول هذه المسألة يجب تبديده :

١) لكي نكون مضبوطين يجب ان نقول ان **هذه المسألة ليست بسيكولوجية** . ليست الذكرى شيئاً من وجهة نظر العلم اثناء الفاصل ، انها شيء اذا عادت للظهور ، أما الآن فلا تقع تحت ملاحظة ولذلك فهي ليست حادثاً .

٢) ولذلك فان هذه المسألة **تحل ميتافزيكياً** . **فالماديون** يقولون بان الذكرى تتسجل في المادة العصبية والدماغ بشكل آثار مادية مجهولة الطبيعة ؛ **اما النفسيون** فيقولون ان الذكرى تبقى بحالة ذكرى ، اي فكرة لا شعورية في النفس . اما علم النفس فلا يدلي برأي .

٣) ما من شك في أن هناك **هو ادتاً يظهر انها تثبت وجود شيء مادي** دماغي يبقى في نفوسنا وهو شرط الذكرى ؛ ودليل ذلك فقدان الذاكرة نتيجة العطل الدماغي ولكن **الواقع** انها اضطرابات في الخطور ، وما نلاحظه **هو عجز**

المريض عن تذكر ذكرياته ولكن ما عنده دليل على ان العناصر المحفوظة ، مهما كان نوعها ، قد انعدمت .

٤) فعلم النفس اذن يجب ان لا يهتم بالفاصل الا اذا دلت الذكرى بشكل ما على وجودها غير المنظور . والواقع ان هذا الامر صحيح كما ظهر من تجارب (امبراموبسكي Ambramowiski) في فارصوفيا التي برهنت على مقاومة المنسي ، فاذا كان في ذكراي عن مشهد ثغرات ، اذا كان هناك اشخاص مثلاً يستحيل عليَّ تذكرهم فان هذه الثغرات ليست فارغة مطلقاً او حفراً . ولو قيل انه طفل ذلك الذى كان موجوداً لانكرت ذلك بشدة ولا ازال انكر حتى أعطى الحل الصحيح . اذن فالذكرى تقاوم رغم كونها غير منظورة . يمكن ان نحسبها غائبة ولكنها تدلل على وجودها ولا تسمح بتعويضها بغيرها . وبالتالي فاننا نشعر في حياتنا اليومية بان الذكريات غير الشعورية لا تكف ، لذلك ، عن الحركة ، فلا نستطيع لحظة واحدة ، ولو أننا لانفكر في ذلك ، نسيان وضعنا الاجتماعي وعائلتنا وبلدنا وقطرنا الخ ...

٣ — الخطور :

١٢ — حوادثه ثلاث : الاستدعاء ، العرفان ، التحديد .

الاستدعاء : لكي تعود الذكرى للظهور هناك من جهة شروط فيزيولوجية ضرورية كالحالة العامة : تعب ، حمى ، فقر دم ؛ كما ان هناك مثبرات كالقهوة والشاي والكحول تؤثر على استدعاء الصور من جهة اخرى . وأخيراً فالعقل الدماغي يسبب غالباً فقدان الذاكرة .

والاستدعاء ارادي احياناً ، وغير ارادي احياناً أخرى : فهو غير ارادي حين تظهر الذكرى بمناسبة كلمة سمعت او منظر رؤي او عطر شم ؛ والسبب هو

تداعي الافكار . وهو ارادي حين يسأل الانسان نفسه بصورة شعورية : ماذا فعلت امس ؟ مثلاً .

عرفان الذكرى :

١٣ – **نعرف الصورة في الحين الذى تظهر فيه** ، اي نحكم بأنها وثيقة عن حادث حقيقي من ماضينا ونحن نعرفها لان فيها شيئاً يعطينا انطباع ما قد رُؤي ، وهذا الشيء هو **مقاومة الصورة** لجهود التخريب . فأنا حين اتخيل مشهداً خرافياً أشعر بأني حر تماماً في تخيله كما يحلو لي . أما حين أتخيل مشهداً حقيقاً من ماضي فانه يفرض نفسه علي .

تحديد الذكرى :

في اغلب الاحيان تحدد الذكرى اي **توضع في حين معين من الزمان**

١٤ – وبصورة عامة **يكتفي الانسان بتحديد غامض** فيحس بأن هذا مضى عليه وقت طويل ، وذاك وقت قصير .

كيف يحصل هذا التحديد ؟ فكرة البعد في الزمان ليست مباشرة بل مستنتجة فنحن نفسر عدة علامات منها :

١) **شدة او ضعف الصورة** ، نعم ان هذه ليست علامة قاطعة ولكنها علامة ذات قيمة على كل حال .

٢) **ظروف وتفاصيل الذكرى تكون علامات بعد** : فلان ذو علاقة بالمشهد الذي اتذكر ، ولكني اعلم ان فلاناً مات منذ وقت بعيد .

٣) واكثر من الكل ، غالباً ، **ظروف المكان** . في كل ثلاث مرات من اربع تحدد الذكرى هكذا : حينما جرى الحادث الفلاني كنت في لبنان وهذا يكفي ليعطيني فكرة القدم اذا كنت قد تركت لبنان منذ وقت بعيد .

٤) **معرفة التاريخ المجردة** : في بعض الاحيان اعرف تاريخ الحادث وبسبب معرفتي التاريخ يبتعد الحادث : فأطابق رؤيتي الداخلية مع مسافة زمنية بعيدة ،

١٥ — **في أحيان اخرى قليلة نحدد بدقة وضبط** اي نعين التاريخ ، ولكي نتوصل الى ذلك **نستعين بنقاط استدلال** وهي حوادث حياتنا الكبرى التي تقوم مقام **صوى** نحدد الذكريات بالنسبة إليها فنقول مثلاً : قبل الحرب ، بعد ان اصبت بالمرض الفلاني الخ ... ولعل انفع نقاط الاستدلال هذه هي **نقاط التقويم** : قبل عيد الفطر ، بعد عيد المولد . في اول نيسان الخ ... وهنا عنصر اجتماعي في الذاكرة كثير الاهمية .

ضياع الذكرى :

يجب تمييز ضياع الذكرى السوي (**النسيان**) عن ضياعها المرضي (**الامنزيا**)

(١٦ — ١) يحدث النسيان بصورة طبيعية **حين لا يكون لنا فرصة تجديد الذكرى بروايتها او تجديد التفكير فيها** . والزمان الذي يمر حاملاً معه ذكريات جديدة يحمل معه ، طبعاً ، النسيان . ولا نقصد نسيان كل شيء بل نسيان الاشياء التي لا تهمنا الا قليلا .

وتختلف درجة عمق هذا النسيان فهناك **النسيان الموقت** كأن أنسى موعداً وأذكره بعد ساعة ؛ و **النسيان الدائم غير النهائي** فأبقى سنيناً طوالاً لا اذكر شخصاً ما ثم اذكره بمناسبة من المناسبات ، و **النسيان العميق** الذي يكون نهائياً اذا لم تساعده ذاكرة اخرى كأن يذكرني صديق طفولة بحادث من حوادثها و **النسيان المطلق** الذي لا تنفع معه واسطة للتذكر كنسيان حوادث سني الحياة الاولى . و **النسيان ضعف مؤلم ولكنه مفيد** فبدونه تثقلنا الذكريات فلا نستطيع

تفكير . و (**معرفة النسيان**) ميزة من مزايا الذاكرة على اعتبار اننا لا نستطيع معرفة كل شيء بصورة واضحة والذكرى المنسية لا تتلاشى بل تختفي تاركة بقايا وآثار.

٢) **الامنزيا (فقدان الذاكرة) :**

١٧ — الامراض الذاكرية الحقيقية تسمى بالامنزيا وسنكتفي هنا بذكر أهم انواعها :

١) **الامنزيا المتقهقرة** : على أثر صدمة او حادث دماغي ينسى المجروح تماماً الطور الذي سبق الحادث (اسبوع، شهر ، سنة ، او اكثر) . ويلاحظ هذا النوع ايضاً عند الذين يسيرون اثناء نومهم اذ ينسون ما فعلوا حين يستيقظون .

٢) **الامنزيا الكاملة** (الكلية) اي التي تشمل كل الماضي وهي اما ان تكون **عارضة او دائمة** (اذا كانت ناتجة عن ضرر دماغي) وهي تسير ، عادة ، بصورة متدرجة اي يبدأ النسيان بالماضي القريب ويزداد حتى يشمله كله والحالتان المشهورتان من هذا النوع هما : الشلل العام والكحولية المزمنة .

٣) **امنزيا التثبيت** أو الحفظ فلا يحفظ المريض شيئاً بل ينسى كل شيء رغم انه يستطيع تذكر بعض ماضيه البعيد أحياناً . **وامنزيا الشيوخ** حالة شائعة منها .

٤) **الامنزيا المختصة** : فلا يضيع المريض الا زمرة من الذكريات كذكريات الاعداد مثلاً او الالوان او الاصوات او علم ، او لغة ، الخ ... والنموذج الذي اعتني بدراسته من بين هذه هو أمنزيا اللغة او الافازيا والواقع انه ليس اضاعة الذاكرة تماماً بقدر ما **هو اضاعة عادة** .

١٨ — تلك هي الوجوه الكبرى لحياة ذكرى **وتتناسب مع هذه الوجوه صفات الذاكرة** وهي : **السهولة** (**الاكتساب**) **والانقاط** (**التثبيت**) ، **الضبط والاصالة** (**الحفظ**) وهذه الصفات هامة جداً وكثيراً ماتعتبر معاكسة للحكم

وهذا أمر سطحي تافه لأن الحكم لايمكن أن يكون مضبوطاً واكيداً الا اذا كانت الذاكرة غنية امينة ودقيقة .

٥ — الذاكرة عند الطفل

١٩ — اجريت تجارب كثيرة على (الذاكرة المباشرة) و (الذاكرة غير المباشرة) عند الاطفال وهاك اهم النتائج :

الذاكرة المباشرة :

(١) تنمو الذاكرة المباشرة طول مدة التربية وتكون قبل الرشد اسوء منها بعده .

(٢) اضطراد نمو هذه الذاكرة ليس ثابتاً : فهناك ادوار زيادة واستراحة وتناقص .

(٣) ليست سرعة التطور واحدة للذكريات المباشرة المختلفة .

(٤) اثر الاهتمام في الشدة النسبية لهذا النوع من الذاكرة اكيد ظاهر ، ولكن الاهتمام لا يفسر كل شيء .

الذاكرة غير المباشرة :

(١) قابلية التعلم عند الطفل اقل منها عند الراشد ويدوم ذلك حتى الرابعة عشرة من العمر ، فكلما ازدادت حداثة الطفل زادت حاجته للتكرار ، ولكنه يندى يعطي اكثر ويحتاج لتكرار أقل لاستعادة ما كان قد حفظه .

(٢) تتزايد قابلية التعلم حتى الخامسة والعشرين ثم تبدأ بالتناقص حتى الشيخوخة .

(٣) اذا جعلنا بين التمارين فواصل زمنية كان الترقي أسرع .

(٤) هناك تناسب مباشر بين الذاكرة والذكاء ، عند الناس عامة ، ولكن يلاحظ وجود بعض الشذوذ عند الحاسبين الماهرين ولاعبي الشطرنج النابغين .

٥ — التعلم

٢٠ — ليس التعلم ، تلك العملية البالغة الأهمية في التربية ، الا تطبيقاً لما رأيناه في بحثنا عن الذاكرة ، ولهذا كان المحل الطبيعي لدراسة التعلم والتعرف على قوانينه هو مبحث الذاكرة .

٢١ — وقبل أن نخوض في بحث التعلم ، لانرى بداً من الاشارة الى ان دراسة التعلم عند الحيوانات كانت على جانب كبير جداً من النفع في دراسة التعلم عند الانسان وقد كان اول المعنين بهذا الدرس هو (كوهلر) الالماني الذي درس تعلم القردة اثناء الحرب العالمية الاولى .

حبس (كوهلر) قرداً في غرفة علق في سقفها عنقوداً من الموز ، فكانت رؤية عنقود الموز هي المؤثر (م) وكان رد الفعل (ر) الطبيعي لهذا المؤثر هو محاولة القرد الحصول على هذا الموز فمد يده يريد تناول الموز . ولما لم يستطع الوصول اليه قفز فلم يستطع لعلو العنقود ، وحينئذ بدأ القرد يدور في الغرفة فأبصر عموداً وضعه كوهلر في زاوية من الغرفة فتسلقه وتناول الموز ؛ وفي غرفة اخرى وضع عدة صناديق عوضاً عن العمود فما كان من القرد الا ان اخذ صندوقاً وصعد عليه وحاول ان يتناول الموز ، ولما لم يستطع وضع صندوقاً آخر فوق الصندوق الاول وتناول الموز . ولما كانت التجارب قد اجريت على عدد كبير من القردة فقد نشأت مشاكل عدة منها مثلا ان يضع القرد صندوقاً كبيراً على آخر صغير ويحاول الصعود فيسقط فيحاول ان يصعد بخفة وسرعة ويتناول الموز قبل ان يسقط الخ ...

وفي غرفة ثالثة استبدل الصناديق بحبال ، وفي رابعة بعصي يمكن ان تتداخل ببعضها . وفي كل هذه المرات كانت القردة تلتمس حل المشاكل التي تجابهها بطريقة « التجربة والخطأ Trial and Error » التي سندرسها الآن . ثم اجريت تجارب اخرى على حيوانات اخرى كالفيران فلوحظ انها تتعلم بالطريقة نفسها .

٢٢ — **التعلم بالتجربة والخطأ** : لاحظ الذين درسوا تعلم الحيوانات ان تعلمها أمر تدريجي ، أي ان الحيوان يحذف بصورة تدريجية ردود الفعل الخاطئة ويحتفظ بالصحيحة التي ينظمها بصورة تزداد اتقاناً حتى تبلغ الحد النافع . وهذا النوع من التعلم يدعى ، خطأ ، « التعلم بالتجربة والخطأ » وقد كان الانسب ان يدعى « التعلم باختيار ردود الفعل الصحيحة » وذلك لان الحيوان لا يحذف ردود الفعل الخاطئة بقدر ما يختار الصحيحة وتحذف الخاطئة لانها لاتستطيع ان توجد مع الصحيحة .

وليس هذا النوع من التعلم قاصراً على الحيوان بل هو كثير الشيوع عند

الانسان ايضاً . فنحن نتعلم اغلب حركاتنا وافعالنا ونحل معظم مشاكلنا ، بما فيها الفكرية ، على هذه الطريقة .

٢٣ — التعلم بالتبصر : وقد لاحظ كوهلر ان القردة كانت بادىء الأمر غير قادرة على كل المشاكل التي جابهتها ثم تكشف لها الحل فجأة فسمى هذا التعلم « التعلم بالتبصر » . وهذا النوع من (التبصر) ملحوظ عند الانسان الذي يفكر في حل مسألة من غير جدوى ثم يتراوى له الحل فجأة . ولكن الواقع ان هذا التبصر ، الذي يشير اليه كوهلر ، نوع من التعلم السريع محصور في المسائل البسيطة وهو نتيجة تفكير من نوع (التجربة والخطأ) الذي بحثناه .

وهكذا نلاحظ ان الفرق الكبير البين بين تعلم الحيوان وتعلم الانسان انما يتجلى في امكان استخدام الثاني للغة بسهولة ووضوح .

٢٤ — وضع (ثورندايك) ، بعد تجاريب طويله على الحيوان ، قوانينه في التعلم وهي قوانين جد هامة للمعلم :

١) قانون النتيجة : « اذا أوجدنا صلة بين مؤثر ورد فعل ما وكانت هذه الصلة قابلة للتكيف ازدادت قوة هذه الصلة اذا صحبتها او نتجت عنها نتيجة مرضية ، اما اذا كانت النتيجة مزعجة ضعفت قوتها » . وبعبارة أبسط تقوى الصلة أو تضعف حسب ما ينتج عنها من نتائج مرضية أو مزعجة .

ونقصد (بالصلة القابلة للتكيف) ، صلة يمكن تغييرها بالتعلم . ونعني (بالامور المرضية) : الامور التي لا يحاول الحيوان تجنبها ، بل القيام بها .

ولذا كان التشجيع على جانب كبير من الاهمية في التعليم (لانه مرضي) ، ولذا ايضاً كان التأنيب والعتاب تربيويين (لأنهما مزعجان) .

وإذا أسأنا استخدام هذا القانون نتجت أخطر النتائج التربيوية (فالطفل المدلوع) طفل يحصل على ما يريد بالبكاء والصراخ .

٢) قانون التكرار : وهو على قسمين : الاستعمال والترك اما قانون الاستعمال فهو : « اذا أوجدنا صلة بين مؤثر ورد فعل ما وكانت هذه الصلة

قابلة للتكيف ازدادت قوة هذه الصلة اذا تمرنا عليها وكانت نتيجتها مرضية».

اما قانون الترك فهو : «اذا أهملنا الصلة القابلة للتكيف بين مؤثر ورد فعل ما مدة طويلة ضعفت قوتها» .

ويتصل بهذا القانون عاملان : (شدة المؤثر) و (حداثته) اللذان يقللان مدة التكرار اللازم .

هذا ومما تجدر الاشارة اليه هو أن قانوني التكرار والنتيجة يعملان معاً . فالامور التي ننجح فيها ترضينا فنكررها .

٣) قانون الاستعداد : «اذا كانت وحدة ايصال عصبية مستعدة للايصال فالايصال مرض لها ، اما اذا لم تكن مستعدة فالايصال مزعج لها ، واذا كانت مستعدة ولم نوصل فذلك مزعج لها» . والاستعداد للايصال متعلق بحالة الحجيرات العصبية التي تكون مستعدة احياناً واخرى غير مستعدة .

ولثورندايك خمسة قوانين ثانوية اخرى ليست مهمة .

٢٥ — يلاحظ المشتغل بالتعليم ان تقدم الطلاب في تعلمهم غير منتظم فهو يتغير من فرد الى آخر ، وذلك وفقاً لعوامل كثيرة كالرغبة اوعدمها، وكثرة الانتباه او قلته ، ونوع ما يتعلم ، وتوزيع ساعات التعلم ، والسن ، والتعب الخ ...

ولو اردنا اجمال النتائج التجريبية التي حصل عليها علماء التربية لكانت :

(١) يختلف الطلاب اختلافاً بيناً في سرعة تقدمهم في التعلم، وهذه الفروق نتيجة لاختلاف وراثتهم واستعداداتهم الطبيعية من جهة ، كما انها قد تكون ناتجة عن الفرق بين نشاطهم وهمتهم.

(٢) التقدم في التعلم ، عند الفرد نفسه ، غير منتظم .

(٣) لوحظ أن الخطل الصبيغة سببت خسارة كبيرة في التعلم، ولكن هذه الخسارة تعوض بسرعة.

(٤) سرعة التقدم في التعلم في الساعات الاولى اكثر منها في الساعات الاخيرة .

(٥) بعد التعلم بفترات لا يتقدم خلالها أو يتقدم تقدماً قليلاً وهذه الفترات تدعى بالنجد .

والنجد ملحوظ في كل انواع التعلم تقريباً وهو فترة من فترات التعلم لينقن

المتعلم خلالها الخطوات السابقة قبل انه يتعلم الخطوة الجديدة ، وللعمل تأثير كبير في حصوله .

٢٦ — **وللتقدم في التعلم حدود يقف عندها** ، والدليل على قولنا هذا هو انه لو لم توجد حدود لهذا التقدم لاستطاع كل انسان ان يتعلم ما يشاء ، حين يقيض له ذلك ؛ الامر الذي تتضافر الادلة على انكاره .

٢٧ — **وحسن التعلم يقتضي حسن توزيع ساعات العمل** : ولذلك وجب ان نوزع ساعات العمل هذه بشكل يضمن التمرين الكافي على الارتباطات العصبية الجديدة التي تكونت في الدرس السابق وقبل ان ننساها ، وهذا يقتضي كثرة التمرين بادىء الامر وجعل الفترات بين التمارين قصيرة في البدء ثم تتدرج في طولها . ويجب على المعلم ان يذكر بأن من واجبه ان يلجأ إلى الحصص القصيرة التي تتراوح بين ١٥ — ٣٠ — ٤٥ دقيقة بحسب سن الطلاب ونوع الدرس .

٢٨ — وقد دلت التجارب على ان **طريقة الحفظ بالكل دفعة واحدة خير من طريقة الحفظ بالتجزئة** لأسباب أهمها :

(١) السبب الاول والاهم هو ان الارتباطات في طريقة الحفظ بالكل تكون صحيحة وبترتيب طبيعي سيستعمله في المستقبل ، في حين ان هذه الارتباطات تكون خاطئة في طريقة الحفظ بالتجزئة . ففي طريقة التجزئة يرتبط آخر البيت الاول بأوله عوضاً عن ان يرتبط بأول البيت الثاني كما هو الحال في طريقة الحفظ بالكل وكما هو الحال في الواقع .

(٢) والسبب الثاني هو ان المتعلم بطريقة الكل يتمكن من فهم المعنى العام وادراك العلاقات بين اجزاء القطعة المطلوب حفظها .

(٣) المتعلم بطريقة الكل يضطر لحصر انتباهه اكثر من المتعلم بطريقة التجزئة الامر الذي يسبب سرعة التعلم ورسوخه .

والخلاصة فالتعلم بطريقة الكل يساعد على السرعة والرسوخ لمدة أطول .

٢٩ — إلى جانب هذه العوامل التي ذكرناها على انها تؤثر في سرعة التعلم وتقلل من الجهود الواجبة له ، توجد عوامل اخرى :

١) **السن** : فالشباب هو خير وقت للتعلم وذلك لان الجملة العصبية تكون مرنة والارتباطات العصبية التي تخلق تتاح لها فرصة الرسوخ اكثر . هذا ولا بد من ان ننبه الى حقيقة اكتشفها (ثورندايك) وهي ان **الخسارة في قابلية التعلم الناتجة عن التقدم في السن أقل بكثير مما هو شائع على السنة الناس** . وقد برهن علم النفس ان قابلية التعلم تزداد بسرعة اثناء البلوغ وتثبت بين الـ ٢٠ — ٢٥ ثم تبدأ بالهبوط التدريجي البطيء بمعدل نصف او ١ ٪ كل سنة حتى سن الكهولة .

٢) **الانتباه والحماس**: فالانتباه الشديد يسهل التعلم وكذلك الحماس .

٣) **الاحوال الفيزيولوجية** : فالجوع والعطش يعيقان التعلم وكذلك المرض وبعض المكيفات كالمورفين والكحول والنيكوتين ؛ أما الستركنين والكافيين فتزيده أول الامر ثم تسبب انحطاطه .

٤) **الميل والاستعداد** : فاذا صادفت الامور المطلوب تعلمها ميلاً في نفوس الطلاب واستعداداً لديهم لقبولها سهل تعلمها عليهم واقبلوا عليها فرحين .

٥) **الهمة المادة** : اهمية الامر المطلوب تعلمه في نظر المتعلم دافع قوي يدفعه الى هذا التعلم والاقبال عليه .

٦) **التوفيق** : نجاح الانسان في اداء عمل ما مدعاة له لاعادته والاقدام على امثاله.

٧) **الهيجان** : الهيجان يعيق المتعلم أما الهوى فيسرعه شريطة ان يتفق موضوع الهوى وموضوع العمل او التعلم .

٣٠ — وضع (هوبل) قواعد للتعلم تساعد على اتقانه والاسراع فيه وأهمها :

(١) احرص على ان تكون في حالة جسدية جيدة .
(٢) عالج نقائصك الجسدية التي تعيق عملك العقلي كضعف البصر وثقل السمع الخ ..
(٣) احرص على ان تكون الظروف المحيطة ، كالنور والحرارة الخ .. ملائمة للدرس .
(٤) اعتد الدرس في مكان خاص .
(٥) اعتد الدرس في وقت خاص .

(٦) حاول دائما ان تحضر الدرس الجديد بعد طلب المعلم مباشرة .
(٧) ابدأ عملك رأساً في الوقت المعين .
(٨) انتبه دائماً لعملك .
(٩) ادرس بنشاط .
(١٠) لا تجهد نفسك .
(١١) فكر حين تدرس بأنك تريد ان تحفظ ما تدرس وأن تذكره وتستخدمه فيما بعد .
(١٢) احرص على ان يكون لك دافع أو دوافع للعمل .
(١٣) ابعد عن نفسك الاعتقاد بأنك تشتغل من أجل المعلم .
(١٤) لا تطلب مساعدة الغير الا اذا كان لا بد منها .
(١٥) ليكن لك هدف معين .
(١٦) القى نظرة اجمالية على الدرس الجديد قبل أن تبدأ بتحضيره .
(١٧) استعمل اثناء درسك الاعمال التي ستحتاجها فيما بعد حين تطبق ما درسته .
(١٨) اعتن بالامور التي تعتقد أنك ضعيف فيها اكثر من عنايتك بغيرها وخصص لها وقتاً أطول .
(١٩) اتقن النقاط المهمة بالتمرين الكثير .
(٢٠) وزع وقتك الذي تخصصه لتعلم امر ما على اكثر من جلسة واحدة .
(٢١) حين تقف عن الدرس ليكن وقوفك في موقف طبيعي .
(٢٢) استرح بين عمل وآخر .
(٢٣) تعود الاعتماد على القواعد العامة في حل المشاكل الخاصة .
(٢٤) اعتد مراجعة كل فقرة في ذهنك بعد أن تخلص من درسها .
(٢٥) أثر على النقاط الهامة في البحث .
(٢٦) اذا كانت المادة المراد درسها طويلة ومعقدة فلخصها .
(٢٧) استخدم معلوماتك في أعمالك قدر الامكان .
(٢٨) استظهر بعض التعاريف والقوانين والدساتير الخ... بعد فهمها جيداً .
(٢٩) اذا أردت حفظ أمور لا رابطة طبيعية بينها فاخلق بينها رابطة اصطناعية .
(٣٠) احفظ القصائد والخطب بطريقة الكل لا بطريقة التجزئة .
(٣١) حين تريد أن تستظهر اقرأ بصوت عال وبسرعة .

٣١ — رأينا أن العوامل التي تساعد على التثبيت هي :

١) **التكرار** : فتكرار ما نتعلم يثبته ، اما اهماله فيسبب النسيان ، وليست عاداتنا إلا أمور تمرنا عليها كثيراً .

٢) **الشدة والوضوح** : وهي على صلة كبيرة بالانتباه فالمؤثر الشديد الواضح يستجلب الانتباه اكثر من الضعيف غير الواضح .

٣) **الحداثة** : فنحن نذكر الامور التي تعلمناها من مدة قصيرة ، حين تتساوى الاهمية ، اكثر من التي بعد العهد بيننا وبينها .

٤) **النتيجة** : فنحن نذكر الامور التي نجحنا فيها وننسى التي اخفقنا فيها . وهنا يجب ان نذكر ان الجهد واللذة يمشيان جنباً إلى جنب والرضى الحاصل من النجاح في أداء امر صعب هو اعظم انواع اللذة .

٣٢ — هذا ولنذكر ان الانسان لا ينسى ما يتعلمه بالمرة بل لا بد من بقاء آثار تسهل إعادة التعلم ، ولنذكر ايضاً ان النسيان يكون سريعاً في البدء ثم يبطىء إلى ان يقف ولذلك كان من واجب المعلم ان يمرن الاطفال على ما تعلموه مباشرة بعد التعلم وذلك لان قليلاً من التمرين بعد التعلم مباشرة أضمن بقائه . كما ان كمية ما تتذكر تتوقف الى حد بعيد على طريقة حفظنا فاذا حفظنا بنشاط وحماس كان نسياننا أقل بكثير مما لو حفظنا بملل وبرودة . والخسارة في العادات اليدوية أقل منها في العادات اللفظية ، اما الخسارة في الحساب فوسط بينهما .

٣٣ — كان المظنون الى وقت قريب ان العلاقة بين سرعة التعلم وثباته سلبية وقد برهنت التجارب والاختبارات التي أجريت على أن هذا غير صحيح . **فالعلاقة بين سرعة التعلم وثباته علاقة ايجابية** ؛ أي أن الانسان كلما تعلم بسرعة احتفظ بما تعلمه لمدة أطول وهو أمر طبيعي جداً فالمتعلم الذي له من الذكاء ما يمكنه من الحفظ بسرعة يستطيع بواسطة هذا الذكاء أن يحتفظ كثيراً بما تعلم .

٣٤ — يقول (واطسن Watson) : « **انا نتذكر الاشياء التي ربطناها باللغة حين مشاهدتها واختبارها** » ولذلك فهو يعزو عجزنا عن تذكر اختبار السنوات الثلاثة اوالاربعة الاولى من طفولتنا إلى جهلنا اللغة في ذلك الحين . ويظهر ان قوله على جانب كبير من الصحة رغم حاجته إلى بحث علمي دقيق يؤكده .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الفصل الثامن من الجزء الثاني

٢ — الجارم وأمين : الباب العاشر

٣ — عبد المسيح ورفاقها : الجزء الاول ، الفصل الرابع عشر

٤ — عطية الله ـ احمد : (ص ١٣٩ فما بعد)

٥ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث : الفصل السادس

٦ — نجار ـ فريد : الفصول ١٠ ، ١١ ، ١٢

الفصل السادس

تداعي الأفكار

تصميم البحث

آ — ماهيته وانواعه وقوانينه :

قدرة حادث نفسي حاضر في النفس على دعوة حادث نفسي ماض .

نوعا التداعي : ١ — تداعي الأفكار الحادثة معاً .

٢ — تداعي الافكار المتتالية .

قوانين التداعي الاساسية أربعة : التضاد ، التشابه ، الاقتران المكاني والاقتران الزماني

ويمكن ارجاعها جميعها الى الرابع .

قوانين التداعي الفرعية : التكرار ، والحداثة ، والشدة .

التداعي نوع من العادة .

ب — تداعي الافكار عند الطفل :

يظهر التداعي بالاقتران قبل غيره .

الادوار الثلاثة .

ج — تداعي الافكار والتربية .

آ — ماهيته وأنواعه وقوانينه

١ — تداعي الأفكار حالة من حالات الخطور، وخبرتنا البسيطة كافية للدلالة على ان افكارنا يرتبط بعضها ببعض ويدعو بعضها بعضاً . ونستطيع القول بأن التداعي حادث آلي يوجد بين حادثين نفسيين العلاقة التي طالمـــا لاحظناها في دراستنا ونعني بها : (م ـــــ ر) ، فالحادث الاول هو المؤثر والحادث الثاني هو رد الفعل عليه : أرى الظلمة فأذكر الشتاء ، وأذكر المحل الذي قابلت فيه الشخص الذي ابحث عن اسمه فأذكر هذا الاسم الخ ... وهكذا يكون تداعي الأفكار **هو قدرة حادث نفسي حاضر في النفس على دعوة حادث نفسي ماض .**

٢ — لتداعي الافكار نوعان :

١) **تداعي الافكار الحادثة معاً :** وذلك حين تجتمع حالات نفسية عديدة وتكون كلاً يجر خطور واحد من اجزائه خطور الاجزاء الباقية : فأنت حين تسمع كلمة تدرك معناها وتقوم في ذهنك صور ذات علاقة بالكلمة المسموعة .

٢) **تداعي الافكار المتتالية :** وذلك حين تستدعي حالة نفسية حالة اخرى مختلفة وهذه تستدعي ثالثة . وهكذا تتكون من هذه الحـالات سلسلة متصلة الحلقات وهذا النوع من التداعي هو الاكثر حدوثاً ، فكل حالة من حالاتنا النفسية قادرة على استدعاء حالة اخرى .

٣ — **قوانين التداعي** أربعة :

١) **قانون التضاد :** الأحوال النفسية المتضادة يدعو بعضها بعضاً فالطويل يذكر بالقصير والابيض بالاسود والعالي بالواطئ الخ ...

٢) **قانون المشابهة :** وكذلك الاحوال النفسية المتشابهة يدعو بعضها بعضاً فالزر يذكر بالقرش والكلب بالذئب الخ ...

٣) **قانون الاقتران في المكان :** فرؤية البيت تذكرني بالاشجـار التي كانت

قدامه ، ورؤية العقال تذكرني بالبدوي الخ ... وهكذا فوجود حالتين نفسيتين معاً في الشعور يولد بينها ارتباطاً قوياً .

٤) **قانون الاقتران في الزمان** : فبيت الشعر يذكر بالبيت الذي يليه ، ورؤيتي دمشق تذكرني بالحوادث التي وقعت لي اثناء زيارتي الاولى لها الخ ...

٤ — **ويمكن ارجاع هذه القوانين الاربعة الى القانون الرابع** اي (الاقتران في الزمان) .

١) فليس التضاد إلا حالة خاصة من التشابه وذلك لأنه لا يوجد تضاد حقيقي إلا اذا وجدت عناصر متشابهة تربط بين المتشابهين ؛ فالمرأة والرجل متضادان لان بينها عناصر مشتركة ، أما بين الرجل والطاولة فلا يمكن ان يكون تضاداً .

٢) والاقتران في المكان تابع للاقتران في الزمان وذلك لان شيئين لا يمكن ان يوجدا في مكان واحد معاً إلا إذا كانا في زمان واحد أيضاً .

٣) والتشابه يمكن ارجاعه إلى عناصر متماثلة وجدت في أشياء مختلفة في أوقات مختلفة ؛ اي أن كتاباً أحمر على طاولة صديقي يذكرني بكتاب احمر على طاولتي ، فاللون الاحمر (وهو العنصر المتماثل) كان **في وقت واحد** موجوداً في كتاب على طاولتي **وفي وقت ثان** موجوداً في كتاب على طاولة صديقي .

وهكذا يكون القانون الوحيد للتداعي هو قانون الاقتران في الزمان أو على الاصح قانون الاقتران في الخبرة .

٥ — وللتداعي قوانين فرعية تعلل سبب استدعاء هذه الفكرة او الحالة لتلك وليس لغيرها :

١) **قانون التكرار** : كلما تكرر اقتران امرين ازدادت امكانية استدعاء أحدهما للآخر .

٢) **قانون الحداثة** : امكانية خطور الخبرة الحديثة اكثر من امكانية خطور القديمة .

٣) **قانون الشدة :** كلما كان تأثير الحادث في النفس أقوى كانت إمكانية استدعائه أكثر ، وذلك حين تتساوى باقي الشروط .

٦ — **و التداعي نوع من العادة** في كل انواعه فأنا لم اذكر الاشجار التي كانت أمام البيت إلا لاني اعتدت رؤيتها معه وأنا لم اذكر أخي حين رأيت من يشبهه إلا لأني اعتدت رؤية هذه الملامح في وجه اخي وهكذا في كل الانواع .

٧ — تأثير التداعي مهم في كل حادث نفسي : فأثره عظيم في العقل والعاطفة والارادة ، وهو الذي يربط ذكرياتنا بهذه الاحساسات او تلك وهذه المدركات او سواها فيخلق حالات نفسية يزداد تعقدها وعلى هذا تكون **مهمة المربي هي بناء مجموعة من التداعيات في نفوس طلابه** ، فعادة التداعيات المنطقية الصحيحة تعني صحة التفكير ونبل العاطفة وقوة الارادة .

ب — تداعي الأفكار عند الطفل

٨ — يظهر التداعي بالاقتران عند الطفل قبل ظهور الانواع الأخرى ثم تكون التداعيات بالمشابهة أما التداعيات بالتضاد فلا تظهر إلا بعد اللغة .

٩ — اما فيما يتعلق بتربية التداعي في المدرسة فنميز ادواراً ثلاثة :

١) **يكون الطفل تداعيات آلية :** فهو لا يعرف اسباب التداعي ولكنه يعتاد قليلاً قليلاً جمع أفكاره في زمر يعرف سببها فيما بعد ويجب ، أثناء هذا الدور ، أن نكثر من ربط المبادئ والأسباب والأفكار والكلمات بعضها ببعض ، وبذلك يحصل الطفل على عادات فكرية صالحة ومبادئ أساسية تسهل عليه العمل في الادوار المقبلة .

١٠ ـ ٢) **يفهم الطفل التداعيات بالمشابهة ، وذلك وجب تعويده على تنظيم معارفه :** ولسنا نحسبنا بحاجة الى البرهنة على أهمية هذه النصيحة . فليست أهمية المعارف في كميتها بقدر ما هي في تداعياتها : فافكار قليلة منظمة اكثر قيمة من افكار كثير مشوشة مضطربة .

وقوة التداعي عند الطفل محدودة في هذا الدور ولذلك تجب مساعدته كلما لزم الامر وذلك لان كل تداع جديد ليس ذا قيمة بحد ذاته فحسب ولكنه نقطة اتصال للمعارف المستقبلة .

١١ — ٣) اعتياد الطفل التداعي ، وتكوّن هذه العادة العنصر الاساسي في تربيته الفكرية : ويحدث عمل التداعي هذا بحسب الرابط الطبيعي والمنطقي للأفكار والأعمال ونقصد به رابط المشابهة . اما الاقتران فقلما يحدث لأنه يتطلب جهداً نفسياً عظيماً . والتداعي بالمشابهة يسهل الادراك والتمثل ذلكما العنصران الضروريان للرقي .

٢ — تداعي الافكار والتربية

١٢ — ضرورة ربط الدروس بعضها ببعض : يجب ان نربط كل درس من الدروس بمعلومات الطفل السابقة وإلا أضعنا وقت الطلاب عبثاً ؛ ففي مطلع كل عام مدرسي يجب ان نعني بتعرف مقدرة الطلاب ومعارفهم السابقة لتربط المعلومات الجديدة بهذه المعارف السابقة ؛ كما ان مواد البرامج المدرسية يجب ان يكون بعضها متصلاً ببعض مكونة ، جميعها ، سلسلة مترابطة .

١٣ — أهمية التداعي في تكوين الاحكام والمحاكمات : صحة أحكام الطفل ودقة محاكماته تقتضي ضبط تداعياته . فالطفل ميال الى الاندفاع في احكامه والتسرع في محاكماته ، فاذا لم نعوده تصنيف افكاره في زمر وترتيبها ترتيباً منطقياً أخطأ في احكامه وتورط في محاكماته .

١٤ — تعليم الطفل ضبط نفسه : والانضباط هنا يعني تناسق النفس واتساق ملكاتها . يجب ان يعرف الطفل ان العقل والارادة يحتلان المكان الأسمى وان عليها ان يضبطا الحساسية والخيال فلا يسمحان إلا بالتداعيات الخيرة المفيدة .

١٥ — تجنيب الطفل التداعيات التي تفسد العقل وهدم مثل هذه

التداعيات اذا وجدت عنده : يقول جيمس ان عمل المربي الأهم هو القضاء على التداعيات الخاطئة والشريرة ، وهذه المهمة سهلة اثناء الطفولة ولكنها لا تلبث ان تصبح عسيرة شاقة . ويجب ان نذكر هنا ان درهم وقاية خير من قنطار علاج ولذلك يجب ان نجنب الطفل كل ما قد يوحي إليه بالشر ، ولنذكر ان القدوة والمثل الصالح هما خير طريقة لهذا التجنيب . وفي هدم التداعيات الخاطئة يجب ان نهدم اسباب هذه التداعيات واهم هذه الاسباب : الاهواء والخيال ورفاق السوء والقراءة فلنعن بمراقبتها وضبطها وتوجيهها .

١٦ — **وجوب تكرار التداعيات الجيدة :** تثبيت التداعيات الصالحة يتطلب تكرارها . نعم ان صلة التداعي قد يكفيها اقتران واحد للثبوت (اذا استرعى هذا الاقتران انتباهنا بشدة) ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية التكرار فان الافكار تتداعى بسرعة تزداد طرداً مع زيادة اقترانها معاً في النفس ، وبديهي ان نذكر بأن الارادة تتدخل ايضاً فتسهل التداعي بواسطة الانتباه الذي توجده .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثاني ، الفصل السابع

٢ — الجارم وأمين : الباب التاسع

٣ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث : الفصل السابع

٤ — عطية الله ـ احمد : (ص ١٣٣ فما بعد)

الفصل السابع

التخيل

تصميم البحث

آ — نوعا التخيل :

التمثيلي والمبدع .

ب — وظائف الخيال العامة :

١ — تمثيل المستقبل .

٢ — تمثيل المجهول .

٣ — تمثيل غير الحقيقي (الخيال بالمعنى المضبوط) — تأثير الرغبة المستحكم .

ج — قيمة الخيال العملية :

١ — مصدر عمل .

٢ — مصدر اخطاء .

٣ — قدرته العظيمة على الايلام والاسعاد :

١) مصدر آلام عديدة . ٢) ولا شيء يمنع من تحويله نحو الخير .

د — الخيال عند الطفل

هـ — تربية الخيال

و — ملحق :

١ — اللعب .

٢ — القصص .

أ – نوعا التخيل

١ – **التخيل هو القدرة على تمثل اشياء غائبة** : فأنا أتمثل الآن برج ايفل مثلاً كما اتمثل صديقاً غائباً او الصحراء الخ ...

يميز علم النفس الاتباعي بين شكلين من التخيل : التخيل التمثيلي والتخيل المبدع

٢ – **التخيل التمثيلي** هو الذي يحي الأشياء التي كانت ادركتها الحواس ويسمى ايضاً **بالذاكرة التخيلية** . وتختلف اشكاله باختلاف الحاسة التي تتوجه اليها الصور (صور بصرية ، سمعية ، شمية ، ذوقية الخ ...) . ومن النادر ان تظهر الصور في النفس دون ان تحور . وهذا النوع من التخيل يكاد يختلط بالتذكر ، والفرق ان التذكر لا يحدث الا اذا نسبنا الصورة التي نتأمل الى الماضي ولذلك فالذكرى أكثر تعقيداً من الصورة : انها الصورة مضاف اليها شيء آخر .

والتخيل التمثيلي انفعالي ، في حين ان علم النفس يفهم من (التخيل) « قدرة فاعلة وتأملية ، الى حد كبير اوصغير ، على التكييف والاختراع والخلق » . وهذا الوصف ينطبق على التخيل المبدع اكثر من انطباقه على التخيل التمثيلي .

٣ – **التخيل المبدع** : أما التخيل المبدع فيوجد صوراً وأفكاراً جديدة بواسطة تكييف الصور او الافكار القديمة ومزجها . يكيف الخيال المبدع تمثل الاشياء ويعرض عناصر الزمر المختلفة بشكل جديد فينقل هذه العناصر من محل الى آخر وقد يجسمها ويغير الاشكال والالوان . انه الشكل الاسمى من اشكال التخيل .

ونميز ، عادة ، بين **التخيل المبدع العفوي** وهو عبارة عن تداعيات وهمية غريبة لا تضبطها قاعدة وليس لها هدف ؛ **والتخيل المبدع التأملي** وهو يتطلب سبباً قوياً وارادة حازمة . اما **مادته** فذكريات مختلفة الانواع ، واما **صورته** فتكيفات في المادة .

ب – ويقوم الخيال بعمليات عدة لاكمال عمله :

يزيد او ينقص : فالآباء يرون ان كل اولادهم ميزات ، والمبغض يرى ان كل عدوه نقائص .

يصحح او يشوه : فالمثال يصلح موضوعه ، والمصور يجعل زهرته مثالية ، والكاذب يوشّي قصته .

يركب ويمزج : لان عمله الاساسي هو تقديم العناصر القديمة بترتيب جديد ، وعمل الموسيقي خير مثال على ذلك . وكذلك عمل الرسام والكاتب . وعملية التركيب هذه تسبقها عملية تحليل .

٥ — وليس لهذا التمييز بين نوعي التخيل كبير اهمية لأن الحادث العقلي في العمليتين واحد : إنه تمثل من طبيعة حسية يشبه الادراك كثيراً ولا يختلف عنه الا بالدرجة ؛ فتخيل السنتور (حيوان خيالي نصفه حصان ونصفه انسان) ، اذا كان الخيال قوياً ، هو رؤيته عقلياً لحد إمكان رسمه كما لو كان حقيقياً وموجوداً .

ب — وظائف الخيال الثلاثة

١) تمثل المستقبل :

٦ — هذه هي الوظيفة الاولى والاساسية للتخيل وهي **تعمل تحت تأثير بعض قوى :**

يوجد أولاً **الرغبة :** فحادث الرغبة نفسه يوجب ان نتخيل الامر المرغوب ، فاذا رغبت مثلاً في قدوم صديق أتمثل ، اثناء انتظاره ، قدومه وأوضاعه وحديثه . وعناصر هذا التمثل مستعارة من الذاكرة حتماً ولكن الدافع الحقيقي هو الرغبة وهي التي تجعلنا نرى عقلياً المشهد الذي سنراه فعلاً بعد وقت ما .

٧ — ويوجد ثانياً تأثير **الاختيار الارادي** ، فالاختيار معناه قسر النفس على ان تجرب ، ذهنياً ، كلاً من الامرين اللذين تتردد بينهما ؛ وما التجربة ذهنياً إلا القيام بجهد في سبيل تخيل جزء من حياة المستقبل .

٨ — وأخيراً تتوصل النفس بعد مدة طويلة إلى تأمل المستقبل دون ان تكون في ذلك واقعة تحت تأثير استعمال الرغبة او ضرورة الاختيار وذلك حين نتوصل الى أخذ **وضعية التأمل** فننظر إلى حياتنا نظرنا الى رواية مبتدئين بماضينا ثم ننتقل الى الامتداد المثالي لهذا الماضي اي مستقبلنا .

هذه هي إذن المؤثرات التي تدفع بنفسنا إلى تمثل المستقبل وهي تمثله **مستعينة بمواد موجودة هي الذكريات الصورية** أو بقايا الصور (اشلاء من الصور المشتتة) ولكنها لا تمثل إلا اذا دفعتها الرغبة .

٢) تمثل المجهول

الجهد في سبيل الرؤية العقلية للمستقبل قريب جداً من الجهد لتمثل ما رآه الغير ولم نره نحن اي ما هو مجهول عندنا .

٩ — وتتوصل النفس الى هذا التمثل على الشكل التالي :

اولاً تحت **تأثير الرواية** : فرواية حادث ما من قِبَل من شهده إلى من لم يشهده حادث اجتماعي مهم : **فالراوي يستخدم ذاكرته** ويتمرن على رؤية الماضي **والذي يسمع يستخدم خياله** فيحاول ان يرى عقلياً ما شاهده الأول بالفعل وتحت تأثير الكلام المروي يتوصل ، كلياً او جزئياً ؛ وبالاستعانة بخبرته ، الى ان يحقق في فكره مشهداً مماثلاً للمشهد الموصوف . وهذا ما يحدث حين نقرأ رواية او قصة او تاريخاً .

١٠ — **وتأثير الثقافة** عظيم جداً : إذ نرانا مساقين الى الجهد في سبيل تمثل كل ما قامت به الخبرة الانسانية . فالذين يثقفوننا يدفعون بنا الى ان نكوّن في أنفسنا رؤية للعالم ؛ والعالم ، فيما عدا الجزء البسيط الذي رأيناه بالفعل منه ، بالنسبة إلينا هو المجهول والطفل الذي يتلقى أبسط انواع التعليم مدفوع الى تخيل آلاف الاشياء . وتسهل **السينما** هذا العمل الآن ولكنها تكاد تقتله .

٣) **تمثل غير الحقيقي (الخيالي)**

١١ — ينمو هذا النوع من الخيال **ويظهر في الحوادث التالية :**

١) **في الحلم** : حيث نشهد العمل العفوي للخيال الخرافي ، وسواء أكانت الاحلام مشاهد مأخوذة من الواقع او كانت تمثل مشاهد من غير هذا العلم فانها في كل حال تقدم لنا مزيجاً خيالياً غير حقيقي وغالباً مستحيل .

٢) **في الكذب** : حيث تدفع المصلحة الاطفال مثلا الى نسج الامور الخيالية التي تفيدهم فيخبر الطفل أمه انه وقع وتألم لتعطيه قطعة من الحلوى اوليستثير حنانها .

٣) **في احلام اليقظة** Rêverie التي تقودها الرغبة بشكل غامض ؛ وليست الرغبة إلا محاولة الحياة حياة خيالية ، حياة كان يمكن ان تحقق لو ان بعض الظروف كانت على غير ما هي عليه الآن : وهذا هو حال احلام الطموح والمجد والغنى الخ ... وهذا النوع من الاحلام يصبح نوعاً من الكذب على النفس : إذ يتوصل الانسان الى التصور بأن الامور التي يمني بها النفس قد حدثت له فعلا .

٤) **في الفن** فالفن جهد في سبيل خلق ، بالاستعانة بالمواد المستعارة من الواقع ، عالم خيالي اكثر موافقة لرغباتنا اي اكثر تناسقاً وثباتاً .

وهناك وظيفة خيالية تنحصر في خلق شخصيات وخرافات وهي تلعب دوراً هاماً في الاديان القديمة .

تلك هي الطرق المختلفة التي يتوصل الانسان بواسطتها إلى تخيل المستقبل والبعيد وغير الحقيقي . **وفي كل الاحوال تكون الرغبة هي المنبع** وصاحبة التأثير الاهم .

حـ — اهمية الخيال في الحياة

تأثير الخيال على الحياة الواقعية اكثر مما نظن عادة ويمكننا ان نشير اليه باقتضاب بقولنا انه :

١) مصدر عمل . ٢) مصدر اخطاء . ٣) هام جداً في السعادة والشقاء .

١) انه مصدر عمل :

١٣ — تحركنا الامور الخيالية والاشخاص الخياليون كما تحركنا الامور الواقعية والاشخاص الواقعيون وهذه الحقيقة صحيحة اولاً ؛ في **الغايات التي نستهدف** والتي هي في الاعم الأغلب خيالية او متخيلة . واننا لنعلم جيداً ان الانسانية عاشت مدة طويلة في الفكرة الثابتة عن **الآلهة الخياليين** وعن الانتقامات الالهية الخيالية والمكافئات الخيالية .

وإنه لمن السهل بأن نرى ، بالاستعانة بحوادث بسيطة ، بأن الصور هي مصادر للعمل ؛ ولنتذكر انه في حالة **الدوار المسبب من العلو** تكون صورة السقوط هي التي تخلق خطر السقوط وفي بعض الاحيان السقوط الحقيقي . ولنذكر ايضاً أنه في حادثة **الايحاء** يتخيل الانسان وجود ثعبان مثلاً فيولي الادبار صارخاً مستغيثاً . ولنتذكر اخيراً انه في **الاغراء** يتخيل الانسان سروراً فيندفع الى العمل .

٢) وهو مصدر اخطاء .

١٤ — الواقع اننا **نؤمن غريزياً بوجود ما نتخيل** وهذا هو منشؤ اعتقادات الابتدائيين التي نستغربها . وكلنا نتخيل الامر الذي لا نعرفه حقيقة ، وفي اغلب الاحيان نتخيله بشكل خاطيء . فنحن مثلاً لا نعرف ماهية **التيار الكهربائي** فنميل إلى التخيل بأنه سائل يجري في الناقل جريان السوائل . والجمهور لا يعرف بالضبط حقيقة **الجراثيم** فيتخيلها حيوانات صغير ويبالغ بعضهم فيراها في كل مكان . وقل الامر نفسه عن كل ما نعجز عن ملاحظته مباشرة او بتعبير آخر عن كل الاشياء تقريباً .

ونحن ، بعد ذلك ، **نتخيل الامور التي لا يمكن تمثيلها بصورة كالله والجنة والجحيم ويوم القيامة .**

١٥ — **وحتى الاشياء التي نشمها ونلمسها يغيرها خيالنا** : فالذي يخيل اليه انه يعاني مرضاً خطيراً يشعر باحساسات تختلف عما لو كان يحسب انه متوعك المزاج قليلاً . والذي ينتظر ان يسمع لحناً او يرى منظراً يخيل اليه انه يسمع او يرى . الخ ...

٣) **قدرته العظيمة على الاسعاد والايلام** . وهنا يتجلى الدور الهام الذي يلعبه الخيال ذلك الدور الذي لم يفهمه الا امثال **ابيقور** في الماضي (وهو اساس فلسفته التي كثيراً ما اخطيء فهمها) **وبعض القائلين بالايحاء الذاتي** في الحاضر ويمكننا ان ندرس هذه القدرة فيما يلي :

١٦ — آ — الخيال **مصدر لآلام عديدة** فهناك اولاً **الآلام الخيالية** الكثيرة التي تسمم الحياة فهذا انسان يخيل اليه انه مريض وذاك يتصور انه مضطهد والثالث يحسب انه محتقر ، والرابع طموح ، والخامس حسود الخ ... ثم هناك **الالام الحقيقية نفسها التي يفرق الانسان في تخيلها سلفاً** فيتألم منها قبل ان يعانيها .

ب — وهذه القوة العظيمة في الشر **يمكن تحويلها للخير** ولذلك يجب التحكم الشديد فيها والتمرن على تخيل ما نريد فحسب ، وعلى ابعاد الخيالات الضارة والسماح للنافعة المقوية . فمثلاً يجب تخيل الشفاء والصحة عوضاً عن المرض والسقم ، وتخيل الفوز عوضاً عن الخسران ، وعلى التربية ان تفيد من هذه الحقائق النفسية الصحيحة النافعة .

د — الخيال عند الطفل

١٧ — يميز ريبو Ribot بين مراحل اربعة لتطور الخيال عند الطفل دون ان يشدد على ترتيبها :

١) **الانتقال من التخيل التمثيلي الى التخيل المبدع** : يبدأ الطفل فيتعلم

الادراك ، ويظهر التخيل المبدع حين يبدأ بخلط الوهم مع الاحساسات : فغصن الشجرة يصبح ثعباناً والضجة البعيدة تصبح موسيقى شيقة .

٢) **اضافة الحياة الى كل ما يحيط بالطفل** : فالطفل ينسب الحياة والشخصية لكل المخلوقات ومثال ذلك موقفه من لعبه ، انه يستخدم الايحاء الذاتي والوهم ليمنح المخلوقات الحياة والعقل . ولا ريب في انه يشك في هذه النسبة من وقت الى آخر ولكن دون ان يكون لهذا الشك كبير اهمية .

٣) **اللعب** : وهذه المرحلة تطابق السابقة . والطفل يقلد اول الامر : فهو جندي ثم بحار ثم قاطع طريق ثم شرطي ثم معلم الخ... وبعد ذلك يخلق اشياء شخصية : وهي تسترعي اهتمامه اكثر من الاولى لأنه يشعر بأنه (سبب) ، في حين ان اختراعات الآخرين لا تهمه بهذا المقدار .

٤) **الاختراع القصصي** : يخترع الطفل قصصاً وخرافات . ومحاولاته الاولى تقليد ولكنه لا يلبث ان يوفق الى اختراعات مدهشة . ويلاحظ ريبو ان هذا النوع من التخيل ليس شائعاً شيوع الانواع الاخرى فهو خاص بالموهوبين .

وحينئذ يصبح الخيال الشكل الاسمى للنمو العقلي وهو يعمل في اتجاهين اولهما رئيسي فيخلق ألعاباً ويخترع قصصاً ويوسع اللغة ؛ والثاني ثانوي يحتوي على بذرة الفكر والتفسير الخرافي للعالم .

٥ — تربية الخيال

١٨ — ينتج عن كل ما تقدم انه **من الخطأ العمل على اضعاف خيال الاطفال** فقوة كهذه يجب استخدامها في الخير وعدم القضاء عليها . ومن هنا نستنتج النتيجتين الهامتين العمليتين : **يجب ان يكون الخيال قوياً وطبيعاً** .

١) **وليس علينا ان نعني بخلق شيء ليكون الخيال قوياً** لأنه قوي جداً عند الاطفال ويكفي للدلالة على ذلك ملاحظة **ميلهم للقصص والخطابات والامور**

الخارقة للطبيعة فمصدرهذا ان خيالهم يجب ان يسيروراء الخرافات ثم لنلاحظ **العابهم** بصورة خاصة **والعاب التقليد** بصورة اخص . وما التقليد إلا نتاج الخيال . والامر الهام فيه هو الوهم فالطفل طيلة وقت لعبه يعيش في عالم خيالي عالم احلام هو خالقه فهو ، بنوع من السحر ، يقلب كل ما حوله الى ما يريد ، فهو ، بهذا المعنى ، **مؤلف و ممثل** .

١٩ — **اذن فليس المهم ان نخلق و لكنه المهم ان لا نهدم** ، وهنا كما في كثير من الحالات يجب اللجوء الى **التربية السلبية** فيجب ان **لا نخنق** كما يفعل كثيرمن الآباء هذه الهبة كما يجب ان **لا نسخر منها** أو نقسرها على الرزوح تحت عبء **واقعنا** يجب ان لا نقتل الشعر والوهم عند الطفل . **وتربية الحواس** هي التي تخدم الخيال اذ تقدم له المواد التي ينسج منها مخلوقاته .

٢٠ — ٢) **ولكي يبقى الخيال طيعاً** ، اي لكي يحتفظ الانسان بحريته بالنسبة إليه ، يجب الالتجاء الى **تربية الارادة** وضبط النفس ، فيكون الانسان متحكماً في خياله قادراً على تلافي تقاطضعفه واصطفاء خيالاته ، كل ذلك هو الشكل الاسمى لتربية الارادة والانتباه .

ولعله من ضرورات الحياة ان يتخيل الانسان غير الحقيقة العارية الأليمة ، ان يرى نفسه ويرى الآخرين من خلال وهم ما . **ولكنه الامر العسير هو ان يقف الانسان** المندفع في هذا الطريق الذي إما أن يقوده للتفاؤل أو التشاؤم في الوقت المناسب .

و — ملحق : ١) اللعب

٢١ — يميل الاطفال بفطرتهم الى اللعب ، فالطفل حركة مستمرة منذ اولى مراحل طفولته حتى آخرها : فهو دائب الحركة في مهده وهو كثير التنقل والقفز

والركض الخ... بعد ذلك . وهو في كل ذلك يعبر عن حيوية فياضة ونشاط كامن

والطفل في العابه يقلد حيناً ويبتكر آخر . وبواسطة الاثنين يعد نفسه للحـ المقبلة ومشكلاتها ، ولذلك فاللعب خير الوسائط لتربية الطفل تربية ذاتية شاملة النواحي : الجسدية والعقلية والعاطفية والعملية والاخلاقية .

٢٢ — على ان من واجب المربي ان يتداخل في لعب الطفل فيختار له الالعا المفيدة التي تتوفر فيها الشروط التربيوية :

١) فاللعب يجب ان تكون مناسبة للطفل من حيث سنه وجنسه وميوله .

٢) كما يجب ان تكون جذابة تسترعي انتباهه واهتمامه وتربي ذوقه .

٣) واخيراً يجب ان تكون رخيصة الثمن ، سهلة الاستعمال ، لكن فيها يشغل الطفل نفسه ويسترعي انتباهه وتفكيره .

والالعاب التربيوية اصبحت متوفرة في الاسواق كأجهزة منتسوري ول (المكانو) ولعب دكرولي وغيرها .

ملحق : ٢) القصص

٢٣ — يميل الطفل الى القصة بفطرته وهي وسيلة هامة من وسائل التر تغرس بواسطتها الخلق الفاضل في نفسه ونسوق عن طريقها الموعظة الحسنة نفسه ونسترعي بها انتباهه ونعلمه بواسطتها كثيراً من الحقائق . وقد أدر المشتغلون بالتربية من الاوروبيين أهمية القصة فعنوا بها عناية فائقة ووضعوا فيه الكتب الكثيرة وتفننوا في طرق السرد والتحلية بالصور والرسوم . وقد جعله (فروبل) ركناً هاماً من أركان التربية في روضته .

ولا بد لكل قصة ناجحة من أن تبدأ بداية شيقة تستثير اهتمام الطفل كما لا لها من عقدة يبلغ فيها الاهتمام غايته ، وأخيراً لا بد لها من خاتمة تسوق الغر المطلوب الى النفس وتترك فيها الاثر البالغ .

٢٤ — والقصة الجيدة حوادثها متسلسلة فيها وحدة ، وتدور حوادثها حو الاعمال والحركة وتكوّن في نفس سامعها صورة قوية ، ولذلك وجب ان تكو

بسيطة تصطبغ بشيء من الغرابة وتدور حول الامور الموضوعية التي يمكن ان تحس ، قوية توحي للطفل بالأفكار والمثل الاخلاقية ، ولذلك وجب ان تصطبغ بصبغة عاطفية .

وللنجاح في سرد القصة يجب ان تتشبع بروحها ونندمج فيها ونلقيها بلهجة فيها حياة وتعبير وفيها تلميح الى الغرض لا تصريح .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثاني ، الفصل التاسع

٢ — الجارم وأمين : الباب الحادي عشر

٣ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث : الفصل الثامن

٣ — عبد المسيح ورفاقها : الفصول ١١ ، ١٢ ، ١٣

٤ — عطية الله ـ احمد : (ص ١٢٠ فما بعد)

٦ — المصري ـ ايريس : الفصل الثالث عشر من الجزء الاول

الفصل الثامن

الانتباه

تصميم البحث

تركز الفاعلية النفسية حول شيء او فكرة .

آ — أشكاله المختلفة .

ب — درجاته :

عفوي ، ارادي ، الصلة بينهما .

ج — صفاته :

النفسية ، الفيزيولوجية ، الانتباه والتكييف .

د — أهميته .

هـ — تربية الانتباه :

و — ملحق :

١ — التشويق .

٢ — التعب .

الانتباه هو تمركز الفاعلية النفسية حول شيء او فكرة .

آ — اشكاله المختلفة

يمكن ان **يتجه الانتباه الى شيء خارجي او الى امر داخلي** اي الى فكرة .

١ — اذا كان موضوع الانتباه **خارجياً** فالانتباه يسمى **ملاحظة** اذا طال ، وتكون هذه الملاحظة (**منهجية** Méthodique) اذا كانت النفس في وضع علمي، وقد يمازجه الاعجاب .

٢ — اما اذا كان موضوع الانتباه **داخلياً** اي اذا كان فكرة فالانتباه (**تأمل**) فعالم النبات مثلا قد يلاحظ زهرة ثم يدخل الى مكتبه فيفكر في الفكرة التي كونها عن هذه الزهرة . وقد يطول الانتباه ويتخذ شكلاً منهجياً .

وإذا تمركز الانتباه المتجه الى الداخل **حول العمليات الذهنية نفسها** او حول الحوادث الذهنية لوصفها وتحليلها سمي (**تأمل باطنياً**) : مثال ذلك درس ميكانيكية التذكر

ب — درجاته

يميز علم النفس الاتباعي نوعين او درجين من الانتباه هما : الانتباه العفوي والانتباه الارادي .

٣ — **الانتباه العفوي** هو الموجود عند الحيوانات او عند الاطفال الصغار فقط وهو الشكل البسيط والابتدائي للانتباه ، انه انتباه **دون جهد** ، والذي يثيره امر او شيء يهمنا مباشرة اي امر موجود فينا كالخوف والرغبة واللذة والألم او

الاحساس الشديد فقط . شأن الجمهور في السينما والطفل يستمع الى قصة شائقة والمريض يسمع طبيباً يتحدث عن مرضه .

٤ — **أما الانتباه الارادى** فانتباه يحتاج الى جهد ، وهو في الدرجة الاولى **عمل توقف ومقاومة** . وينحصر في تجنب كل ما ليس هو الموضوع المركزي للانتباه ومثاله الانتباه الى ضجة خافتة كصوت الساعة ، ومعنى ذلك ايقاف كل حركة او نأمة قد ترتفع عن هذه الضجة وبصورة خاصة تعليق النَفَس فينتج عن هذا اننا نحسب ان صوت الساعة يرتفع .

و يظهر الانتباه الارادى عند الطفل بادىء الامر في الاعمال التى تدوم بعض الوقت : حينما يبني مثلا بواسطة المكعبات الخشبية ، اما حينما كان الطفل اصغر من ذلك فقد كان طيران الذباب مثلا يحوله عن غرضه وأما الآن فهو يقاوم هذه الملهيات فهو لهذا منتبه . ولعل **البحث عن شيء سقط هو العمل الانتباهي الاول** عند الطفل غالباً فهو انتباهي لان البحث عن شيء معناه الانصراف عما قد يجذب النظر من الاشياء الاخرى وإلا لم يمكن البحث .

ولعل من الخير ، في سبيل فهم الانتباه ، ان ننظر في عدم الانتباه الذي نملك منه حالة رائعة هي الحلم الذي ليس الا عدم مقاومة كل ما يخطر من اشياء واوضاع وتفاسير مستحيلة او غريبة فالحالم يقبل كل هذا . ولذلك كان **عدم الانتباه معناه عدم المقاومة** .

٥ — **ما هي ، اذن ، العلاقة بين هذين النوعين من الانتباه ؟**

١) بينهما **تضاد** حقيقي : ففي **احدهما** أشعر بأني انا الذي اوقف الفكرة : اي اشعر بأني **سبب** . أما في **الاخر** ، فعلى العكس ، اشعر بأني **متأثر** ، منفعل . فالوضع الذهني اذن مختلف كل الاختلاف .

٢) ومع ذلك فاننا **نمر منه الواحد الى الاخر دون ان نشعر** : فنحن مثلا

نلجأ الى الجهد الارادي لحل مسألة ما ولكنا لا نلبث ان نستغرق في هذا الحل ، والعكس صحيح فقد نبدأ بالانتباه العفوي ثم نلجأ الى الارادة للتمادي فيه بسبب التعب او الملل .

٣) فهذان الوضعان ، اذن ، **ينصلان بوسائط** رغم اختلافهما الكبير فهما اذن وضعان **من جنس واحد** .

٤) وليس **الانتباه الارادي الا تقليداً الانتباه الابتدائي او العفوي** . فالانسان الذي يعرف بالخبرة الحالة التي تستغرق فيها النفس بالانتباه الى امر واحد تجد واسطة لاعادتها (الحالة النفسية) اصطناعياً حتى في حال انعدام الاهتمام الواقعي الحاضر ؛ والعملية المستخدمة في الوصول الى هذا الحال واحدة في كل الاحيان وهي تنحصر في **رؤية امر مرغوب فيه من خلال الامر الذي لا يهمنا** . ففي التربية مثلا نجعل الطفل ينتبه الى دراسة لا تهمه بحد ذاتها في الوقت الحاضر بأن نقدم له جائزة او صورة ثم يتوصل الطفل رويداً رويداً الى تركيز انتباهه حول اي امر كان بأن يعمل كما لو ان الامر نفسه يهمه او بتعبير آخر بأن يتجنب كل ما عداه من الامور .

وهكذا نجد في الانتباه الارادي **حالة واضحة من حالات تقليد النفس** : وضع أثاره في البدء مثير خارجي ثم اتخذته النفس وأعادته بواسطة الارادة .

وهذه العملية كثيرة الوقوع في الحياة النفسية : فكثير من حركاتنا الارادية هي عبارة عن اعادة مقصودة اول الامر نتيجة فعل انعكاسي ثم يعيد صراخه ارادياً وهذا الصراخ يصبح في المستقبل ما يسمى لغة . وقل الامر نفسه عن ابتسام الرضيع الذي يكون فعلاً انعكاسياً ثم ارادياً وهكذا يكون الارادي في اغلب الأحيان تقليداً للعفوي .

ح — صفات الانتباه

٦ — الانتباه وضع ذهني يجب وصفه بسيكولوجياً وفيزيولوجياً .

اما **الصفات السيكولوجية** فهي : **وحدة الفكرة** . فعوضاً عن الكثرة المضطربة لا نجد الا أمراً واحداً نعزله عن الباقي وهذا ما يسميه ريبو بوحدة الفكرة — ثم **ثبات الفكرة** فلا يوجد انتباه الا اذا أوقفت الحركة الطبيعية للافكار وثُبتت واحدة منها مدة تطول او تقصر — واخيراً في حالة الانتباه الارادي **فعالية الفكرة** فنحن نشعر بأننا نجهد ونصرف قوة .

ولقد لوحظت **الصفات الفيزيولوجية** منذ زمن بعيد وهي : **اندفاع الدم الى الدماغ ، وتباطؤ التنفس ، وميل عام الى عدم الحركة** فسرعة الحركة لا تتفق مع الانتباه .

وهذه الحوادث العضوية عناصر كثيرة الاهمية في هذا المجموع الذي يسمى الحالة الانتباهية **ويذهب ريبو الى انها كل شيء** وليس الانتباه الا انعكاساً لهذا الوضع العضوي في الشعور ، والانتباه ليس إلا الاحساس بتعليق الانتباه وتباطؤ الحركة وانعقاد ما بين الحاجبين الخ ... وبتعبير آخر يمكننا القول **بوجود نظرية محيطية** في الانتباه مناظرة للنظرية المحيطية في الهيجان ، فيها ما في الاولى من خطأ وصواب (وسنبحث فيها عند الكلام عن الهيجان) .

٧ — ما هو الانتباه بالضبط اذن ؟ يكاد يكون من المحقق انه **الشكل الذهني لوظيفة التكيف العضوية العظمى** واذا كان الهيجان اضطراب هذه الوظيفة ، فالانتباه ، على العكس ، هو عمل التكيف نفسه مع الوضع الحاضر . فحينما يحدث حادث لم نعتده يجب في بعض الاحيان ان نجد ردالفعل الضروري (الحركة المنقذة ، او الفكرة الصائبة) والا هلكنا ونحن غير مستطيعين ذلك الا اذا وجهنا كل قوانا

نحو هذا الحادث ، وليس مهما ، حينئذ ، ان يكون هذا التوجيه عفوياً أو غريزياً او ارادياً بواسطة انتخاب ومقاومة حرة فالعمل في الحالين واحد اذ تتوجه النفس كلها نحو هذا المأزق للتخلص منه .

٤ — أهمية الانتباه

أهمية الانتباه عظيمة سواء في الحياة العقلية او الحياة الاخلاقية .

٨ — **انه قطب الرحى في الحياة العقلية** فالقوة العقلية منشؤها الانتباه ، وهو الذي يميز بين النفوس والعقول ، فليست العمليات العقلية العالية كالتجريد والمحاكمة والحكم مستحيلة بدون الانتباه فحسب ، ولكن أبسط الامور النفسية بحاجة اليه : فالضبط في الحكم يحتاج وضوح الرؤية وهذا يحتاج اتقان تركيز الانتباه ، فليست الافكار واضحة بحد ذاتها بل يجب توضيحها ، الامر المستحيل بدون انتباه .

٩ — **وهو هام جداً في الحياة الاخلاقية** فالتحكم في الانتباه وضبطه ، اي عدم الوقوع فريسة للصور والاحلام المؤلمة او الخطرة ومعرفة اقصاء بعض الافكار في كل حين ، كل هذا قد يكون سر السعادة . والانتباه المتمركز حول فكرة واحدة او امر واحد موجود في اساس اغلب الجرائم .

والخلاصة فأن أهمية الانتباه هي أهمية الارادة نفسها فلسنا اذن بحاجة للاطالة لاننا سنتحدث عن الارادة طويلاً فيما بعد .

٥ — تربية الانتباه

١٠ — ينتج عن هذا ان تربية هذه القوة هامة جداً وان هذه التربية يجب ان تستهدف هدفين هما **تقوية الانتباه وتحريره** ؛ ويختلف هذان الهدفان عن بعضهما لان الطفل قد يستطيع الانتباه الشديد الى دروس يحبها ويعجز مع ذلك عن توجيه انتباهه وارادته . والوضع الاول كثير الفائدة لان الطفل لا يستطيع التقدم بدونه ولكن الوضع الثاني اهم لانه نوع من ضبط النفس والتحكم بها .

إذن فالتربية يجب ان تبذل قصارى الجهد في خلق الانتباه الحر والتحكم فيه وهي تستخدم في هذا السبيل طرائق مختلطة تربي الانتباه في الوقت الذي تربي فيه القوى الاخرى كما انها تستخدم ويجب ان تستخدم بصورة خاصة عمليات منظمة تستهدف الانتباه وحده .

١) **الطرائق المختلطة :**

١١ — كل التمارين المدرسية تقريباً تهم الانتباه وتستثيره . ويمكن ان نشير من بين التي تتجه اليه بصورة خاصة الى :

الحساب وبصورة خاصة الحساب الذهني وهو رياضة للانتباه ممتازة ، فبالانتباه وحدة يمكن تجنب اخطاء الحساب وهذا صحيح الى درجة انه يلجأ الى هذه الطريقة في قياس الانتباه فينظر في عدد عمليات الجمع الصحيحة التي يمكن ان يجريها الممتحن في وقت معين .

والرسم اذا اجيد تعليمه مدرسة رائعة للانتباه لانه ينحصر عند الطفل في اتقان النظر اي تركيز الانتباة حول المرسوم . وهذا سبب من الاسباب التي تدعونا الى زيادة العناية بالرسم .

دروس الاشياء وهي كثيرة الفائدة في تربية الانتباه للاسباب نفسها .

الترجمة عن اللغات الاجنبية التي تحتاج للنجاح فيها الى اشياء كثيرة في جملتها انتباه شديد .

الانشاء اذا نظر اليه على انه وصف مضبوط (لا عمل تخيل او تأنق) لشيء حقيقي ...

٢) **الطرائق الخاصة :** وهي الطرائق التي تمرن الانتباه من أجل الانتباه نفسه والتي لا تستهدف الان والتي هي بالتالي كثيرة الاهمية وهاك بعضها :

بعض الالعاب كالنيشان والالغاز وغيرها .

بعض تمارين ضبط النفس والتروي الذهني : كتعويد الطفل على التخلص من سرح الذهن اثناء العمل ، والانفلات من كل فكرة غير مرغوب فيها . وهنا نلاحظ تمازج تربية الانتباه مع تربية الارادة .

١٢ — **تمارين عدم الحركة** : هامة جداً وهي تنحصر في التوصل الى ابقاء الجسم في الراحة المطلقة خلال دقيقتين ثم ثلاثة ثم خمسة الخ ... فلا تفلت عضلة واحدة من هذا الضبط والتحكم في النفس . وهذه طريقة منهجية من طرق ضبط النفس . يضاف اليها طبعاً **لعبة السكوت** التي اقترحتها (منتسوري) والتي تحدثنا عنها حين تحدثنا عن تربية الحواس .

بعض السؤالات التي تحتاج انتباهاً شديداً ، ولسنا نقصد بهذا النوع من السؤالات السؤالات السقراطية التي تبحث عن الحقيقة برمتها ولكن نقصد الاسئلة التي تحتاج لضبط محض وتقصد التوصل الى معلومات يعرفها الطلاب جيداً انما تحتاج في الاجابة عليها الى رد فعل سريع وهذه السرعة متوقفة على الانتباه . وفي هذه الاسئلة يجب ان تراعى شروط السؤال الجيد .

وأخيراً يجب **الاستعانة بعلم النفس التجريبي** كالبحث عن حرف (ت) مثلا في صفحة او اكثر ووضع خط تحته ، او تصحيح اخطاء في قطعة قراءة ، او نقل مقطع من لغة مجهولة (بصورة يستخدم معها الانتباه وحده ويستغنى عن الذاكرة والمحاكمة) . وهذه الوسائط واشباهها تساعد في تربية الانتباه كما تساعد على قياسه.

١٣ — ولنذكر ان **الانتباه الارادي يتطلب وحدة الاهتمام ودوامه** ، ولا يمكن دوام الانتباه الا اذا لجأ المعلم الى تنويع العمل فيتفادى الملل وما يستدعيه من تشتيت للانتباه كما يجب ان نذكر ان واجبنا ان **لا نعرض على الطفل الا اقل ما يمكن من الافكار دفعة واحدة** وإلا توزعت قوى الطفل وتعب دونما فائدة .

هذا ويجب ان لا يغرب عن بالنا **اننا لا نستطيع اكثر من مساعدة الطفل**

وإثارته لتربية انتباهه ، أما الجهد فعليه هو نفسه ان يقوم به .

و — ملحق : ١) التشويق

١٤ — هو اهاجة شعور الطفل واثارة عوامل اللذة فيه كيما ينتبه الى امر من الامور ويهتم به .

وهو على قسمين **طبيعي وصناعي** ، فالامور التي تتفق وميول الطالب وغرائزه تسترعي انتباهه وتشوقه بطبيعتها . اما التي لا تتفق وهذه الميول فانها لا تسترعي انتباهه بذواتها ولا تهيج شعوره بطبيعتها ولا بد لنا اذا اردنا ان نشوقه من اللجوء الى الامور الاولى وربطها بها .

والمشوقات الطبيعية هي الاشياء المحسوسة الحية ؛ المتحركة ، والالوان الزاهية والاصوات الغريبة العالية ، والاعمال العنيفة والاوصاف الممتعة المليئة بالمخاطر ، ولذلك كانت وسائل الايضاح من صور ورسوم واشياء وحيوانات الخ .... مشوقات مهمة .

ويكون التشويق الصناعي بأن نربط بين ما نريده للطفل بما يهتم به الطفل بطبيعته وميله ، وبتعبير آخر تجلى مهارة المربي في الوصل بين حاضر الطفل ومستقبله ، بين اهتمامه الحاضر المباشر وبين ما سينفعه في المستقبل . ومن المعلوم انه كلما كان الطفل أصغر سناً زاد اهتمامه بحاضره فزادت ، تبعاً لذلك ، حاجته للتشويق .

١٥ — ولقد كان المهتمون بالتربية قديماً يحسبون ان الجهد والاهتمام متعاكسان لا يمشيان جنباً الى جنب ، ولكننا نلاحظ ان الطفل حينما يهتم بأمر او عمل مدرسي ، بسبب جاذبيته ، يجهد فيه دون ان يتعب او يمل ، واهتمام الطفل سبب هام جداً من اسباب انتباهه ؛ فكلما كان العمل جذاباً زاد اهتمام الطفل به وجهده في سبيله وقل تعبه منه ؛ أما في حالة العكس فسرعان ما ينصرف الطفل عن العمل ويقل انتباهه له واهتمامه به ، وهذا يبرهن بصورة قاطعة على ان **الجهد والاهتمام**

يمشيان جنباً الى جنب . ولعل سر نجاح المعلم هو ان يجد في الاعمال غير الجذابة للطفل ما يمكن ان يثير اهتمامه ويدعوه الى العمل والجهد . ولنذكر ان الطفل يهتم حين يرى ان في هذا العمل امراً ذا قيمة بالنسبة اليه .

١٦ — والشوق يسبب **سهولة العمل** ، فالمشوق يستسهل العمل ولو كان صعباً ويمضي فيه قدماً مهما قام في وجهه من المصاعب كما انه يسبب **اتقان العمل** فالمشوق يقبل على عمله بكليته وينتبه اليه انتباهاً عظيما فيتقنه .

وهو يسبب **استمرار الطفل في العمل** ما دام الرغبة تحفزه والعمل يلذ له .

وهو يسبب **افادة الطفل من العمل** واحتفاظه به الى وقت اطول وبشكل اضبط .

وهو يساعد على **حسن ضبط الصف** وسيادة النظام فيه لان الطفل المشوق ينصرف الى عمله ولا يفكر في الاخلال بالنظام .

١٧ — ولنذكر ان **المشوّق واسطة لا غاية** ولذلك كان من واجب المربي ان يحول دون حلوله محل الغاية الاصلية ، وانصراف اذهان الطلاب اليه عن الغرض الاصلي .

ولنذكر ايضاً ان المشوّق لكي يكون مؤثراً **يجب ان يكون نداؤه مباشراً** اي يجب ان يتجه الى ميل فطري واهتمام غريزي او قل يجب ان يكون ذا صلة مباشرة باهتمام الطفل الحاضر ؛ فالطفل قلما يفكر في غده ولكنه يعيش في حاضره وفي عالم الاشياء المحسوسة فليحذر المعلم عالم المثل والافكار والقوانين .

ولنذكر ثالثاً ان المشوّق **يجب ان يناسب مع السن** فالمشوّقات التي تغري ابن الثالثة لا تغري ابن السادسة مثلاً .

ولنذكر رابعاً ان المشوّق **يجب ان يكون ايجابياً** ، فالذي يعمل تحت تأثير الخوف يكون اقل ثقة بنفسه واقل حيوية من الذي يعمل بتأثير الشوق والرغبة ، والطفل المشوّق سلبياً (بالعقاب) يميل الى ربط القصاص لا بكسله او تهاونه بل

بالدرس ونتيجة ذلك كرهه للدرس حتما .

ولذلك كان من **واجب المربي ان يلجأ الى المشوق السلبي نادراً** وحين لا يجد بداً من ذلك فلا يعاقب الا حين الضرورة القصوى .

ولنذكر اخيراً ان **المشوق المبني على التنافس خطر جداً** ، فقد يسبب الشحناء والبغضاء بين الطلاب ولذلك يجب ان نتجنب المشوقات التي تزيد في كبرياء واحد وتهين الآخرين .

ملحق : ٢) التعب

١٨ — كثيراً ما يلتبس التعب بالملل الناتج عن كون العمل رتيباً ، **اما التعب فهو تناقص المقدرة على العمل ، واما الملل فهو تناقص الرغبة في العمل .** ويظهر الملل قبل التعب ويتزايد بسرعة اكثر منه . وسيقتصر حديثا هنا على التعب بقطع النظر عن الملل .

١٩ — العمل العضلي يتعب العضلات ، والخبرة البسيطة كافية للبرهنة على ذلك . والاركوكراف هو مقياس التعب العضلي والعضلات تتعب بسرعة .

اما الاعصاب فقد رأينا ان إتعابها أمر عسير لانها تستعيد قوتها بسرعة .

والافعال المنعكسة تتعب ايضاً وليس تعبها ناشئاً عن تعب العضلات ولا تعب الأعصاب ، والأرجح ان مركز تعبها موجود داخل النخاع الشوكي ، وهي تستعيد قوتها بسرعة .

٢٠ — اسباب التعب ثلاثة :

١) **نفاد المركبات التي تولد القوة في الجسم** : وهي مركبات كيماوية موجودة في العضلات بصورة خاصة كما انها موجودة في الخلايا العصبية وهي تنحل بسهولة فمرور التيار العصبي في الخلايا العصبية يستهلك هذه المركبات وكذلك عمل العضلات يستنفد هذه المركبات ، ولا بد للعضلة او الحجيرة التعبة من ان تستريح

تستعيد قوتها اما العضلة فتحتاج الى وقت طويل واما الخلية العصبية فيكفيها وقت قصير جداً .

٢) **وجود الفضلات السامة** : كحامض اللبن وحامض كبريتات البوتاسيوم الخ ... وهي موجودة في دم التعب ، وحقن المستريح بها يسبب تعبه ، ومصدر هذه الفضلات السامة تعب العضلات والخلايا العصبية وغيرها .

٣) **قلة مولد الحموضة** : لا تستطيع المركبات التي تولد القوة في الجسم ان تتحل الا بمساعدة مولد الحموضة الذي تحمله كريات الدم الحمراء ولذلك فنقص مولد الحموضة يولد التعب . ولذلك نرى ان التعب يتنفس بسرعة ويتسارع نبضه .

٢١ — **نعالج الطبيعة التعب بالنوم** الذي يتمكن الجسم اثناءه من اعادة تكوين المركبات المولدة للقوة كما يتخلص من الفضلات السامة **والاطعمة التي تحتوي على مقدار كبير من السكر** تساعد في سرعة التخلص من التعب وكذلك **بعض المنبهات** كالقهوة والشاي . وكثيراً مايكفي تغيير العمل للتخلص من التعب .

هذا ومن الثابت ان الذين يخامرهم قليلا يستطيعون العمل اكثر من غيرهم .

٢٢ — **التعب الجسمي والتعب العقلي مترابطان** الى حد بعيد جداً ، فالاول يسبب الثاني حتماً بما يسببه من الفضلات السامة والثاني اذا طال يسبب الاول ايضاً .

٢٣ — دلت الابحاث والتجارب التي أجراها (ثورندايك) وغيره من علماء اميركا على ان الانسان يستطيع ، حين يشاء وحين يجد الحافز لذلك ، ان يعمل تحت تأثير الحرارة الشديدة والرطوبة الزائدة كما يعمل تحت احسن العوامل وفي أنسب الشروط ؛ وليس يعني هذا ، طبعاً ، اهمال الشروط الصحية الجيدة والظروف المحيطية اللازمة ، ولكنه يعني وجوب الاهتمام باستثارة ميول الطلاب ورغباتهم وتشويقهم الى العمل .

هذا وان تعب الطلاب في المدرسة هو بالدرجة الاولى عن ملل او كسل ،

وقد دلت التجارب على ان النقص في قوة الانسان ونشاطه ، من الصباح الى المسا
يتراوح بين ١ و٥ ٪ فقط . كما دلت الاختبارات على ان في مكنة الطلاب
يعملوا في نهاية عملهم المدرسي كما يعملون في أوله اذا أحسن تشويقهم واستثا
ميولهم ؛ ولهذا كله كان الزعم بأن درس الحساب أصعب من باقي الدروس وان
الواجب تخصيص ساعات النهار الاولى له وان غيره من الدروس سهل ويجب تخصيه
الساعات الاخيره له زعم لا يستند الى حقائق بسيكولوجية وذلك لان علم النف
لا يعرف درجة صعوبة الدروس بالنسبة الى بعضها البعض . والارجح ان طر
التدريس تؤثر الى حد بعيد في درجة الصعوبة اكثر من المادة .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثاني ، الفصلان الخامس والعاشر .
٢ — الجارم وأمين : الباب الخامس والسادس
٣ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث ، الفصل التاسع
٤ — عطية الله ـ احمد : ص ٩١ فما بعد
٥ — المصري ـ ايريس : الفصل الحادي عشر
٦ — نجار ـ فريد : الفصل الثالث عشر

الفصل التاسع

اللغة

تصميم البحث

آ — طبيعة اللغة :

١ — الاشارات .

٢ = اللغة : الشروط التي تكون الاشارات فيها لغة .

ب — لغة الكلام :

المادة الصوتية للغات :

١ = التغيرات التي تطرأ على اللغة .

٢ = القيمة التعبيرية للكلام .

م — علاقات اللغة والفكر :

١ = تعتبر اللغة واسطة اتصال بين الناس .

٢ = تساعد اللغة الفكر الداخلي : آ) عدم امكان فصل الفكر عن اللغة .

ب) ايضاح الافكار باللغة .

ج) الضلالات التي تخلقها اللغة .

د — تطور اللغة عند الطفل :

١ = نقطة البدء : الصراخ والاصوات الجيدة اللفظ [الواضحة] .

٢ = ظهور الكلمات الاولى : التقليد .

٣ = المراحل التالية المتلاحقة .

ه — بسيكولوجيا اللغة .

تجري العمليات العقلية كلها بمساعدة اللغة ولذلك كان من المتعذر ان ندرس هذه العمليات ونهمل اللغة .

أ — طبيعة اللغة

اللغة مجموعة اشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور اي عن أمور الانسان الارادية والعاطفية والفكرية . ولذلك كان من المفيد للحصول على فكر واضحة ان ندرس : ١ً — الاشارات ؛ ٢ً — ومن بين الاشارات اللغة ؛ ٣ً — وفي عداد اللغات الكلام الذي هو أهم لغة بالنسبة للبشرية .

أ — الاشارات

١ — الاشارة حادث ظاهر (مُدْرَك) يدل على وجود حادث خاف

ففي الدخان الذي أرى إشارة للنار التي لا أرى ، وفي الحمرة التي ألاحظ إشارة للهيجان الذي لا أرى ، والجملة التي اسمع إشارة الفكرة او الارادة التي لا تدركها حواسي

٢ — والآلية البسيكولوجية للاشارة بسيطة جداً فالاشارة تظهر الامر المعين على طريقتين : فهي من جهة **توقظ ردود فعل حركية** : فهذا الشيء اشارة لذاك الشيء الآخر حينما يسبب ردود الفعل نفسها : فالحصان يرفع قائمتيه الاماميتين حين يُرفع عليه السوط رفعه اياها حين يتلقى ضربة السوط — **وهي توقظ افكارنا عن** من جهة اخرى ؛ ونحن واجدون هنا طبعاً تداعي الافكار (التداعي بالاقتران طبعاً) فالدخان ينبيء عن النار لاقترانها .

هذا ويجب ان نضيف انه لا يكفي لفهم الاشارة ان تجعلنا نفكر بالشيء المعين بل يجب ، بالاضافة الى ذلك ، ان تدل على الوجود الواقعي للشيء المعني . فالدخان إشارة النار لا لأنه يوقظ فكرة النار فحسب بل لأنه الى ذلك يثبت وجود النار ويدل عليه . اذن هناك **بالاضافة الى التداعي محاكمة سريعة جداً من النو**

الاستنتاجي يمكننا ان نعبر عنها بما يلي : لا دخان بلا نار وبما اني ارى دخاناً فالنار موجودة إذن .

٣ — هذا ويجب ان نلاحظ بأن **تفسير الاشارات عمل هام من أعمال العقل البشري تزيد أهميته على أهمية اللغة نفسها ، فالحياة العقلية كلها قراءة للاشارات** ، إذ ما هو الإدراك ؟ أليس تفسيراً للاحساس على أنه إشارة لشيء خارجي ؟.. وماهي الذكرى ؟ أليست تفسيراً لصورة على أنها إشارة لحادث مضى ؟.. وما هي المعرفة العلمية نفسها ؟ إنها تفسير للحوادث الظاهرة على انها إشارات لاخرى خفية . وقل مثل هذا عن عمل الطبيب وعالم الطبيعة وعالم الهندسة وغيرهم .

ولنذكر ، بعد ذلك ، أن الخطأ إنما يحصل في تفسير الاشارة . والخلاصة فان شرط البشرية المعرفة بالاشارات ، والله وحده هو الذي يعرف الاشياء بحد ذاتها أما نحن فلا نستطيع إلا حزرها .

٢ — اللغة

عناصر اللغة هي الاشارات فما هي **خصائص هذه الاشارات** ؟

٤ — **اولاً : لكي تكون هناك لغة يجب أن يكون الشيء المعني حالة شعورية** : هيجان ، فكرة ، وبصورة خاصة إرادة . فليس الدخان لغة لانه إشارة للنار ولكنه يصبح لغة إذا أوجدناه لنجعل منه علامة فهو يصبح حينئذ دليل إرادة وبالتالي لغة حقيقية .

٥ — **ثانياً : يجب ان تحصل الاشارة عن قصد وتصميم** ؛ فصراخ الطفل الرضيع مثلاً حين لا يكون إلا رد فعل سببه الجوع ليس لغة . ولكن هذه الصرخة نفسها تصبح لغة يوم يعيدها الطفل ليدعو أمه اي حين يأمر أمه بالحضور .

ولنلاحظ هنا اننا لا نعني بكلمة (عن قصد) (اصطناعياً) ، فاللغة غالباً إشارة طبيعية حصل عليها الانسان بارادته وأعادها ليعبر عن فكره . وهذا ما يحدث

بالضبط لصراخ الطفل . وقل الامر نفسه عن ابتسامة الطفل وبكائه ، فقد كان في البدء فعلاً منعكساً بسيطاً ثم أصبح لغة .

وينتج عن هذا أن **اللغة لايمكن ان تكون الا من اشارات يستطيع الانسان اصدارها بارادته** (متى اراد) وهكذا **تكون اللغة ، عملياً ، من حركات وأصوات فقط .**

واللغات المكونة من حركات او اللغات البصرية **على أنواع ثلاثة :** **لغة الاشارات ، لغة الحركات الناتجة عن الاشياء المادية** كلغة السيافور، وأخيراً **الكتابة** وهي الأهم .

أما اللغات المكونة من اصوات او اللغات السمعية فتحتوي على إشارات نحصل عليها بقرع الطبل اوطنين الجرس اوالنفخ في الصفارة ، ولكن **اهمها الكلام** الذي سندرسه بصورة خاصة .

وهكذا تكون اللغة إرادية بالتعريف . ولكن ما القصد الكائن وراءها ؟ وما هي فائدتها ؟

٦ — **فائدتها** ، في الاصل ، **الاثارة للعمل** ؛ فالطفل يتكلم ليستقدم امه او ليحصل على ما يريد . والابتدائيون قد استعملوا لغتهم الاولى ، كائنة ما كانت ، ليستنجدوا او يدلوا على اقتراب العدو او القنيصة . واليوم ايضاً نتكلم لنحصل على اعمال: فنحن طوال يومنا نستعمل كلمات كالتالية : اقترب ، قف، ادخل،اجلس..

٧ — ولم تتغير النية **وتصبح رغبته في اثارة فكرة عند السامع** او القارئ او المشاهد الا بعد ذلك بزمن طويل . **وحتى في هذا الحال** ، لو دققنا في الامر لوجدنا **اننا نحاول الاثارة الى نوع من العمل** . فنحن حتى حين يخيل الينا اننا نعبر عن افكار محضة يذهب جهدنا الى مدى أبعد : نبتغي ان نحدث عند الشخص

الآخر حالة ذهنية تشبه حالتنا فالذي يهمنا هو ان نقوده الى اعتبار الاشياء اعتبارنا لها وان يتخذ وجهة نظرنا . اذن فالمهم في الاساس هو العمل .

٣ً — الكلام

يستحق الكلام ، دون سائر اللغات الاخرى ، دراسة خاصة :

ب — لغة الكلام

٨ — **تتكون اللغة من اصوات ينقلها الجهاز الصوتي للانسان** ، المؤلف من منفاخ (الرئتين) وانبوب صوتي (شريان الشزن) وآلة مهتزة (فتحة الحلق والحبال الصوتية الموجودة فيها) وموانع مختلفة (الحنجرة واللسان والاسنان والشفتين) .

أ — التغيرات التي تطرأ على اللغة

٩ — **عناصر اللغة لا تبقى ثابتة : انها حية** وهي لذلك **تتطور** ، مثلها في ذلك مثل الاحياء كلها . ومفهوم طبعاً انها لا تعيش عيش العضويات وكل ما في الامر اننا نلجأ الى المجاز ولكنه مجاز مفيد وغير خاطيء . اذن هناك كلمات **تولد** واخرى **تتغير** وثالثة **تموت** .

١٠ — اما **ولادة الكلمات فأمر ملحوظ** معروف لا يحتاج الى برهان واللغويون يعرفون تاريخ ولادة كلمة ما بالضبط ، وهذه الكلمات اما ان **تؤخذ عن اللغات الاخرى او تنحت** من اللغة نفسها او **تؤخذ عن العامية** .

١١ — **والكلمات تتطور وتتغير** : وهذا التغير يستحق ان يكون موضع درس .

آ) فقد يكون **سبب التغير خطأ** ارتكبه فرد او جمهور .

ب) وقد يكون سبب التغير **توسيع معنى كلمة ما** وجعله يشتمل اشياء غير الشيء الاصلي .

ج) وقد يكون سبب هذا التغير **تضييق** معنى كلمة وقصره على بعض مدلوله القديم.

د) وقد يكون السبب **نقل معنى كلمة من شيء الى آخر قريب منه** ، الى ثالث قريب من الثاني ، وهكذا .

ه) وقد يكون السبب **تبديل المعنى** .

و) وقد يكون السبب **القَصْد** .

١٢ — واخيراً **فالكلمات تموت** اي يبطل استعمالها **اما لاسباب اجتماعية او لكثرة استعمالها** .

وما قلناه عن الكلمات يصدق على الصيغ فهي تولد وتتطور وتموت .

١٣ — وهكذا **فللغة الكلام قدرة على التعبير لا مثيل لها** وهي لهذا السبب ، بالاضافة الى الاسباب الاخرى (امكان استعمالها مع وجود العوائق كالليل مثلا ، وعدم اعاقتها اليدين الخ...) تحتل المكان الاسمى بين اللغات الاخرى ، فهي لا تثير الافكار فحسب بل **تحتوي على عناصر تعبيرية اربعة** يجب تمييزها : فهي بسبب طبيعتها الاصلية **ترفع الى العمل** رغم كل الكياسة التي يتذرع المتمدن بها لاخفاء ذلك ، وهي بعد ذلك **تثير الفكرة اي توجه الانتباه** الى صفة عامة ، او قل انها تستخلص ما في حالة خاصة من صفات عامة : وهذه هي العلاقة المعروفة بين الكلمة والمفهوم . وهي ، ثالثاً ، **تثير اوضاعاً وحالات ذهنية نفسية معقدة** ، وينتج عن ذلك انها تملك قدرة ايحائية عجيبة فكلمات ما تضعنا موضع الحزن واخرى تلبسنا حال الفرح وثالثة تدفعنا الى النضال ورابعة الى القلق وهكذا ... وهذا كله أبعد من إثارة الفكرة فقط كما ترى . وأخيراً فان الكلمة مدينة بجزء من قوتها الى

العنصر الموسيقي الموجود فيها : فالكلمة نفسها ، بحسب لهجتها ، يمكن ان تكون دعابة جيبة او اهانة بالغة وذلك لان اللهجة تدل على النفس ذاتها بما فيها من رغبات واندفاع وثورة وقرف .

ح — علاقات اللغة بالفكر

يجب ان نعتبر اللغة كواسطة للاتصال أولا ، وكمساعد لكل تفكير ، ولو كان صامتاً منعزلاً ، ثانياً .

١ — **اللغة ، واسطة اتصال** . وهذه هي وظيفتها الاولى والاهم ؛ إذ انها تفيد قبل كل شيء في **نقل الافكار** بين نفس واخرى وهنا يكفي ان نقف عند خصائص ثلاث للغة :

١٤ — انها **تفيد ، اولا ، في صوغ الاوامر** اي الدعوة الى العمل ، وهذا هو عملها الاصلي الحقيقي . نعم انه ليس سهلا ان نبرهن على ان الكلمات الاولى كانت اوامر ولكن ذلك يبدو كثير الاحتمال الى حد بعيد . وأياً ما كان فأنه مؤكد ان الكلام يحتفظ دائماً بشيء من الاصل فجل كلامنا اوامر مختلفة درجة صراحتها : فهناك **الاوامر الواضحة** الصريحة وهناك **النصائح والصلوات والادعية** ، التي لا تزيد على انها اوامر فيها لباقة وكياسة ، **والسؤالات** اوامر فيها لباقة ، ولكنها اوامر يجب تنفيذها ، وقل الامر نفسه عن **التأكيد** الذي لا يزيد عن كونه امراً موجهاً الى سامعنا لكي يوافقنا على رأينا . ولو نظرنا في كل انواع كلامنا لوجدناها اوامر ، اللهم الا في حالة محادثات خفيفة يجريها اللاهون في المنتديات . اما عند الطفل فما من شك في ان الكلام معناه الامر فهو لا ينفك يصدر الأوامر من الصباح حتى المساء فلا يكف عن الامر . وينتج عن هذا ان **الكذب نتاج طبيعي لوظيفة الكلام عند الاشخاص الذين لم ينصفوا بالاخلاق بعد او الذين لم ينصفوا بها مطلقاً** . فبما ان وظيفة الكلام الاساسية الاثارة للعمل لا يكون

في البدء الا نوعان من الكلام : **الكلام المؤثر والكلام غير المؤثر** . اما الاول فقد وصل هدفه وحقق غايته وهذا كل ما يطلب اليه ؛ وفيما بعد حينما تعرف القواعد الاخلاقية يطالب الانسان بان يكون كلامه صحيحاً ، ولكنه اعتبار جديد لا علاقة له بالاول وذلك لانه من الممكن ان لا يؤثر الكلام الحقيقي ، وان يثير الكذب ويدفع للعمل ، وهذا ما يجعل الكذب واسطة كثيرة الشيوع في حالة الحرب بين الافراد والشعوب لانه سبب يدفع العدو الى فعل ما نريده ان يفعل . وهكذا نرى ان وظيفة الكلام الاولى الاثارة للعمل لا نقل الافكار .

١٥ — اما **الخاصة الثانية** للغة فهي **قدرتها على الوصل بين الاجيال المختلفة** فبواسطتها ينتقل رأس مال البشر العقلي من السلف الى الخلف . والكنوز التي جمعها الجدود من علوم وتصانيف ومناهج وقواعد اخلاقية ودينية انما تصلنا عن طريق اللغة . ومفهوم طبعاً ان **الكتابة هي الشكل المفضل** في هذا الخصوص اذ أنها في الغالب واسطة النقل . وهنا مجال للتأمل عظيم : لو تساءل احدنا عما يبقى له لو حرم من تراث البشرية لرأى انه قد لا تبقى له الا الحياة الحيوانية ، وفي هذا عبرة ومدعاة للتواضع وعرفان الجميل .

١٦ — وأخيراً فمن الانصاف ان نشير الى **الخاصة الثالثة** وهي : **اللغة مانع الاتصال الحقيقي بين الكائنات** فاللغة تفصل بقدر ما تصل في حقل العاطفة : فهناك مثلا **الدور الهام الذي يلعبه الكذب** بمختلف اشكاله ودرجاته ؛ **فالادب** نفسه حجاب كثيف لبعض عواطفنا ، **والكلمة شيء مبتذل** على اعتبارها للاستعمال العام ولانها لا تدل الا على اشياء عامة ؛ ولذلك فانه يفوتها ما في كل نفس بشرية من امور شخصية مبتكرة خاصة بكل عاطفة بشرية . وأخيراً فمن **النادر ان يكون للكلمة نفسها المعنى نفسه عند انسانين ، بشكل يستحيل معه التفاهم الصحيح** رغم اخلاصها واحسانها التعبير . وسوء التفاهم العميق هذا يتجلى **خاصة**

حين يكون المتخاطبان من نموذجين عقليين مختلفين وحينئذ لا يكون للكلمات المعنى نفسه عندهما . فكلام هذا يعني التأمل والتبصر والتعهد للمستقبل اما كلام الآخر فهو ميل حاضر الى اعتبار الامور على هذا الشكل اما المستقبل فليس مضموناً .

٢ — اللغة كمساعد للفكر الداخلي

١٧ — يتجلى لنا هذا المظهر الثاني بوضوح اذا فكرنا في المسائل الثلاثة التالية: عدم امكانية فصل اللغة عن الفكر ، توضيح اللغة للفكر ، الضلالات الناشئة عن اللغة .

١٨ — آ) **عدم امكانية فصل اللغة عن الفكر** — لا نرى بدأ من ذكر بعض التحفظات الضرورية قبل تأكيد وجود فكر بلا لغة وذلك خشية اتهامنا بالمبالغة والتهويل : ما من شك ، بادىء بدء ، بأن **الشعور الابتدائي يمكن الوجود دون لغة** : الهيجانات والاحساسات البسيطة جداً . **ونؤكد ايضاً وجود حركة واندفاع في الفكر يتنالى (يدوم) دون ان يعبر عنه دوماً** : وبعض الكلمات مثل (اذن ، على العكس ، ثم . الخ ...) وظيفتها ان تعبر عن هذه الحركة ؛ ولكنها لا تظهر الا من بعيد لبعيد والحركة مستمرة ؛ فالكلمات المختلفة في جملنا تدل على محطات يمر بها الفكر البشري اكثر من دلالتها على مجرى الفكر البشري. وبعد ان ذكرنا هاتين الملاحظتين نستطيع التأكيد بأنه ما من فكر ، فكر حقيقي عاقل ، دون لغة .

١٩ — **والدليل الاول** على ذلك مستند الى الملاحظة الداخلية ، فنحن نعلم جميعاً بأن **التفكير معناه التحدث الى النفس** او احياناً التحدث ذهنياً الى الآخرين وهناك بالواقع كلمات نلفظها بالداخل كما هناك سؤالات وجوابات واعتراضات .

٢٠ — والملاحظة الفيزيولوجية تؤيد ذلك ايضاً فقد برهن العلم على ان **الحبال الصوتية والجهاز الصوتي كله يعمل اثناء التفكير** بشكل غير مرئي ولكنه واقعي.

٢١ — **والاعتجاج** الوارد في هذا الصدد هو الملاحظة **بأن هناك افكاراً لا يمكن التعبير عنها** فنبحث عبثاً عن كلمات تعبر عنها وهذا يظهر، في رأي المعترضين، بأن الفكر موجود قبل اللغة او قل بدونها .

ونجيب على هذا الاعتراض بالجوابين التاليين : **اولاً** ، **كثيراً ما نتوهم بأننا نفكر والواقع اننا مهتاجون وغير قادرين على التفكير** . وهذا هو سبب عدم وجود الكلمة . وفي بعض الاحيان يكون الوهم على غير هذه الصورة : **يخيل الينا اننا نملك فكرة والواقع اننا نبحث عنها** ، فنحن لسنا الا في عتبة التفكير ولذلك فنحن في عتبة الكلام ؛ ومتى حصلنا على الفكرة حصلنا على الكلمة . والجواب **الثاني** اكثر اهمية وهو يكمل الاول : **صحيح اننا نفكر احياناً دون ان نستطيع التعبير** ، **ولكن الذي ينقصنا آنئذ هو اللغة الاجتماعية** ، اللغة التي يمكن امرارها الى الغير **وليس معنى هذا فقدان كل لغة** . والواقع ان **لكل منا لغته الخاصة به** التي يستعملها للتفكير وهي لغة لا يفهمها اشباهنا لانها تتألف من اختصارات سريعة وفكر مقتضبة وهي هذه اللغة التي لا تغيب مطلقاً ؛ **اما حين نريد التعبير عن افكارنا للغير فنحن نترجم هذه اللغة الشخصية الى اللغة الاجنبية العامة** التي هي اللغة المشتركة وهذا هو الامر الصعب والمستحيل احياناً .

٢٢ — ب) **انضاح الفكر بواسطة اللغة** . لو اردنا ان نلخص الخدمات التي تؤديها اللغة للفكر في صفة واحدة لقلنا انها توضحه . انها توضحه **اولاً** لانها **تسمح بالتجريد** ، فنحن نعلم ان النفس البشرية تنخبط في الفوضى وتقع تحت عبء اثقال الخبر الفردية الخاصة لولا الافكار المجردة **والكلمة هي التي تجعل الفكر المجردة ممكنة** . والواقع ان الصفة المجردة لا توجد منفصلة ابداً فنحن لا نشاهد

مثلثاً قط ولكنا نشاهد أشياء مثلثة : فالصفة المجردة تميل دوماً الى الرجوع الى المجموعات التي انتزعت منها ، واذا وقفنا الى الابقاء عليها فذلك بوصلها بالكلمة ؛ والكلمة توقظها بالتداعي ، وهكذا يصبح الانتزاع واقعياً بعد ان ظهر مستحيلاً في الصفة والشيء .

ومن السهل ان نلاحظ بأن **الطفل لا يحصل على الفكرة المجردة الا بعد الكلمة** فالتربية تقدم له الكلمات وتحت تأثير الكلمات يحصل على الافكار تدريجياً .

٢٣ — **ثانياً : تمنح اللغة الفكر ثباتاً يصبح بدونه غامضاً مضطرباً :** ففي النفس البشرية احساسات وعواطف ورغبات وذكريات وصور يتحول بعضها الى بعض دون انقطاع ولا يبقى منها الا حلمٌ غير ثابت . **فالكلمة تعزل وتثبت ،** وهذا الاحساس المعزول عن المجموع والمسمى باسمه يتصف بالوجود الحقيقي ويبقى في الذاكرة .

٢٤ — **ثالثاً : تفصل اللغة الفكرة عنا وتضعها امامنا وكأنها شيء ، فتسمح لنا بهذا الشكل بتأملها والحكم عليها :** فحينما لا أعبر عن عاطفتي وفكرتي لا أسودها ولا أستطيع ضبطها ؛ اما اذا عبرت عنها بكلمتين ادخلها دائرة قدرتي ، وحينئذ استطيع إما تجنبها على انها سيئتين اوخاطئتين او قبولها . إذن **فالتعبير يحدد .**

٢٥ — **رابعاً ، توضح اللغة لانها تحلل** والقول بأن اللغة منهج تحليلي (كوندياك) قول صحيح . فلكي أعبر عن الادراك البسيط جداً الذي كان حادثاً مفرداً مجموعياً تمكنت منه دفعة واحدة أراني مجبراً على تفكيكه الى عناصره واحداً واحداً .

٢٦ — **واخيراً فاللغة تخفف عن الفكر كثيراً ،** فلو فكرنا دون لغة ، كالطفل في الشهور الاولى ، لكان علينا ان ندير في انفسنا ذكرياتنا نفسها عن كل الاشياء ككتل ثقيلة ضخمة فتزدحم النفس وتضيق ، ولكننا نقتصر في أغلب الاحيان على العمل بالكلمات ، تلك الاغراض المناسبة السهلة القابلة التمازج بسرعة فائقة وسهولة

شديدة ؛ نعم **هناك خطر التفكير بالكلمات فقط** ، خطر الببغائية ، ولكنه خطر بسيط اذا قورن بالحسنات الجلى وهو خطر يمكن تجنبه بشيء من الحذر والانتباه .

والخلاصة فان اللغة تقدم لنا مجموعة من الرموز المتمايز بعضها عن بعض بشكل باهر عوضاً عن عالم مضطرب من الرغبات والصور .

٢٧ — ج) **الضلالات الناشئة عن اللغة** — هناك **خطآن** مصدرهما اللغة . فهناك **الخطأ الذي مصدره الاستعمال الخاطئ للغة** وهناك **الاخطاء التي مصدرها طبيعة اللغة نفسها** مهما كان استعمالها كاملاً .

اما النوع الاول فنموذجه **الالتباس** (انظر أنواع السفسطة في الفصل الثالث عشر) فهناك ضلال مصدره ان **الكلمة هي نفسها فنحسب ان الفكرة هي نفسها** كما ان هناك الضلال العكسي: تختلف الكلمات فنحسب اختلاف الفكرة او الشيء .

٢٨ — **والضلالات المهمة هي الضلالات التي يكون مصدرها طبيعة اللغة** نفسها . فهناك **اولاً ضلال الهوية : فثبات الكلمة يجعلنا نظن ثبات الاشياء نفسها** خلال الزمن ، ولعل احسن مثال على ذلك اسم العلم : فهو سبب توهمنا بأن الكائن لا يتغير مع أنه يتغير كثيراً ، وقد ينقلب رأساً على عقب . فدمشق في فجر الاسلام كانت تسمى دمشق وإنه ليصعب علينا كثيراً ان نراها رغم كل تحفظ غير دمشق اليوم ، صحيح اننا تجنب الاخطاء الكبرى فنجردها من الترام والكهرباء ونصب المرجة التذكاري ، ولكنها تبقى في اعماقنا دمشق التي نعرف — وعاطفة كالحب او الكره تحتفظ باسمها أثناء كل تطورها فيخيل للانسان انها تبقى هي هي مع انها قد تصبح في الآخر عكس ما كانت في الأول ؛ وحتى صفات الأشياء والأجسام تجعلها اللغة خاطئة ، فنحن نقول مثلاً الورق ابيض وهذه الكلمة أبيض تحجب الحقيقة لان الواقع هو ان هذا الصباغ متغير بحوره النور والجوار والانعكاس الخ ..

٢٩ — وتخلق الكلمات **ضلال التقريب الفاصل** بين الاشياء ؛ فتفرق اللغة مثلاً بوضوح بين الصحة والمرض مع ان هناك كل الدرجات بينهما كما تميز بين العقل والجنون مع ان هناك كل الدرجات بينهما ايضاً .

٣٠ — وتخلق اللغة ايضاً **ضلال المادية** : فقد وضعت الكلمات للدلالة على اشياء مادية واعمال تحقق بهذه الاشياء ولذلك فهي تحتفظ بشيء من هذه الصفة القديمة وهي بالتالي تنقل الى كل ما تتصل به مظهر المادية ؛ وهذا هو سبب تمثل كثير من الناس الذاكرة على انها مخزن ذكريات ، واذا كانوا اكثر ثقافة حسبوا ان الذكريات تمركز في الحجيرات الدماغية .

٣١ — واهم من هذا ان اللغة تخلق **ضلال حقيقة** : فنحن لا نكاد نسمع اسماً حتى نحسب وجود كائن ، وهذا هو الضلال البشري الخالد ، فيظهر القضاء والقدر والحظ لكثير من الناس على انها قوى حقيقية ، والجاذبية على انها قوة سرية خبيثة في المغناطيس . وهذه الضلالات لا يمكن شفاؤها الا جزئياً ، وجزئياً فقط.

د — تطور اللغة عند الطفل

٣٢ — يجب البدء **بدلالات جديدة** ضرورية لا غنى عنها اذ اردنا ان لا نرتكب اخطاءً جساماً : لنذكر **اولاً ان اللغة ، بطبيعتها ، واسطة للدفع الى العمل** ؛ وكل ما تبقى ، ولا سيما نقل الافكار ، مشتق عن هذه الخاصة . ولنذكر **ثانياً ان اللغة هي بالواقع محاكاة التقليد** ، فالطفل يتعلم الكلام بالتقليد كما تظهر ابسط الملاحظة . ويجب ان لا ننسى **اخيراً** ان هناك **تبادلاً بين الطفل واهله** ، فالاهل يعلمون الطفل مقاطع ، وهو بدوره يخلق لغة يتعلمها الاهل ثم يُحل الاهل تدريجاً لغتهم الخاصة ، لغة مجتمعهم ، محل لغة الطفل .

وهذه الملاحظات الثلاثة هامة جداً ويجب ان نحتفظ بها اثناء كلامنا عن تطور

اللغة عند الطفل . وفي هذا التطور نميز بين : ١ً — نقطة البدء . ٢ً — الحصول على اللغة الاجتماعية .

١ً — **نقطة البدء : ما هي العناصر** والمواد التي تتكون اللغة مستعينة بها ؟

٣٣ — **هي اولاً الاصوات التي تصدر عن الطفل عفوياً ، اما كرد فعل محض ، او بنوع من اللعب** : اي الصرخات التي تفصح في البدء ميكانيكياً عن حاجاته او آلامه ؛ الحروف الصوتية ولاسيما (آ ، او) (e, a) التي تتكون بصورة طبيعة بواسطة التيار الهوائي الصادر عن الرئتين والذي يهز الحبال الصوتية ؛ وبعض المقاطع ولا سيما (كو ، كا ، با ، ما ، تا ، مو ، كو ، رو) (Gue, ga, pa, ma, ta, mo, ro) والتي تتكون بالتقليد بلاشك . وميكانيكية ذلك سهلة جداً : إذ يكفي ان **يوقف الهواء موقتاً في الفم بواسطة مانع ما** كالشفتين او الاسنان او اللسان . والطفل ابن الشهور الثمانية او التسعة يحدث مقاطع من هذا النوع كل النهار ؛ **واخيراً اعادة الطفل ، لاعباً ، هذه المقاطع نفسها** التي احدثها في البدء إما ميكانيكياً او تقليدياً : إذ أن **هناك فترة من الزمن يلعب فيها الطفل بالمقاطع لعبه بالألعاب** ، وهو حتى الآن لا يتكلم ، ولكنه يحصل على ميكانيكية لفظية مرنة سيستخدمها بعد قليل .

٣٤ — **والعنصر الآخر** الذي سوف يساهم في نماء الوظيفة وتكاملها هو **اكتشاف الطفل كلام الغير** ، كلام اهله . وهذا الاكتشاف يحدث بين **الشهر العاشر والثاني عشر** إذ يبدأ الطفل يفهم الكلام أي بمعنى آخر يبدأ بالتأثر به فاذا ناديته باسمه التفت واذا سمع كلمة (بابا) او (ماما) اذا راعينه باحثاً وهكذا .

تلك هي نقطة البدء : أصوات تحدث عفوياً — والكلام الاجنبي .

٢ً — **الحصول على اللغة الاجتماعية : بمر نماء اللغة وتكاملها بمراحل عدة**

ير هنا الى بعضها :

٣٥ — **المرحلة الاولى هي ظهور الوظيفة نفسه** . ويحدث هذا الظهور

كل تقليد : فالكلام الأول ليس الا حالة خاصة من التقليد وهاك مثلاً يوضح قلنا ويرينا هذا الظهور عند كثير من الاطفال : طفلة صغيرة تقلد منذ شهرين رة الوداع التي تقوم بها امها كلما اخذتها الخادم الى النزهة والتي ترفقها بقولها خاطرك) ، وذات يوم يدهش الجميع إذ يسمعون الطفلة تقول وهي تقلد شارة داع حين ذهابها الى النزهة (خاطرك) ، بلغتها طبعاً ، وهذا يعني انه لم يكن جد حتى الآن الا تقليد جزئي لان الام كانت تقوم بالحركة وتلفظ الكلمة في وقت حد . ومنذ الآن يبدأ التقليد الكلي : فتعيد الطفلة الاشارة والكلمة . وما من ك في ان ذلك اليوم يوم خالد فقد ارتفعت الطفلة الى مستوى الكلام .

٣٦ — **والمرحلة الثانية هي الحصول على مجموعة من الكلمات ، بالتقليد**

ما ، فالطفل الذي اكتشف بأنه يستطيع تقليد الكلمات التي يسمع ، متى أراد ، ر بهذه الاعادة ويكثر منها فلا نسمعه إلا مقلداً الكلمات التي يسمع حوله . وما شك في انه تقليد مبسط مشوه ، فهو لا يعيد الكلمة كلها انما يعيدمقطعاً ويضاعفه لك هو زمن الكلمات التالية : بابا ، ماما ، دادا ، دو دو الخ ...

٣٧ — **اما المرحلة الثالثة فتتميز بالاستعمال التصحيحي القاصد لهذه الكلمات**

ها : لقد كان يعيدها حتى الآن دونما كبير تصميم انما كان يعيدها كنوع من صدى ، أما الآن فقد اكتسبت معانيها بالنسبة اليه وهو انما يستعملها ليعبر عن غباته ، او قل لاعطاء اوامر الى من حوله ، فقوله (بابا) معناه انه يريد اباه ، تكريره (ماما ، ماما) معناه انه يطلب أمه .

٣٨ — **وفي المرحلة الرابعة تتسع معاني الكلمات عن طريق المماثلة** :

هو بسبب شبه ما يوسع معنى الكلمة وينقلها من شيء الى آخر وهنا نجد نوعاً من تداعي لا نوعاً من التمثيل .

٣٩ — **والمرحلة الخامسة هي مرحلة الوصل الاول بين كلمتين او ثلاث** اي مرحلة التمهيد لما سيكون في المستقبل جملة ويكون هذا **بين الشهر الثامن عشر والسنتين** .

٤٠ — **اما المرحلة السادسة** فتتميز **بالكلام بصيغة المتكلم** ، فالطفل كان يتكلم عن نفسه حتى الآن بصيغة الغائب اما الآن فقد بدأ يكتشف بأنه يستطيع التحدث عن نفسه بصيغتين : فاما ان يقول (احمد يريد ان يأكل) او (اريد ان آكل) ؛ او قل بدأ يكتشف بأن له اسمين احدهما (احمد) والآخر (انا) .

٤١ — **وفي المرحلة السابعة يخلق الطفل كلمات وصيغ وتعابير وافعال** وكل ذلك بالمماثلة .

٤٢ — **وفي المرحلة الثامنة (حوالي السنة الثالثة) تبدأ الروايات** التي تتضمن شيئاً من الزمن : « اعطتني ماما تفاحة وقالت لي ... » وهذه هي **البداية الأولى للذاكرة** وعملها الاول ، فالطفل لم يكن يملك حتى الآن الا صوراً لم تكن له ذاكرة بالمعنى المضبوط (اي فكرة الماضي ، وفكرة التتالي ، وفكرة ما قبل وبعد) ، أما الآن فان كلامه يفصح عن جهد لرواية الحوادث بحسب الترتيب التي جرت فيه اي جهد حقيقي لتشغيل ذاكرته .

٤٣ — ويمكننا ان نسمي **مرحلة تاسعة بدء القراءة** : وهي تحدث في الحال السوي **حوالي السنة الخامسة** . ويرى (بينيه Binet) **ان القراءة تمر في المراحل التالية** :

١) **القراءة المقطعية** : اي بوقف بين المقاطع (العمر السوي ٦ — ٧ سنوات)

٢) **القراءة المترددة** اي بوقف بعد كل كلمة او مجموعة من الكلمات (٧ — ٩ سنوات)

٣) **القراءة الدارجة** اي بوقف عند علامات التنقيط (٨ — ٩ سنوات)

٤) **القراءة التعبيرية** المرفوقة بالنغم (١٠ — ١٢ سنة) .

هذا ويجب ان نذكر بان (بينيه) يعطي هنا العمر المتوسط فقط .

٥ — بسيكولوجيا اللغة

٤٤ — المشاكل الاساسية التي نصادفها في دراستنا للغة عند الطفل اربعة هي :

١ — فهم الكلام .
٢ — التكلم : اي تعلم الكلام .
٣ — فهم اللغة المكتوبة : أي تعلم القراءة .
٤ — الكتابة : أي التعبير عن الفكر كتابياً وتعلم الاملاء الصحيح والقواعد الخ ..

والطفل يتعلم اللغة وفقاً لهذا الترتيب فهو يبدأ بفهم ما يسمع من كلام ثم يحاول تقليده فيتكلم ثم يُعَلَّم القراءة والكتابة. هذا ويلاحظان **الانسان يملك مجموعات مختلفة من الكلمات** . وطبيعي ان نذكر بأن عدد الكلمات المفهومة والمقروءة اكثر من عدد الكلمات المستعملة في الكلام والكتابة .

٤٥ — **يرث الطفل قابلية النطق** ، والمحيط هو الذي يعين نوع اللغة المنطوق بها . والطفل لا يفهم الكلام كما يفهمه الكبار بل يفهمه بمقدار ما يعمل او يجيب . والطفل لا يتأثر اول الامر بالكلمات بقدر ما يتأثر بالحركات والنغم . والاشهر الثمانية الاولى من حياة الطفل هي عهد عدم استعمال اللغة . ثم يبدأ الطفل بتعلم الكلام على النحو الذي اشرنا اليه . ونستطيع التأكيد ، بناء على اقوال الخبراء ، ان **الطفل حين يدخل المدرسة** ، في السادسة من عمره ، **يفهم ألفي كلمة ويستطيع استعمال ألف** .

٤٦ — ١) **القراءة :**

كان المفهوم من القراءة في المدارس القديمة القراءة الصائتة العالية الصحيحة الحسنة الاداء ، ولم تكن تعلق أهمية كبيرة على فهم الطفل معنى ما يقرأ ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فحسبوا ان القراءة الصحيحة علامة الفهم فقصروا عنايتهم على صحة القراءة ، ولم يكن للقراءة الصامتة من محل في المدرسة مطلقاً . وقد كانوا ،

لذلك كله ، يحسبون ان القراءه عملية سهلة بسيطة ، أما الآن فقد ادرك المعنيون بدراسة القراءة وعواملها ان القراءة عملية شديدة التعقيد . وما زال هؤلاء العلماء يوالون ابحاثهم في هذا الصدد وما زالت هذه الابحاث في مجراها ، وقد درسوا عوامل عدة ليتعرفوا على تأثيرها في القراءة منها :

العوامل الصحية : كحجم الحروف، ونوع الورق، وتنوير الغرفة ، وطريقة التنفس اثناء القراءة ووضع الطالب اثناءها الخ ..

مادة القراءة : كعدد الكلمات المستعملة وصعوبتها وتركيب الجمل ولذة الموضوع ومناسبته لميول الطفل الخ ...

حركة العين : كعدد وقفات العين على السطر في القراءة الصائتة والصامتة ومدة هذه الوقفات وحركات رجوع العين الخ ...

المسافة بين العين والصوت في نوعي القراءة الصائت والصامت .

مدى الفهم وسرعته في نوعي القراءة .

سرعة القراءة .

الفروق الفردية .

القدر الخ ...

٤٧ — **قياس قابلية القراءة :** وأهم وسائط هذا القياس هي : الامتحانات المقيّسة ، وحركات العين .

اما الامتحانات المقيسة فليس هنا موضع البحث عنها وكل ما نستطيع قوله ان محاولات كثيرة جرت لقياس الدقة في تمييز الكلمات وسرعة القراءة الصائتة ودقتها وسرعة القراءة الصامتة وفهم المقروء الخ ... ومن المهم ان نشير هنا الى ان هذه الامتحانات لا تقيس الا بعض نواحي قابلية القراءة ومازلنا بحاجة الى مقاييس اخرى تقيس النواحي الباقية .

واما القياس بواسطة حركات العين فقد كان فتحاً جديداً لعلم النفس التربوي وقد كان يظن سابقاً ان العين تتقدم على السطر باتزان واتساق ، ولكنه اصبح معروفاً الآن ان العين انما تنتقل في القراءة بحركات اهتزازية فتقف وترجع اثناء هذا التقدم ، وقد اخترع بعض العلماء جهازاً يسجل حركات العين اثناء القراءة

شريط (فيلم) متحرك ؛ ولقد قاسوا بهذا الجهاز بعض قابليات القراءة : كمدى التمييز والتقدم المتزن على السطر والمسافة بين العين والصوت .

٤٨ — **اتساع مدى التمييز :** ونعني بمدى التمييز عدد الكلمات او الجمل التي يتمكن القارىء من فهم معناها دفعة واحدة ومن نظرة واحدة وهو يحسب بقسمة عدد الكلمات الموجودة في السطر أو السطور على مرات الوقوف اثناء قراءة هذا السطر او هذه السطور . وبديهي ان نشير الى أنه كلما ازداد وقوف العين تناقص مدى التمييز . **وهذا المدى هو خير مقياس لقياس قابلية القراءة** . وهاك الآن اهم الحقائق المكتشفة في هذا الصدد :

(١) مدى التمييز في القراءة الصامتة اوسع منه في الصائتة .

(٢) مدى التمييز متوقف ، الى حد كبير ، على نوع المادة المقروءة . وكلما كان المعنى أوضح كان مدى التمييز اوسع .

(٣) يختلف اتساع مدى التمييز باختلاف غاية القراءة ، فاذا كانت الغاية التسلية كان المدى واسعاً ، أما اذا كانت الدرس فالمدى أضيق .

(٤) لا يختلف المدى باختلاف حجم الحروف .

(٥) يتسع المدى بالتمرين .

(٦) يتسع المدى بسرعة في السنوات الابتدائيه الاربعة الاولى ثم نلاحظ نجداً يدوم دوام الدراسة المتوسطه ثم نلاحظ اتساعاً جديداً في هذا المدى في السنين الاخيرة من الدراسة الثانوية .

٤٩ — **ازدياد سرعة التمييز :** تقاس سرعة التمييز بقياس مدة ثبوت العين . هذا وان سرعة التمييز لا تتغير تغير مدى التمييز ، فالفرق فيها بين القارىء المبتدىء والقارىء المتمرن أقل من الفرق بينهما في المدى .

وهاك الآن أهم النتائج التي حصل عليها العلماء فيما يتعلق بازدياد سرعة التمييز:

(١) ينفق القارىء $\frac{١٢}{١٣}$ من وقت القراءة في ثبوت عينيه على المادة المقروءة [اي في فهمها اثناء ثبوت عينيه عليها] اما الـ $\frac{١}{١٣}$ الباقي فينفق في حركات الرجوع والوقوف بين الرجعات .

(٢) اقصى حد لمدة ثبوت العين هو $\frac{١}{٥}$ الثانية تقريباً [اطول من وقت رد الفعل بقليل] وهذه المدة عند القارئ الراشد الماهر هي $\frac{٥-٦}{٢٥}$ من الثانية . ويستطيع طلاب الصف الرابع من المدارس الابتدائية وصول هذا الحد في آخر سنتهم .

(٣) في أول ادوار التعليم يستطيع الاطفال ان يلفظوا الكلمات بسرعة اكثر من سرعة تمييزها ، اما فيما بعد فتنعكس الاية اي تزيد سرعة التمييز على سرعة التلفظ .

(٤) تزداد سرعة التمييز بسرعة اعظم من مداه .

(٥) ولكن هذا لا يمنع ان يكون بين سرعة التمييز ومداه توافق كبير .

٥٠ — **نمو التقدم المنتظم على السطر** : وخير مقياس موضوعي لقياس هذا التقدم هو عدد رجعات العين اثناء قراءة السطر الواحد ، أما عدد هذه الرجعات فكثير عند المبتدئ الذي ينقل نظره ذهاباً واياباً بين أول السطر وآخره دونما انتظام ؛ أما القارئ الخبير فبصره ينتقل بحركة منتظمة الى الأمام وعدد رجعاته قليل جداً .

وهناك بعض العوامل ، بالاضافة الى الارتباك الناشئ عن قلة الخبرة، التي تسبب رجوع العين ومنها : ١) جهل القارئ بعض المفردات . ٢) صعوبة مادة القراءة . ٣) موقف القارئ إزاء ما يقرأ (لذته او عدمها ، اهتمامه أو عدمه الخ..) الخ ..

وعدد رجعات العين في القراءة الصامتة أقل منه في القراءة الصائتة . أما التمرين فينقص عدد الرجعات فيجعلها (١،٥) في السنة الرابعة الابتدائية في السطر الواحد بعد أن كانت (٥) في الصف الاول وذلك في القراءة الصامتة .

٥١ — **المسافة بين العين والصوت** : وتقاس ، في القراءة الصائتة ، بعدد الكلمات الواقعة بين الكلمة التي تنظر اليها العين والكلمة التي ينطق بها اللسان ، اما في القراءة الصامتة فبعدد الكلمات الواقعة بين الكلمة التي تنظر اليها العين والكلمة التي ننطق بها بصمت . وكلما ازدادت مهارة الطفل في القراءة اتسعت هذه المسافة ولذلك فهي مقياس جيد للتقدم في القراءة ؛ وليس ازدياد هذا الاتساع منتظماً ، كما ان سهولة الموضوع وسهولة المفردات ذات علاقة كبيرة في اتساع هذه المسافة

وتختلف هذه السعة بحسب مكان الكلمة في الجملة ، ولا علاقة لها بمكان الكلمة في السطر . هذا وإن تزايد سرعة القراءة يتناسب طرداً مع اتساع هذه المسافة التي تتناسب عكساً مع عدد رجعات العين .

والصلة قوية بين هذه المسافة وبين فهم المعنى: فالمبتدئ يرى الكلمة ويلفظها ويفهم معناها في الوقت نفسه اما المتمرن فيفهم من النظر ويساعده الصوت في ذلك الفهم .

٥٢ — **عوامل مهمة اخرى في قابلية القراءة** : واهمها :

(آ) **النطق الداخلي اثناء القراءة الصامتة** : فالانسان حينما يقرأ صامتاً تهتز حباله الصوتية او قل اذا شئت ، يلفظ صامتاً ما يقرأ ، واغلب الظن أن سبب ذلك طول استعمال الانسان للنطق الصائت . ومما يلاحظ ان المبتدئ يعتمد كثيراً على هذا النطق الداخلي ، أما المدرب فيقلل منه ولكنه لا يتخلص منه نهائياً في القراءة الصامتة والتفكير .

(ب) **دقة التمييز** : لا يدقق القارئ الخبير في الكلمة ولذلك فهو لا ينظر الى كل حرف من حروفها بل ينظر اليها نظرة خاطفة فيتميز بعض حروف ويضيف الاخرى من عنده بالعادة والتداعي ، ويظهر عدم دقة التميز اثناء القراءة الصائتة . ولذلك فالقارئ كثيراً ما يحذف بعض الحروف أو يبدلها أو يدمجها في غيرها الخ..

وخير وسيلة للتمرين على دقة التمييز هي تحليل الكلمات الى أصواتها على ان لا يبالغ في ذلك فيصبح الصوت هو الغاية بدلاً من فهم المعنى .

(ح) **حركات رجوع العين** بين آخر السطر الواحد واول الذي يليه ، وتقل بواسطة توسيع المسافة بين السطور .

٥٣ — اجمع علماء التربية على أن طباعة الكتب يجب أن تكون بالحبر الاسود على الورق الابيض ، وان طول السطر يجب ان يتراوح بين ٧٫٥ — ١٠ سم وعلى ان الهامش يجب ان يكون منتظماً ، وعلى وجوب العناية الشديدة بحجم الحروف والمسافة بين الكلمات ومناسبة ذلك لسن الطفل .

٥٤ — ١) انتخاب مادة القراءة :

يجب ان تكون المادة المنتخبة للقراءة موافقة لمستوى الطفل العقلي والمعرفي متفقة مع رغباته وميوله. وقد وجد (أوهل Uhl) ان الصفات الآتية ، غير المرغوب فيها ، كثيرة في كتب القراءة الابتدائية :

(١) المادة فوق مستوى الطلاب .
(٢) كثيرة الصعوبة .
(٣) غير حقيقية .
(٤) لا حركة فيها .
(٥) مملة .
(٦) محزنة .
(٧) طويلة وغير شيقة الخ ..

كما وجد ان الصفات التالية هي المحببة للطلاب والمعلمين :

(١) قصص البطولة والمخاطرة ، والقصص التمثيلية .
(٢) الاعمال الشيقة .
(٣) النكات .
(٤) قصص الجن والقصص الخارقة للطبيعة .
(٥) تراجم المشهورين والعظماء .
(٦) الحياة المنزلية وحياة الاطفال .
(٧) المشاكل الهامة ودراسة الطبائع
(٨) الحنان والايمان .
(٩) قصص الحيوانات .
(١٠) الاخبار الشيقة .
(١١) الاخبار التي يمكن تمثيلها .

٥٥ — ٢) الاملاء :

الاملاء **عادة حسية حركية** يكتسبها المتعلم من تكرار بعض ردود الفعل الحركية على منبهات حسية (صوت) او عقلية (ذكرى كلمة) . ويجب اثناء تعلم الاملاء حفظ ترتيب الاحرف المصطلح عليه في كتابة الكلمة وذلك برؤية هذا الترتيب

وسماعه والتمرن عليه لفظاً وكتابة . وعلى اعتبار ان تعلم الاملاء هو بناء عادة لذلك كان من الواجب ، في سبيل هذا التعلم ، ان يتمرن المتعلم تمريناً كافياً يجعل هذه العادات ثابتة في الجملة العصبية .

وقد كان يظن سابقاً ان من الواجب تعليم املاء الكلمات الصعبة والالحاح على تكريرها اما الآن فقد أصبح من الثابت ان ما يجب تعليمه هو الكلمات التي يحتاجها في المدرسة اولاً وفي الحياة ثانياً بقطع النظر عن السهولة والصعوبة .

وليحذر المعلم من تعليم كلمات لا يفهم الطفل معناها وليعمل على تشغيل اكبر عدد ممكن من الحواس اثناء تعلم الاملاء (العين والاذن واليد) . وعلى المعلم أن يعلم الكلمات وقت الحاجة اليها . والظاهر ان البنات خير من الصبيان في الاملاء .

٥٦ — ٣) الخط :

مشكلة الخط البسيكولوجية هي تكوين **عادات عضلية** تمكن الطفل من الكتابة بسرعة وبخط واضح وجميل وبأقل ما يمكن من الجهد :

١ — **الوضوح** : ويحصل من :
- ١ — المسافة بين الكلمات
- ٢ — المسافة بين السطور
- ٣ — شكل الحروف وحجمها
- ٤ — انتظام الحروف
- ٥ — ميل الحروف .

٢ — **السرعة** : وتحصل من :
- ١ — سهولة حركة اليد
- ٢ — انتظام الحركة
- ٣ — ميل الكتابة
- ٤ — حجم الحروف
- ٥ — اتصال الحروف
- ٦ — طريقة مسك القلم ووضع الورق
- ٧ — نوع القلم والورق

٣ — **الجمال** : ويحصل من :
- ١ ـ شكل الحروف
- ٢ ـ تناسق الكتابة .

اما الوضوح فهو اهم صفة من صفات الخط وفي سبيل ذلك يجب أن تكون المسافة بين الكلمة والكلمة حوالي نصف سانتيمتر كما يجب أن تكون المسافة بين السطور كافية للتمييز بينها .

هذا ويجب التوفيق بين وضوح الخط والسرعة فيه توفيقاً لا يؤثر على جماله ولا يضر بالسرعة تلك الصفة الهامة جداً .

مراجع البحث

١ ــ الجارم وأمين : الباب الثالث عشر

٢ ــ خلف الله ـ محمد : الجزء الاول ، الفصل الثاني

٣ ــ صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث ، الفصل الحادي عشر

٤ ــ نجار ـ فريد : الفصل السادس عشر

الفصل العاشر

الافكار العامة

(التجريد والتعميم)

تصميم البحث

آ — خصائصها :

١ ـ الشمول • ٢ ـ التضمن •

ب — طبيعتها :

١ ـ الكلمة • ٢ ـ الصور • ٣ ـ الاخيلة • ٤ ـ المقاومة العقلية •

٥ ـ توجيه الانتباه الى العنصر الثابت • ٦ ـ التجريد •

م — فائدتها :

١ ـ التخفيف عن النفس ٢ ـ الوضوح ٣ ـ المدى ٤ ـ عنصر العلم •

د — أخطارها :

١ ـ ابعاد النفس عن الواقع ٢ ـ تحقيق تجريدات ٣ ـ التفكير بواسطة كلمات فارغة ، صفة التفكير بواسطة الافكار العامة : لا كمال ولا ضعف ، امر وسط بينهما

تطبيق عملي : حفظ التوازن بين الحدس والفكرة العامة •

ف التجريد والتعميم عند الطفل
والأفكار العامة في التربية

١ - **الفكرة العامة** (او المفهوم) **هي عمل تفكير النفس ، لا بأشياء فردية ولكنه ، في صنف من الأشياء ، اي مجموعة غير محدودة من الاشياء . وكل كلمة لا تدل على اسم علم تعبر عن فكرة عامة** نحو: رجل ، سعيد ، ركض ، **واسماء الجنس** بصورة خاصة تعبر عن افكار عامة .

أ - خصائص الافكار العامة

٢ — معنى الفكرة العامة مكون من خاصتين هما شمولها وتضمنها :

١ً — فلكل فكرة نوع من **الشمول** اي كونها تدل على **مجموعة من الاشياء او الاشخاص** ، فشمول كلمة (انسان) مثلاً هو مجموع الاوروبيين والاسيويين والافريقيين الخ... وهكذا فنحن **نصنّف** حينما نصوغ ، طرائقياً ، شمول مفهوم ما .

٢ً — وللفكرة العامة بعد ذلك **تضمن** ، اي انها تعني **مجموعة من الصفات** : فتضمن فكرة الانسان مثلاً هو مجموع الصفات العامة بين الناس : كائن ، حي ، حيوان ، فقاري ، لبون ، عاقل . ونحن نعرّف (**نحدّد**) حينما نصوغ ، طرائقياً ، تضمن مفهوم ما .

٣ً — ويقول علم المنطق الاتباعي ان **الشمول يرتب ترتيباً هو عكس ترتيب التضمن** فلو قلنا مثلاً : عربي ، آسيوي ، انسان ، للاحظنا ان الترتيب على شمول متزايد وتضمن متناقص (لان العربي = انسان + شيء آخر) .

ب - طبيعة الافكار العامة

٣ً — لو تركنا جانباً النظريات المتضاربة في هذا الصدد لنحلل بصورة مباشرة الحادث بأنفسنا لميزنا في المفهوم العناصر التالية :

اولاً : **الكلمة** . لنفرض ان الامر يتعلق (بفكرة الطير) فالعنصر الاول الذي يظهر في الشعور حينما نفكر في هذا المفهوم هو كلمة (طير) التي نتخيلها مكتوبة او مسموعة او ملفوظة من قبلنا .

وهذا العنصر على جانب كبير من الاهمية فهو موجود دائماً وهو في **بعض الاحيان موجود لوحده** : ففي التفكير السريع او القراءة المستعجلة لا يوجد في اغلب الاحيان الا الكلمات . ومن هنا كانت مسألة المعاجم على صلة وثيقة بمسألة اللغة .

٤ — وفي كثير من الاحيان يوجد في الوقت نفسه **صورة** او صور ، فمثلاً حين افكر في فكرة الطير اتمثل خطافاً او حمامة اونسراً ، وهذه الصورة اوالصور تبقى عادة في حالة هيكل وقلما تفصلها .

٥ — ونحن ، الى ذلك ، نشعر شعوراً مبهماً بجمهرة من الصور الاخرى مستعدة للظهور اذا ترك لها الوقت ويمكننا القول بأنها تحت شعورية تتدافع نحو عتبة الشعور .

٦ — وفي احيان اندر مما يظن ، يوجد **نوع من الصورة المتوسطة المركبة** مؤلفة من امتزاج عدة صور خاصة . وهذا الامر غير ممكن بالنسبة لفكرة الطير ؛ اما من اجل فكرة صنف اضيق ، ولاسيما اذا لم نكن قد رأينا منه الا بعض نماذج ، فتظهر الصورة الناتجة عن المزج دون ادنى تماشك . ففي نفسنا مثلاً نوع من الفكرة المتوسطة عن الفيل .

٧ — ويحدث حادث سلبي هام جداً لا يهتم به علماء النفس اهتماماً كافياً هو **حادث عزل او ايقاف** : رفض قبول بعض صور . فمثلاً في حالة التفكير في الطيور يمكن ان يخطر ببالي ، بواسطة تداعي الافكار ، الخفاش او حتى الطيارة فأقاومها وأدعها جانباً . وبتعبير آخر **الفكرة العامة هي فكرة من نوع ارادي يقاوم ويدافع عوضاً عن أن يستسلم لكل فكرة تخطر** (كما في الحلم اواحلام اليقظة) .

ولا يسعنا بهذه المناسبة الا ان نذكر بأهمية الحوادث السلبية في علم النفس فيجب علينا ان نفكر دائماً فيما لا نعمل وفيما نمنع وفيما نرفض عمله .

٨ — وزيادة على ذلك فنحن **نجتنب بعض عناصر في الصورة** نفسها التي نسمح لها بالخطور ؛ فنحن لا ننظر الى كل الاجزاء بصورة متساوية فنتغاضى في هذه الطيور التي ترد على اذهاننا عن لونها وقامتها مثلاً وبتعبير آخر لا يتجه انتباهنا الا الى بعض الاجزاء وبعض الصفات .

٩ — وبعد هذا التحليل الابتدائي يظهر لنا **التفكير بالمفاهيم وكأنه شكل جديد من النظر الى الصور** : ففي التخيل ننظر اليها بحد ذاتها ومن اجلها نفسها ، وفي التذكر ننظر اليها على انها علامات لحادث واقعي ماض ، اما هنا فننظر اليها جزئياً مهملين الاقسام الخاصة او المتغيرة موجهين الانتباه الى الاقسام الثابتة الدائمة

ويجب ان لا يستنتج من هذا اننا نقارن واننا ندرك الصفات العامة والدائمة بل يوجد سبب أبسط من هذا بكثير يوجه انتباهنا وهو الكلمة ، فكلمة طير لفظة أمام طيور كبيرة او صغيرة ، بيضاء او سوداء ، فهي لذلك لا ترتبط الا ارتباطاً ضعيفاً جداً بلون ما او قامة ما ، وبالتالي تميل هذه الصفات الى البقاء في منطقة الظل

١٠ — وما من شك في انه **بازدياد نماء الفكر ، وبصورة خاصة في الوضع العلمي ، ندرك الافكار نفسها بواسطة مقارنة عاقلة وادراك للشيء وتجريد طرائقي** . ولكن هذه المفاهيم تكون حينئذ خاصة بالعلماء ونحن انما ندرس المفهوم كما هو في التفكير العفوي ، في تفكيرنا جميعنا .

ومع ذلك ، فبما ان توجيه الانتباه الكامل الى بعض صفات ينتج التجريد فانه يمكن ان **نقبل ترادفاً بين الفكرة المجردة والفكرة العامة ولا يوجد عملياً بينهما الا فرق الشمول والتضمن** فاذا فكرنا بصورة خاصة في الشمول قلنا فكرة عامة اما اذا فكرنا بصورة خاصة في التضمن قلنا فكرة مجردة .

ح — فائدة الافكار العامة

١١ — **تؤسس المفاهيم الفكر البشري عقبقة**، وبدونها نبقى في مرتبة العقل الحيواني .

انها **تخفف** على النفس كثيراً : والواقع ان الحالات الخاصة غير محدود عددها ولو انه كان علينا ان نتذكرها جميعها لازدحمت بها الذاكرة ازدحاماً هائلاً ، ولذلك فنحن نعوضها بصنف اي بنموذج وحيد مكون من بعض الصفات المجردة : فعوضاً عن السمك الفردي الذي لا يحصى اعتبر النموذج الحيواني للسمك وفي ذلك ، كما لا يخفى ، **توفير عظيم في الوقت والجهد** .

١٢ — وهي ، بعد ، تمنح النفس **وضوحاً** : فالاشياء الخاصة تمثل لاذهاننا مشوشة مضطربة ولذلك كان التفكير بالصور تفكيراً مضطرباً اما التفكير بالفكر العامة فهو استبدال هذا التشويش بزمر معينة بوضوح لا تجمع فيها الا الكائنات المتشابهة حقاً .

١٣ — **تزيد مدى المعرفة** زيادة عظيمة : فبواسطتها نفكر دفعة واحدة في جمهرة من الاشياء او الحوادث الماضية والحاضرة والمستقبلة . وهناك مفاهيم نفكر بواسطتها في العالم اجمع كالذرة مثلا .

١٤ — وهي **عناصر العلم** بنفسها فبحسب قول سقراط المشهور **لا علم الا بالكليات** وهذا القول صحيح :

١ً — سواء أنظرنا الى **هدف العلم** : لان هذا الهدف هو **التنبؤ** ولايمكن التنبؤ الا اذا استخلصنا من العناصر الفردية العنصر الثابت الدائم اي المفهوم .

٢ً — اوخصنا **نتائج العمل العلمي** : لان هذه النتائج هي **القوانين والتصانيف** فكل علم يتكثف على هذا الشكل او ذاك . وليست القوانين الا اتصال الافكار

العامة وليست التصانيف الا تقسيم المفاهيم الكبرى الى مفاهيم اضيق .

٣ — او اذا قدرنا **درجة كمال العلوم** : لاننا سوف نرى حينئذ بأن اكثر العلوم كمالاً هي اكثرها عمومية وتجريداً ، اي الرياضيات ، وان اقلها كمالاً هي اقلها تجريداً كعلم النفس والتاريخ .

د — أخطار الافكار العامة

١٥ — **اننا ندفع غالباً ثمن هذه الخدمات التي تقدمها لنا الافكار العامة** : ويجب ان لا نحسب ان الفكرة العامة شكل كامل من المعرفة : انها بالنسبة للانسان **تفوق ، اذا قورن بالحيوان ، ولكنها ضعف اذا قورن بنفس كاملة إلهية** .

١٦ — الخطر الرئيسي هو **الابتعاد عن الواقع** : فنحن عوضاً عن ان ننظر الى الاشياء نعتبر الفكرة الموجودة عندنا عن الاشياء ولذلك كان هذا النوع من التفكير تفكيراً بالاستعاضة ؛ فنحن عوضاً عن ان نلاحظ الناس نفكر دائماً في مفهومنا عن الانسان ، اي في فكرتنا العامة عنه ؛ وكل ذلك بوهم كثير ، ونحن نتحدث عن الحيوان ولكننا ننسى النمل او الكلاب نفسها ، وكثيراً ما ينتج عن كل ذلك ظلم أخلاقي كثير ، فعوضاً عن ان ترى في انسان ما هو في حد ذاته ، تحكم عليه بحسب الفئة التي ينتمي اليها : بحسب بلاده او عرقه او مهنته او عمره او جنسه او دينه .

١٧ — والخطر الثاني هو **اعتبار التجريد نفسه حقيقة** : وهذا هو احد الاوهام البشرية الكبرى فنحسب ان هناك شيئين متمايزين الحادث الملحوظ والفكرة المجردة التي استخلصناها منه ؛ زد على ذلك ظهور الفكرة المجردة لنا اكثر حقيقة وأهمية من الحادث نفسه ، الافيون ينوم فنحسب نحن ان الخاصة المنومة للافيون هي المنبع الحقيقي للحادث الواقعي . ونحن نتذكر الحوادث الماضية ولكننا نتصور ان التذكر هو السبب الذي يفسر الذكرى ؛ يشير ميزان الحرارة الى الدرجة

٣٩° عند مريض ما وهذا ما يسمى بالحمى فنحسب ان الحمى هي السبب في ارتفاع الحرارة الخ...

١٨ — وانتفاء هذا الوهم الذي يحسب التجريد حقيقة وسبباً هو الوضع العلمي الحديث بكامله ، ذلك الوضع الايجابي .

١٩ — والخطر الثالث هو **خطر الكلمات الفارغة** وهنا يختلط الامر بمسألة اللغة . والواقع ان التعليم ينقل الينا الافكار بشكل كلمات واسماء جنس ، ولكن يفوتنا العمل البطيء الذي اوصلها الى هذا الشكل فنعيد الكلمة دون ان نفكر بشيء وحتى كلمات كهذه : حرية ، مساواة ، اخوة قل من يفكر فيها واقعياً .

٢٠ — وخلاصة القول ليس التفكير بالاستعانة بالافكار العامة كمالاً ولا ضعفاً ، انه وسط بينها ، انه رمز حسن للطبيعة البشرية التي ليست حيوانية ولا الهية . ولو استطعنا التفكير بواسطة الحدس الحالي في كل الكائنات الفردية لكان ذلك اقوى واحكم ، ولكننا لانستطيع ان ندرك الا قليلاً من هذه الكائنات بواسطة الحدس اي بواسطة المعرفة المباشرة ولذلك يكون عظيماً ان نملك افكاراً عامة .

٢١ — والخاتمة العملية لهذا كله هي : **النفس الصحيحة هي التي تحافظ على التوازن بين الحدس والفكرة العامة** ، بين الحادث والمفهوم ولذلك كانت النتيجة التربيوية هي التالية : **في التعليم لا تفصل الفكرة عن الحدس اي عن ملاحظة الحوادث التي تحقق الفكرة ولكن ايضاً : لا حدس بلا فكرة .**

٥ — التجريد والتعميم عند الطفل

٢٢ — من الخطأ ان نأخذ برأي القائلين بأن القدرة على التجريد والتعميم لا تجلى في الاطفال الا بعد سن البلوغ ؛ والواقع أن **هذه القدرة موجودة فيهم جميعاً منذ الصغر** ، حتى ليقال انها موجودة فيهم ويستعملونها قبل ان يستطيعوا الكلام ؛ **ولكنها لا تترقى ولا يظهر اثرها واضحاً الا تدريجاً** . ولذلك كان من

واجب المربي ان يعوّد الطفل التجريد على ان لا يضايقه به ولا يتعدى مستواه وامكانيته وان يكون هذا التعويد عن طريق الحواس والمحسوسات .

ونحن اذا كنا نلاحظ ان الطفل يستصعب التجريد ويستعصي عليه فذلك لاسباب:

١) **تعدي المعلم مستوى الطفل العقلي:** فيقدم المعلم للطفل مفاهيم لا تتفق وسنه وتجريدات أعلى من مقدرته . ومقياس نضوج الطفل بالنسبة لتجريد ما هو استطاعته صوغ هذه الفكرة المجردة في قالب من عنده .

٢) **قلة مفردات الطفل :** وامتناعه عن زيادتها ، وهو لذلك لا يكاد يملك كلمة حتى يوسع معناها توسيعاً خاطئاً ؛ وبما انه لا يعرف قيمة الكلمات فلا يرى بأساً باستعمالها استعمالاً غير دقيق .

٣) **يدرك الطفل الشبه خيراً من ادراكه الاختلاف :** صعوبة التجريد في الصلات بين الاشباه والمختلفات ، فاذا كانت اوجه الشبه كثيرة فالامر هين يسير ، اما اذا زادت وجوه الاختلاف على وجوه الشبه فالامر عسير ، ويزداد عسر بازدياد وجوه الاختلاف هذا .

٤) **سرعة المعلم :** فالمعلم لا يترك للطفل وقتاً يفحص خلاله كيفية تكوّن التجريد بالسير من الفرد الى الجنس ، مع انه بحاجة الى صبر ولباقة ليوفق في ذلك ولكي يستطيع في الوقت المناسب ان ينتقل بالطفل من الحدس الى التجريد .

٢٣ — والطفل ميال الى التعميم ، يرى شبهاً بين اشياء غير متشابهة ويقارب بين اشياء لا وجه للشبه بينها بسبب جهله المقارنة . وبما ان ثروته من الكلمات ضئيلة فهو يوسع معاني الكلمات توسيعاً غير جائز . يستنتج بسرعة ويطلق أحكاماً خاطئة ولذلك فأفكار الطفل العامة ليس لها المعنى نفسه الذي لها عندنا وكثيراً ما يكون معنى الكلمات غامضاً في ذهنه مضطرباً ضيقاً . وكثيراً ما يكون تعميمه تبسيطياً لا اكثر ولا اقل .

و – الافكار العامة و التربية

٢٤ – **يحذر التجريد عن طريق الحدس:** يبدأ التعليم عن طريق الحواس ولاسيما العين : دروس الاشياء ، اللوح الاسود، الصور، النماذج ، ذوات الاشياء الخ ..

وليُذكر المعلم ان عليه ان يبدأ بالخاص ثم ينتقل الى العام وليس العكس كما يفعل الكثير من المعلمين المبتدئين ظناً منهم انهم يسيرون من البسيط الى المركب ، وناسين ان تجريد الفكرة يزداد بازدياد بساطتها .

واجب المعلم اذن ان يسير من المحسوس الى المجرد فيعلم اللغة قبل ان يعلم قواعدها ، ويعرّف على الاشياء قبل ان يعرفها .

٢٥ – **يجب اللجوء الى التعليل :** فالطفل يرى الاشياء على انها كل محسوس ونحضره للتجريد بتعويده على النظر في خصائص هذا الكل وتفاصيله وهذا لا يخالف ابداً القاعدة التربوية المعروفة ونعني بها **وجوب السير من الخاص الى العام .**

٢٦ – **يجب تقديم أمثال عديدة نخلص منها الى القاعدة :** فنسوق عدداً كافياً من الامثلة المحسوسة المختلفة التي تبرز النواحي المتباينة ثم نأخذ بيد التلميذ ليستخلص القاعدة او الفكرة العامة بنفسه .

٢٧ – **يجب ان ندل الطفل على الصلات التي تربط بين الافكار العامة المختلفة** (القوانين او القواعد المختلفة) فنري الطفل كيفية اتصال هذه الافكار العامة ؛ وهذا الأمر ضروري بصورة خاصة في العلوم المجردة .

ويجب ان نحذر ، في هذا الصدد ، معاملة الاطفال كما نعامل الاشخاص الكبار المتمكنين من معرفتهم كما يجب ان يحذر المعلم المرور من فكرة الى اخرى دون المرور بالرابط بينها او بما يمكن ان يربط بينها .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصل الاول

٢ — الجارم وأمين : الباب الثاني عشر

٣ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث : الفصل العاشر

٤ — قنديل ـ امين مرسى : الجزء الثاني : الفصل الثامن

٥ — المصري ـ ايريس : الفصل السادس عشر من الجزء الاول

الفصل الحادي عشر

الحكم

تصميم البحث

آ — العملية العقلية في الحكم :

ضم موضوع ما الى صنف او مفهوم معروف سابقاً ؛ وهذا العمل العقلي هو التفكير

ب — العمل الارادي في الحكم :

ينتهي الحكم الكامل بالتوكيد او الاعتقاد .

١ — طبيعة التوكيد : عمل حقيقي مؤلف من تعهد وامر .

٢ — قانون الاعتقاد ؛ قانون المتضادات .

٣ — اسباب الاعتقاد : آ) اسباب نفسية

ب) اسباب اجتماعية

الاعتقادات التأملية والعلمية .

ج — أحكام الطفل .

د — الحكم والتربية :

الادراكات والصور والذكريات والمفاهيم ، بصورة خاصة ، هي مادة العقل وهو يشتغل مستعيناً بها وعمله الاهم هو الحكم . وما الحكم الا **تأكيد وجود علاقة بين فكرتين** : الانسان حيوان فقاري ؛ **أو بين ادراك وفكرة** : هذا اللوح أسود . والحكم اذا عبر عنه يسمى جملة Proposition . وهو النتيجة لكل معرفة فكل دراسة تنتهي بحكم ؛ وهكذا تكون الحقائق الرياضية والفلكية والطبية والاخلاقية احكاماً .

وحينما يكون الحكم كاملاً لا يكون عملية عقلية فحسب ولكن عملاً ارادياً حقيقياً ايضاً .

أ — العملية العقلية في الحكم

١ — يمكن ، منطقياً ، أن تأخذ كل الجمل الشكل التالي : الثلج ابيض . احمد مذنب (مفهوم طبعاً ان هذا ليس صحيحاً نحوياً إذ يميز هناك بين نوعين من الجملة : الاسمي ، والفعلي . أما العمل البسيكولوجي فواحد في الاثنين) .

٢ — ولنتساءل الآن عن العملية العقلية التي تعبر عنها الجملة : أحمد مذنب . انها **عملية ضم وتصنيف** فنحن نضم الموضوع (احمد) الى زمرة معروفة هي زمرة المذنبين، وبتعبير آخر نسلك الموضوع في فكرة عامة او مفهوم . **فالحكم اذن استخدام مباشر للمفهوم** الذي يستفاد منه في نسبة الحالات الخاصة اليه شأننا في ذلك شأن الذي يضع في جارور معين مخصص شيئاً جديداً من النوع نفسه الذي يحتوي عليه الجارور .

٣ — وهذا هو العمل العقلي الرئيسي **فالتفكير هو الحكم** ونحن نحمل في نفوسنا في كل لحظة من حياتنا عدداً من المفاهيم اخذناها عن ماضينا او قل عدداً من الزمر المعروفة فلا نكاد نصادف شيئاً جديداً حتى نجهد في ضمه الى احدى هذه الزمر فادا وفقنا في ذلك كنا نعرف حقيقة او قل نفكر حقيقة . اما اذا لم نتوصل

الى ذلك فنحن انما نحس ولا نفكر . وهذا ما يحدث في صدد كثير من مواضيع الاحلام التي احسسنا بها احساساً قوياً ولكنا ندرك ، اثناء اليقظة ، عدم امكانية التفكير فيها لانها لا تقع ضمن أية زمرة معروفة . والطفل الذي يزور حديقة الحيوانات يضم الحيوانات العديدة الانواع الى الزمر القليلة التي يملك : القط ، الكلب ، الحصان . أما عالم الحيوان فيضمها الى زمر اكثر عدداً وضبطاً ؛ ولكن العمل الحقيقي في الحالين واحد . وهكذا تكون العملية العقلية في الحكم هي عملية ضم الموضوع الى زمرة معروفة سابقاً .

ف — العمل الارادي في الحكم

٤ — **حينما يكون الحكم كاملاً ينتهي بالتوكيد والاعتقاد** . وهذا الاعتقاد يعبر عنه باللهجة التي نلفظ بها هذا الحكم (ولا سيما المحمول منه) . ولكن قد يكون الحكم ناقصاً اي قد ندرك العلاقة ولا نؤكدها فمثلاً قد ارى ان المريخ مسكون ولكني لا أؤكد ذلك . الا الحادث السوي هو التوكيد .

٥ — **طبيعة التوكيد** : من السهل ان نتبين ان التوكيد **عمل عقلي** وغالباً **عمل ارادي** . والواقع ان **التوكيد هو التعهد** فحينما احكم بأن علياً بريء **أعد بشيئين** : فأنا اتعهد اولاً **بعدم قول العكس** في المستقبل والحاضر . وملحوظ ان غير المثقفين لا يثبتون غالباً عند حكم وهم على استعداد دائم لنقض حكمهم السابق سواء تحت تأثير احتجاج او تحت مجرد الرغبة في تغيير الرأي وهذا يعني فقط انهم لا يحسنون المحاكمة والتوكيد . وانا ، **بعد ، اتعهد بأن اتصرف تصرفاً ينفي مع عكسي** فالتوكيد بأن علياً بريء معناه التعهد بمعاملته معاملة الابرياء .

٦ — **والتوكيد ، ثانياً ، هو الامر** . نعم انه امر متحفظ ، مخفف ، مهذب ، ولكنه امر ، في كل حال ؛ فأنا حين أؤكد اعتقاداً ما ادعو السامع لأن يكون من رأيي ، وهذا هو السبب في ان عدم التسامح ، ذلك العيب الفاضح ،

ليس إلا حادثاً طبيعياً ، ويجب ان يكون الانسان على درجة عالية من الثقافة لكي يعتقد اعتقاداً جازماً بعكس ماتعتقد الجماعة . ولعلنا لانبالغ اذا قلنا ان من المستحيل أن يوفق الانسان في هذا الصدد توفيقاً مطلقاً .

قانون التوكيد

٧ — اعتقاداتنا محصورة في قانون بسيط جداً هو : **كل جملة لا تصادف افكاراً مضادة تؤكد على انها حقيقة** . واثبات هذا القانون سهل ، لنفكر مثلاً في سذاجة (سرعة التصديق) الابتدائيين ، من شعوب واطفال ، اللذين يقبلون كل توكيد لانهم يجهلون الافكار المعاكسة فنؤمن بصحته؛والاعتراض فقط هو القادر على منعي عن تصديق ما يؤكد لي .

٨ — ينتج عن هذا ان اعتقاداتنا ونفينا وشكوكنا متعلقة تعلقاً شديداً بنوعين من الاسباب : النوع الاول هو الذي يقدم لنا الفكرة بقوة ، والنوع الثاني هو الذي يجنب الافكار المعاكسة .

٩ — ١) **نوعان من الاسباب يقدران أن يدخلا في نفوسنا اعتقادا جازماً تقريباً** : **الرغبة** اولاً : فنحن نقبل بعض آراء لاننا نرغب في تصديقها دون ان يكون للسبب او الاسباب كبير اهمية . ولذلك كان **الهوى** الذي هو رغبة مستحكمة ، ذا قوة عظيمة في جعلنا نعتقد ان الكائنات تشبه الصور التي نكونها عنها .

١٠ — **ثم الاسباب الاجتماعية** اي تأثير الوسط الاجتماعي القوي : العائلة ، الطبيعة ، المدنية الخ ... فحينما يعتقد المجموع شيئاً يكاد يكون من المستحيل ان لا يشاطر الفرد مجموعه هذا الرأي . ولذلك كانت هناك كثير من الاعتقادات التي لم نشك فيها لا لشيء إلا لانها جزء من العقلية المشتركة . فنحن جميعاً نعتقد ان الارض تدور وذلك لان هذا الاعتقاد عالمي في عصرنا أما القدماء فقد كانوا يرون انها ثابتة للسبب نفسه . ولقد اظهرت الدراسات الاجتماعية للجماعات المتوحشة ان

اثر الاعتقادات غرابة مقبولة اذا كانت عامة مشتركة بالفعل .

٢) والاسباب التي تباعد بيننا وبين الافكار المعاكسة هي :

١١ — اولاً : **الجهل** اي غياب الافكار التي يمكن ان تمنع التوكيد . وهذا هو السبب في ان اكثر اخطائنا راجعة الى الجهل . ثم **النسيان وضعف الذاكرة** اللتي تعمل عمل الجهل لانها جهل موقت . وعلى العكس فان ضبط الذاكرة واماتتها تقدم لنا الفكرة اللازمة في الوقت المناسب . وهذا هو السبب في وجوب عدم تقليل من أهمية الذاكرة القوية . واخيراً **الارادة** التي يمكن ان تعاكس التوكيد حتى في حال غياب الاحتجاج فتضبط ، وتسمح للافكار المضادة بالظهور .

١٢ — **وبفضل تدخل الارادة نستطيع روح النقد ان تراقب تأكيداتنا** فنمر حينئذ الى نوع آخر من الاعتقادات هي **الاعتقادات التأملية** التي خضعت للامتحان قاس وراقبها العقل وقارنها بالحوادث الواقعية **وهذه هي التأكيدات العلمية** ثمرة المنهج والتحقق غير المتحيز .

والخلاصة فإن الإنسان ، في الحالة الطبيعية ، يعتقد ما يرغب في اعتقاده او مايؤكده المحيط وحينما تنمو روح النقد يعتقد الانسان بعد المراقبة اي بعد ان يبحث بانتباه في الأفكار المعاكسة .

ح - أحكام الطفل

١٣ — يبدأ الطفل فيعبر عن احكامه بأعمال ، حتى اذا بدأ يتكلم عبر عنها بكلمة فردية ثم تغنى لغته قليلاً قليلاً فيعبر عن احكامه بجمل كاملة. واحكام الطفل خاطئة في كثير من الأحيان ومرد ذلك الى سببين رئيسيين :

(١) سرعة تكوينها .

(٢) نقص المعلومات والاسباب التي بنى عليها هذه الأحكام .

وهذان السببان يفسران صفات احكام الأطفال جميعها .

١ — **يندفع الطفل في احكامه** : فهو لا يفكر قبل ان يحكم ويدفعه هوا
الذي يتحكم في افكاره وكلامه الى احكام خاطئة . ومن السهل اليسير ان نوجه
للطفل احكاماً كثيرة . وكثيراً ما يجري وراء خيالاته ولكن السن يقضي على هذ
الاخطاء كلها .

٢ — **احكام الطفل مطلقة** : فهو لا يرى المسائل الا من وجهة واحدة ولذلك
تبدو الحلول ، في نظره ، سهلة واكيدة . والاطفال الذين يحكمون بتردد وخجل
قليل عديدهم .

٣ — **لا يتروى الطفل في احكامه** : وكثيراً ما يكون الآباء السبب
هذا بما يسوقونه اليه من مديح وملق مع ان من واجبهم تعويد اطفالهم الروية .

٤ — **يحكم الطفل بالتقليد** : فهو مؤمن بالامر الفلاني لان فلاناً قاله، ولذ
كان من واجب المحيطين به ان يراعوا الدقة والصحة في احكامهم .

٥ — **يحكم الطفل بهواه ومصالحه** : ولذلك فهو لا يقبل بسهولة كل ما
يمس عواطفه او يخالف مصالحه أو يتعارض مع ميوله وعاداته ولذلك كان لابد
تربية عاطفته وارادته وعقله للقضاء على هذه الأهواء وتحكمها .

د — الحكم والتربية

١٤ — **اهمية تربية الحكم** : عنيت التربية قديماً بالذاكرة اكثر من عنايتها
بالعقل ، فحشيت اذهان الطلاب بمختلف المعلومات وطولبوا بحفظها عن ظهر
ودونما فهم في اغلب الأحيان ، فكان ان تفشت الببغائية فيهم وارتدوا الى آ
تردد ما حفظت ولا تستطيع الاستفادة من هذا الذي حفظت ولا سيما اذا اختل
الظروف اقل اختلاف . ليذكر المربي ان مامن شيء يمكن ان يقوم مقام الحك
ربما أدى الافراط في استخدام الذاكرة وحشوها الى جهل الطرق المثلى للتصر
أما الاغراق في الخيال فنتيجته ابعادنا عن عالم الواقع وضروراته . واما حين نس
على العقل فالطريق مأمون والصراط مستقيم ، ولذلك وجب ان يكون عمل

بط أحكام الطفل وتعويده الاعتماد على العقل ودقة الأحكام .

١٥ — **ويجب ان نبدأ هذه التربية منذ مراحل التعليم الاولى :** أحكام طفل الأولى تستند الى الخبرة والتجربة ، ومن هنا يجب الأخذ بيده الى احكام كثر عمومية . ومن واجب المربي ان يتسامح ازاء احكام الطفل التي يظهر فيها بتكار وذلك لأنها بواكير تفكيره الشخصي .

١٦ — **ويجب ان ندفع الطفل الى الاحكام الشخصية وان نشجعه عليها :** ذلك ممكن في كل الدروس والمناسبات . ولكن هذا لايعني ان ندعه لهذه الاحكام شخصية والتشبث بها ، إذ ان ذلك قد يؤدي الى تمرده على كل ضبط ونظام تشككه في كل ما يقال له وعدم ايمانه بمربيه .

١٧ — **ويجب ان نتعدى الصف الى الحياة الخارجية :** فلانكتفي بتقوية روح لحكم عنده داخل الصف فقط بل نخرج الى الحياة . وكل الدروس تساعدنا في ذلك

١٨ — **ومن واجبنا تجنيب الطفل التعبير الكتابي الزائد :** صحيح أن لكتاب ضروري لا يمكن الاستغناء عنه ، ولكن ذلك لا يعني المبالغة في استعماله ؛ فكلام المعلم ذو قيمة ، وكلام الطفل نفسه وأحكامه ذات قيمة اكثر .

١٩ — **ومن واجبنا ايضاً تنمية سعة الصدر عند الطفل :** فلا يصم أذنيه دون الأفكار الجديدة والأحكام الصائبة التي قد تخالف معتقداته وأحكامه السابقة . ولنذكر ان ضيق العقل مرده الى الجهل في الدرجة الأولى ، فالجهال ينظرون عادة الى ما يخالف معتقداتهم وأحكامهم نظرة خوف وشك وحذر . وقد يكون سبب ضيق العقل تخصص مبكر فلنحذره .

٢٠ — **يجب تكوين الاحكام باغناء الذاكرة :** فالذاكرة خير عون للحكم ، ونحن نحفظ بسرعة ما نفهمه جيداً والذاكرة تقدم للحكم مواداً يمزج بينها ويستفيد منها ، والمثل الأعلى هو خلق ادمغة جيدة التكوين ، مليئة .

٢١ — **ويجب على المعلم ان يعطي الطالب اقل ما يمكنه من الحلول الجاهزة :**

إذ يجب ان يكون الطفل فاعلاً لامنفعلاً، والمعلم اللبق معلم يوجه طلابه الى البحث والتنقيب بأنفسهم عن حلول المشاكل التي تصادفهم في دروسهم ما امكن ولا يتدخل الا حين اللزوم .

٢٢ — **ويجب ان نعود الطفل النظر في سلوكه والحكم عليه** : اذ ان الطفل ، في الغالب ، مفرط في حسن الظن بنفسه ، فمن الضروري اذن ، ان نعيده الى جادة الصواب وان تكون هذه العودة بمحض رغبته ونتيجة لتعوده الحكم على اعماله والاعتراف بما فيها من صلاح أو طلاح .

٢٣ — وليذكر المعلم **أهمية تربية العواطف** : فالأهواء أهم مصدر للأحكام الخاطئة الجارفة وكثيراً ما يدفع الغرور الطفل الى اكثر الأحكام خطأ وفساداً ، فعلينا ، منذ البدء ، ان نعود الطفل تقدير نفسه حق قدرها فلا يبالغن في أهميته ومقدراته ولا يتجاوزن حدوده ولا يتعدين حقوق الغير . وحذار من اطراء ذكائه وجماله وقوته وليذكّرن بأن الآخرين لا يقلون عنه ذكاءً وجمالاً وقوة ان لم يزيدوه .وليعود الطفل الانصاف واحقاق الحق .

٢٤ — **من واجبنا تنمية روح النقد** عند الاطفال : وعمل روح النقد هذا مراقبة احكامنا واعتقاداتنا وضبطها ، انها تتحرى اسباب التصديق وتقوي مبادئ الاعتقاد وتؤكد القناعة فتدفع بهذا كله الى العمل المثمر ..

انها تتكون ، تدريجياً ، في المدرسة ، وبواسطة كل ما يكمل الافكار ويقومها والمقارنة طريقة هامة من طرائق تنشئة روح النقد هذه . ويمكن تنمية هذا الروح في كل درس من الدروس بدون استثناء .

ولكن يجب ان نحذر انقلاب هذه الروح الى الشكوكية الهدامة .

٢٥ — واخيراً من واجبنا **تجنيب الطفل السذاجة الزائدة** والتصديق السريع كما ان من واجبنا **تعويده التصدي حين تقوم البراهين الصحيحة** . والدافع الاساسي لسرعة التصديق هو البداهة . فالحقيقة التي تظهر للنفس بوضوح شديد

تدفع بها (اي بالنفس) الى الموافقة . ولكي تترك حقيقة ما هذا الاثر يجب ان تتمتع بشروط ثلاثة هي :

(١) الصحة . (٢) الوضوح الكافي بذاتها او بغيرها . (٣) التأثير على العقل .

ولكن ليس لكل الحقائق النوع نفسه من البداهة والصحة ؛ فالأنواع الثلاثة من الحقائق ، الطبيعي والأخلاقي والميتافيزيكي ، تقابلها انواع ثلاثة من الصحة وبالتالي انواع ثلاثة من التأكيد . اما الصحة الطبيعية فتدرك بالاختبار الحسن ، واما الصحة الاخلاقية فمردها الى الوجدان وأما الصحة الميتافيزيكية فتدرك بالعقل.

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصل الثاني

١ — الجارم وأمين : الباب الثاني عشر

٢ — خلف الله ـ محمد : الجزء الاول ، الفصلان الثالث والرابع

٣ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث ، الفصل الثاني عشر

٥ — قنديل ـ امين مرسى : الجزء الثاني ، الفصل الثامن

الفصل الثاني عشر

المحاكمة

تصميم البحث

أ — الاستنتاج :

١ً — الهدف العقلي المثلث : الاثبات ، التفسير ، التنبؤ .

٢ً — الهدف العملي الحقيقي : إفحام الخصم وقيادته الى قبول النتيجة لئلا يتهم بالسخف .

ب — الاستقراء :

الانتقال من الحوادث الى القانون

١ً — طبيعة العمل الاستقرائي : جعل علاقة ملحوظة في بعض الحالات تشمل كل الازمنة .

٢ً — اصله : التوقع الناشئ عن العادة .

٣ً — اساسه : اعتقاد جازم بنظام الطبيعة ووحدتها اي بالوفاق بين الطبيعة والعقل البشري .

ج — التمثيل :

١ً — طبيعته ، علاقته بالاستنتاج والاستقراء .

٢ً — قيمته : تقدير درجة الاختلاف بين الحالتين المراد تشبيههما .

٣ً — أهميته : ١ً) ثابتة في الحياة العملية .

٢ً) متزايد الاهمية في العلوم ابتداء من الرياضيات ، حيث يكاد يكون عديم الاهمية ، حتى نصل التاريخ حيث يكون اساسياً .

٣ً) هدف مزدوج : التنبؤ — التفسير .

د — ملحق :

حاجات العقل الاساسية :

١ — الحاجة الى التفسير : اكثرها ابتدائية ، الشكل الهام : الحاجة الى سبب .

٢ — الحاجة الى الحقيقة : ١ً) حاجة للاتفاق مع النفس : مبدأ التناقض .

٢ً) حاجة الاتفاق مع الحقائق : يتأخر ظهورها وهي قليلة السيادة يوصف بها الوضع العلمي الحقيقي .

ه — محاكمات الاطفال . **و — المحاكمة والتربية .**

المحاكمة هي استخلاص حكم من حكم وجملة من اخرى . والمحاكمة على انواع ثلاثة هي : التمثيل والاستنتاج والاستقراء . وأبسط هذه الانواع واكثرها شيوعاً هو التمثيل . ولو أردنا ان نتابع التكامل الحقيقي للذهن لوجب ان نبدأ بالتمثيل ولكننا ، للوضوح والسهولة ، لن ندرسه الا بعدها .

آ — الاستنتاج

١ — **هو استخلاص حكم خاص (اقل عمومية) من حكم عام يتضمنه .** وفي بعض الاحيان يكون الحكمان متساويين من حيث العمومية . ومثال ذلك قولنا : كل الناس يخطئون ، إذن فالقضاة يخطئون .

هذا وان معرفة الطريقة الواجب اتباعها للاستنتاج الصحيح وقواعد ذلك الاستنتاج الصحيح واشكال القياس هي أمور يبحثها المنطق لا علم النفس . فالمسألة هي التالية : ماذا نعمل حين الاستنتاج (الصحيح او الخاطئ) ؟ وما هي ميكانيكية العملية الاستنتاجية وهدفها ؟

٢ — **اما الميكانيكية فمشابهة للميكانيكية التي وصفناها حين درسنا الحكم .** ولقد رأينا آنئذ ان العمل الذهني في الحكم هو ضم شيء اوفكرة الى مفهوم معروف سابقاً ، فالحكم بأن للهواء وزناً هو اضافة الهواء الى زمرة الاشياء ذوات الوزن .

وهنا توجد عملية مشابهة لهذه العملية كل المشابهة ، وهي تنحصر في **إدراك حالة خاصة ضمن قاعدة عامة** فمثلاً : على اعتبار قبولنا القاعدة العامة بأن كل الناس يخطئون أظهر الآن بأن القضاة هم حالة خاصة من القاعدة العامة . ولو اردت ان اعطي هذه المحاكمة شكلها المنطقي لقلت : كل الناس يخطئون ، والقضاة اناس ، اذن فهم يخطئون . ولكن هذا الشكل الاساسي بالنسبة للمناطقة ليس على شيء كثير من الاهمية بالنسبة الينا ، اذ ان ما يهمنا هو العمل الذهني وهذا العمل الذهني هو الرؤية ، اي الحدس بضم حالة خاصة الى قاعدة عامة .

٣ — وينتج عن هذا ان **اتجاه محاكمتنا يمكن ان يختلف دون ان تتغير طبيعة العملية**، فأنا استطيع ان أبدأ من الحالة الخاصة باحثاً عن القاعدة العامة التي تتعلق الحالة الخاصة بها ؛ او على العكس استطيع ان أبدأ بالقاعدة العامة باحثاً عن حالة خاصة موجودة فيها ، وفي الحالتين أقوم بالعملية الاستنتاجية نفسها .

٤ — وفي الواقع يجري ، طبيعياً ، الاولى أحياناً والثانية احيـــاناً اخرى بحسب هدفنا الذي إما ان يكون : البرهان او التفسير او التنبؤ . فان كان هدفي البرهان فأنا اعرف اولاً الحكم الذي اريد البرهنة عليه : فمثلاً يريد المحامي ان يبرهن على ان المتهم بريء رغم قتله فحينئذ يلجأ الى القاعدة العامة القائلة بأن الانسان في حالة الدفاع المشروع عن النفس ، بريء .

٥ — وقل الامر نفسه حين نستنتج لكي نفسر ؛ فتفسير حادث هو ايجاد حكم عام متفق على صحته ينتج عنه الحادث المراد تفسيره ، وهكذا يكون تفسير موت انسان بإراءة كونه ناتجاً عن قانون معروف : هو ، مثلاً ، ان حامض الفحم يسمم فيميت . وتفسير قانون ما هو إظهار انه ناتج عن قانون آخر أعم وأوسع فسقوط الاجسام مثلا قد فسر ، حين استنتج ، بالجاذبية العالمية .

٦ — هذا وقد نستنتج للتنبؤ ، وحينئذ نسير من القاعدة العامة الى الحالة الخاصة ؛ ففي حالة وجود هذه المبادىء التي أقبل يمكنني ان اتنبأ بأن النتائج التالية ستحصل، فنظرية نيوتن وقوانين كبلر تسمح لنا بالتنبؤ في كل لحظة عن وضع النجوم .

٧ — ويظهر الاستنتاج في الحياة العادية ، في المناقشات والمناظرات كسلاح جدلي فيحاول المناظر ، بصورة عامة ، جعل خصمه يقبل الحد الاكبر فاذا قبله كان معنى ذلك انه أخم ، لانه سيقر على نفسه بالتناقض والسخف اذا قبله ولم يقبل النتيجة [اذا كان الاستنتاج صحيحاً] . ولقد استخدم سقراط في محاوراته هذه الطريقة بفن ولباقة فقد كان يبدأ بعرض حدود كبرى يقبلها الخصم بابتسام وتهاون بقيمتها وعلى اعتبارها بديهية ومن ثم يبدأ سقراط بالتحكم في خصمه . **فالاستنتاج ازن قبل ان يصبح طريقة علمية ورياضية ، واسطة للهجوم أو الدفاع**

وسيلة لإفحام الخصم . ذلك هو المعنى البسيكولوجي لهذا النوع من المحاكمة اي اهمية السلوك البشري .

ومن خصائص المنطق وفلسفة العلوم ان تحكم على اهميته في الرياضيات والعلوم المختلفة وعلى قيمته .

ب — الاستقراء

٨ — **الاستقراء هو الانتقال من الحوادث الى القانون** : فأنا مثلاً قد لاحظت في عدد من الحالات المختارة جيداً ان الابرة الممغنطة تنحرف اذا كانت في جوار تيار كهربائي فأستنتج من ذلك ان التيار يسبب انحراف الابرة في كل زمان ومكان .

٩ — وظاهر ان هذه العملية **هي توسيع ما لوحظ في جزء يسير من الزمن الى المستقبل** ، او قل الى كل الاوقات ، بل الاصح ان نقول انها الانتقال الى غير الزمني : فللحوادث الملاحظة تاريخ، اما القانون فليس له .

١٠ — ما العمل للاستقراء المضبوط ؟ وما هي القواعد والطرق والمناهج الواجب اتباعها ؟ تلك هي مشكلة منطقية لا علاقة لنا بها .

اما المشكلة البسيكولوجية فهي التالية : كثيراً ما نستقرئ (بصورة صحيحة او خاطئة) ، **والتعميم امر طبيعي ابتدائي** والطفل يجريه دائماً ، فهو يحول مصادفاته التي نعتبرها نحن احوالاً خاصة الى قوانين فيعلن ان لكل الآباء لحىً وان كل الكلاب سود (ككلبه) الخ... **فمن اين تأتي هذه النزعة للتعميم** ؟ ولماذا كان من الغريزي ان نطلق قوانين (دونما معرفة او تمييز بين الصحيح والخاطىء ؟) .

١١ — **الشكل الابتدائي للاستقراء هو الانتظار الناتج عن العادة** : فالطفل الذي حرقه الموقد عدة مرات ينتظر ان يحترق حينما يرى الموقد ، والحيوان نفسه الذي يرى البرق ينتظر الرعد الخ ... وكل هذه الحوادث ، التي هي حوادث

عادة ابتدائية ، ليست الاستقراء نفسه ، ولكن طلائعه . والواقع يكفي ان يكون الانسان قادراً على التفكير والكلام ليكوّن تداعيات الافكار هذه بواسطة جمل كالآتية : النار تحرق ، للبرق صلة بالرعد الخ ... التي هي قوانين ، نعم انها قوانين قليلة الصقل ، قليلة الحظ من العلم ، قليلة التحقيق ؛ ولكنها قوانين في كل حال فليس الاستقراء اذن الا تعبير الفكر عن انتظار امور اعتادها .

١٢ — ويوجه عادة الى هذا التفسير الانتقاد التالي : « وهو الخلط الخاطئ بين الاستقراء وبين العادة الذهنية البسيطة او تداعي الافكار » . والواقع ان الحادثين مختلفان كل الاختلاف فالعادة حادث آلي خلقه التكرار : فأنا حين ارى (آ) افكر آلياً في (ب) لأني كنت دائماً ارى (آ) مع (ب) . اما الاستقراء فهو ، على العكس ، عملية عقلية معقولة فأنا لا اقبل قانوناً بين (آ) و (ب) الا اذا كنت قد اكتشفت بينهما رابطاً حقيقاً كصلة السببية مثلاً .

١٣ — في هذا الاحتجاج ابهام إذ يجب ان نميز جيداً بين عملية عقلية ما وعمل مراقبة هذه العملية . فنفوسنا تتصف بوظيفة المراقبة ، اي قوة تميز الصحيح من الخاطئ . وهذه القوة هي العقل نفسه . واية فكرة من افكارنا يمكن ان تتكون برقابة العقل احياناً وبدونها احياناً اخرى . فأنا مثلاً اعتقد اعتقادات اضبطها ولا اراقبها وهي موجودة في نفسي إما لاني تلقيتها جاهزة ، او لاني قد ارغب بأن تكون صحيحة . كما ان في نفسي اعتقادات اضبطها واراقبها وقد تحققت من صحتها او عدمها . والامر فيما يتعلق بالاستقراء هو من هذا القبيل . فحينما يصدر عن عالم يكون مضبوطاً كل الضبط ، وليس القانون مقبولاً الا اذا خضع لشروط منطقية دقيقة كل الدقة ؛ اما اذا صدر عن التفكير العامي فهو قليل الضبط عديمه ، وقد يكون في اغلب الاحيان خاطئاً . ولكن العملية الاستقرائية متماثلة في الحالتين والفرق فقط هو انه في احدى الحالتين يقتصر على الاستقراء فقط ، اما في حالة العالم فيضاف اليه عملية نقد .

١٤ — وعملية النقد هذه يديرها وينظمها المنهج التجريبي الذي يصوغه المنطق معيناً كيفية الملاحظة وكيفية التجريب وكيفية قدر فرضية وكيفية التحقق منها قبل تحويلها الى قانون .

١٥ — ويثير الاستقراء مشكلة فلسفية هي : **بأي حق نضع القوانين ؟** وما مصدر إقدامنا على توسيع ما لاحظناه في وقت قصير حتى يشمل كل الاوقات ؟ ولماذا لا نكتفي بالقول : حتى الآن ومنذ ان لاحظنا الحادث (آ) فانه قد رافق الحادث (ب) ؟ وما معنى هذه الشجاعة المدهشة في قولنا : في كل زمان ومكان يظهر (آ) يظهور (ب) ؟

١٦ — اكيد ان السبب السري لهذه العملية هي اعتقاد موجود في نفوسنا ، **وهو الاعتقاد بالنظام والوحدة في الطبيعة** . ومن الجلي الواضح انه لولا وجود هذا الاعتقاد في نفوسنا ، على علم او غير علم منا ، لما اكدنا شيئاً للمستقبل . فالعالم ، إذن ، الذي يطلق قانوناً يعتقد ، سواء أعرف ام لم يعرف ، بثبات الطبيعة .

١٧ — **ولكن ما معنى الايمان بنظام ثابت للعالم ؟** انه ليس الا **التأكيد بأن العالم مطابق لضرورات عقلنا وحاجاته** : فهو عقلنا الذي يريده منتظماً ، ويريد الحوادث المتصلة في الماضي متصلة كذلك في المستقبل ، وان لا يكون هناك فوضى ! وعدم انسجام عقلنا هو الذي يحتم النظامية والثبات اللذين يسمحان بالتنبؤ وحساب الحوادث ، وينتج عن هذا ان العالم الذي يؤكد قانوناً يؤكد في الوقت نفسه ان الطبيعة متناسقة منسجمة مع العقل البشري وان للطبيعة في ذاتها شيئاً من المعقول .

١٨ — **ولكنه القول بأن في العالم عقلاً يعني تقريباً القول بأن العالم محكوم بعقل سام او قل انه صنع إلهي** (الله — العقل Dieu — Raison) . وهكذا نرى ان مسألة الاستقراء التي كانت في البدء بسيكولوجية ومنطقية فقط تتعالى الى المرتبة الميتافيزكية . والخلاصة فالعالم الذي يستقرئ يقول ، على غير علم منه ، بوجود عقل سام يعمل في الكون حتى ولو ظن هذا العالم انه مادي كافر .

ح — التمثيل

١٩ — المحاكمة بالتمثيل **هي ان توسع حكمك على حالة معروفة فتجعله يشمل حالة اخرى مماثلة** ، اي فيها بعض الشبه للحالة الاولى وبعض الاختلاف عنها ، ومثال ذلك ملاحظتي ان الحديد يتمدد بالحرارة واستنتاجي من ذلك ان النحاس ايضاً يجب ان يتمدد بالحرارة .

ولكي يكون لدينا فكرة واضحة عن هذا النوع من المحاكمة ندرس طبيعته وقيمته ووظيفته :

طبيعة التمثيل : يمكن درس التمثيل بمقارنته الاستنتاج والاستقراء . ويتضح الفرق بين الاستنتاج والتمثيل اذا اعتبرنا **نتيجة واحدة** حصلنا عليها بالعمليتين ولتكن النتيجة التالية « يتمدد النحاس بالحرارة » . ففي الاستنتاج احصل على هذه النتيجة من حكم اعم يشملها وهو « كل معدن يتمدد بالحرارة » اما في التمثيل فأنا أحصل عليها من حكم ليس اعم منها ولا يحتوي عليها وهو « الحديد يتمدد بالحرارة » فرمز الاستنتاج اذن دائرتان مشتركتان في المركز ، اما رمز التمثيل فدائرتان خارجتان عن بعضهما .

ويتضح الفرق بين الاستقراء والتمثيل بمقارنة من النوع نفسه ؛ ولكننا في هذه المرة نفترض **نقطة مسير واحدة** ، ثم نلاحظ اختلاف نقاط الوصول فلنعتبر نقطة المسير الواحدة هي الحكم التالي : « الحديد يتمدد » ، فأنا حين استقرى اصل الى الحكم التالي : « كل حديد يتمدد » وحين احاكم بالتمثيل اصل الى الحكم التالي : « النحاس يتمدد » . ففي الاستقراء إذن اسير من الشيء الى نفسه ، اي من الحديد الى الحديد (بالتعميم في الزمان فقط) ؛ اما في التمثيل فانا اسير من المثيل الى المثيل ، اي من المختلف الى المختلف ، لان الشيئين المتماثلين يختلفان كما يتشابهان . يتضح اذن ان هذا النوع من المحاكمة يختلف عن النوعين السابقين فكيف يتكون وكيف نمر من الحديد الى النحاس ؟

٢٠ — ظاهرياً نمر رأساً وفي نوع من القفز . فكأن النفس تقفز من الحالة الاولى ، اي الحديد ، الى الثانية ، اي النحاس . ولكن الحقيقة هي ان المرور يحدث على مرحلتين: فأنا حين اعتبر في المرحلة الأولى ان الحديد يتمدد الاحظ حداً اكبر عاماً وهو : كل معدن يتمدد ؛ وفي المرحلة الثانية امر بصورة طبيعية الى النتيجة : النحاس يتمدد .

ما هما المرحلتان ؟

٢١ — لننظر اولاً في المرحلة الثانية ، لأنها اسهل للفهم ؛ انها ، بكل تأكيد ، استنتاج قياسي تماماً : كل معدن يتمدد بالحرارة ، وبما ان النحاس معدن ، فهو اذن يتمدد بالحرارة . ذلك هو القياس النموذجي فليس فيه غموض .

٢٢ — اما فيما يتعلق بالمرحلة الاولى فالتفسير يحتاج الى لباقة اكثر . فلأول وهلة يظهر انه يوجد استقراء بسيط : يتمدد الحديد فالمعادن كلها يجب ان تتمدد ، ولكنها نظرة ليست على شيء كثير من الدقة . والواقع ان الاستقراء المحض هو : الحديد يتمدد ، اذن فالحديد سيتمدد في كل زمان ومكان . والاستقراء لا يعطيني الحق بالمرور من الحديد الى حالة مختلفة ولكنه يعطيني فقط حق الانتقال من الوقت الحاضر الى الابد : هذا الحديد ... اذن كل حديد ... اما المحاكمة التي نتحدث عنها الحديد ... اذن المعادن ... فهي ليست استقراء محضاً . انها على الاكثر خليط من استقراء وتشبيه . اذن فالمشكلة تبقى برمتها .

٢٣ — الواقع ان هذه المحاكمة استنتاج ، ولكنه ، كما يحدث في كثير من الاحيان ، استنتاج متقهقر (هابط) ، استنتاج يبدأ بالنهاية صاعداً الى الحد الاكبر ، ولكن طبيعة المحاكمة لا تتغير بذلك : إنْ هي إلا مسألة شكل بسيطة ؛ فأنا حين ابدأ بالحكم : احمد فانٍ ، وابحث عن الحد الاكبر الذي ينتج عنه (كل انسان فان) ، اقوم بالمحاكمة نفسها التي اقوم بها حين ابدأ بالحد الاكبر ثم انتهي بالنتيجة . وليس الامر مختلفاً بالنسبة للمرحلة الاولى من التمثيل ، فأنا حين اعتبر ان الحديد يتمدد ، الاحظ حداً اكبر تنتج عنه هذه الحقيقة : كل معدن يتمدد .

٢٤ — والخلاصة ان التمثيل مكون من استنتاجين : استنتاج هابط يتلوه

آخر صاعد، أو قل ان شئت ان الذهن لا يقفز من الحالة الاولى الى الثانية من الحديد الى النحاس ولكنه يبتدأ بالارتفاع الى فرضية عامة تشمل الاثنين ثم يهبط ثانية . اذن فليس هناك قفز بل هناك صعود ثم هبوط على سلم مزدوج .

٢٥ — ويجب ان لا ننسى ان **المماثلة قائمة في السلوك قبل قيامها في الفكر**: فقبل المحاكمة بالتمثيل نقوم بالتمثيل : فأنا اتصرف بقطعة خبز اليوم كما تصرفت بقطعة الامس ، وأنا أتصرف حين سماعي بوق سيارة اليوم كما تصرفت امس حين سماعي بوقاً آخر، ولو كان من اللازم أن تكون النغمة واحدة أمس واليوم لما أمكن العيش طويلاً .

قيمة هذه المحاكمة : ما هي القاعدة الواجب اتباعها لتقدير درجة امكان محاكمة كهذه ؛ هذه مشكلة منطقية محضة ولكنها مع ذلك ذات علاقة بمشكلة بسيكولوجية : ما هي درجة الثقة والاطمئنان ؟

ظاهر طبعاً انه من غير الممكن قدر التمثيل عامة ، ولكنه ممكن قدر تمثيل بعينه . وجلي أن الامر متعلق بدرجة الاختلاف بين الحالتين المقارنتين . وهذه الدرجه من الاخلاق نفسها لا يمكن تقديرها إذا لم تؤخذ بعين الاعتبار حالات ثلاثة :

١) **عدد الاختلافات ، اي كبرها** : إذ من الواضح أن كثرة الاختلاف مدعاة للشك ، فنحن مثلا إذ إستنتجنا من الانسان إلى الحيوان المنحط (فيما يتعلق بالذكاء مثلاً) كانت النتيجة مشكوكاً فيها لان الاختلاف كبير .

٢) والأهم من ذلك **أهمية الاختلافات** : فغني عن البيان أن فرقاً واحداً يكفي ، اذا كان أساسياً ، الى منع كل تشبيه . فليس يكفي اذن تعداد الفروق بل يجب وزنها .

٣) واخيراً **غموض الاختلافات** : فاذا كانت الفروق مبهمة اضاعت المحاكمة قيمتها ، لانه قد يكون بين هذه الفروق المجهولة فرق كلي . ولهذا كان كل استنتاج من الانسان الى الحيوان مشكوكاً فيه لهذا الاعتبار .

٢٦ — **اذن فللتمثيل كل درجات الاحتمال من الخطأ الاكبد تقريباً الى الصحة الجازمة تقريباً** . وهو يتجه في سيره نحو حد يصل اليه اذا كانت الحالتان المتشابهتان متطابقتين فعلاً ، أي حين يكتشف بان الفروق لم تكن الا ظاهرية وحينئذ يتحول التمثيل إلى استنتاج بسيط .

٢٧ — **وظيفة هذه المحاكمة** : لعل اول ما تجب ملاحظته هو انها **اكثر الانواع شيوعاً في الحياة اليومية العادية** ، فنحن في كل وقت تقريباً نحاكم بالتمثيل ؛ فنحن نحسب ان لفلان الخلق الفلاني لان صوته يشابه صوت صديق يتصف بهذا الخلق ، ونحن نتوقع أن نرى في مدينة نزورها النوع نفسه من الترام أو التنوير الذي كنا نراه في بلدنا . فنحن نجري هذا النوع من المحاكمة بلا انقطاع وبأمكانية خطأ عظيمة .

٢٨ — واهمية هذا النوع من المحاكمة **تتزايد في العلوم كلما ابتعدنا عن منطقة الهوية المطلقة ، اي الرياضيات** ، فالهوية المطلقة لا ترى الا في الرياضيات فمثلث ما يمكن ان يكون عين مثلث آخر اما في غير ذلك فهناك تشابه يقل ويكثر فلا النباتات ولا الحيوانات متشابهة كل الشبه فالتمثيل اذن لا يستغني عنه في التاريخ الطبيعي . اما فيما يتعلق بالناس فالفروق اكثر ، والتاريخ وكر التمثيل فنحن لا ندرك البشرية الماضية الا عن طريق البشرية الحاضرة ، وهذا هو سبب الشك الذي يكتنف هذا العلم . وأخيراً فان المفاهيم المتيافيزيكية خاضعة لضرورة التمثيل فنحن لا نستطيع ادراك الحياة الاخرى الا بتمثيلها بالحياة الدنيا ولا نستطيع ادراك الله الا بمقارنته مع الانسان .

٢٩ — **وحينما نلجأ الى التمثيل نستهدف هدفاً مزدوجاً : التنبؤ والتفسير** . والتنبوء وظيفته الدائمة ، فنحن ننتظر ان تكون الحالة الجديدة التي تعرض لنا كالحالة الاخرى التي نعرف سابقاً والتي تشبهها ، فأنا اتنبأ بأن الثلج سيهطل في عيد الميلاد لانه سقط في اعياد الميلاد من الاعوام الماضية . وظاهر أن

قيمة هذه التنبؤات مشكوك فيها ولكن الناس ، وحتى العلماء منهم ، يلجأون اليها وتستفيد منها الانسانية والعلم .

٣٠ — وبعد فالتمثيل طريقة للتفسير : فالتفسير المعروف سابقاً لحالة قديمة ينقل إلى حالة جديدة مماثلة ، فلقد كنت افسر الصوت باهتزاز الهواء ، وانا افسر الآن الضوء باهتزاز الاثير .

٣١ — ولنلاحظ ان لافرق البتة بين التفسير والتنبوء العلمي

د - ملحق لدراسة العقل

حاجات العقل الاساسية

٣٢ — لقد قلنا أن **عمل العقل** (أي ادراك الافكار العامة والاحكام والمحاكمات) انما **يحدث تحت تأثير دوافع غريزية عقلية** لا تمكن مقاومتها كما لا تمكن مقاومة الغرائز الحيوية . ولن نعدد هنا الا أهم هذه الغرائز العقلية ، وبشكل مقتضب ، قائلين بان العقل البشري مدفوع بحاجتين أساسيتين سائدتين هما : الحاجة الى التفسير اولاً والحاجة الى الحقيقة ثانيا .

٣٣ — اما **الحاجة الى التفسير** فهي اكثر **ابتدائية** ، وتجمع الظواهر على أن الحيوان يحاول التفسير فهو يرى ويتصرف بحسب ما يرى وهنا على ما يظهر تقف فعاليته الذهنية . أما عند الانسان فالرغبة في الحصول على تفسير قديمة جداً وابتدائية جداً . فكلمة (لماذا ؟) هي كلمة الاطفال والناس . واكثر الشعوب وحشية تجد تعليلات لما يقع تحت ابصارها من مطر وعاصفة ومرض وموت الخ ... وهي تفاسير بقوى سرية خفية ، تظهر لنا شخصيته في أغلب الاحيان ، ولكنها ترضيهم . ولقد رأينا ان الوظيفة التفسيرية لا تتوقف حتى اثناء الحلم .

٣٤ — **وما التفسير الا ايجاد سبب وللسبب معنيان** : اولهما **المعنى الشعبي الابتدائي** ، ونقصد به **ارادة مقابلة لارادتنا** وفيما بعد قوة مماثلة لارادتنا . اما

معنى العلمي الايجابي لتتابع : انه حادث يسبق دائماً حادثاً آخر .

٣٥ — وهذا ما يسمى **بمبدأ السببية** : لكل حادث سبب ، وذلك بان نفهم كلمة سبب بمعناها الايجابي ، أي بمعنى حادث تمكن ملاحظته ويكفي احداثه لحصول الحادث الاثر كما يكفي حذفه لحذف الحادث الاثر ، فمثلاً يكفي امرار التيار لكي تحرف الابرة الممغنطة كما يكفي ايقاف التيار لكي تعود الابرة الى الصفر ، فيقال حينئذ أن التيار سبب الانحراف .

وهذا هو أساس التفاهم البشري وعن هذا المنبع انبعثت العلوم .

من التفاسير العبيطة للعالم بواسطة قدرات سرية توصل الانسان الى التفاسير الحالية بقوانين الطبيعة .

٣٦ — **الحاجة الى الحقيقة** : هذه الحاجة **تظهر بعد تلك بكثير** من الزمان ، وهي **اقل منها سيادة وتحكماً** . والشكل المنحط الابتدائي للفكر هو السذاجة ، أي سرعه تصديق أي تأكيد كان ، ومثال ذلك سذاجة الاطفال وغير المثقفين . أما العقل فهو الفكر الضابط الذي لايقبل الاعتقاد الا اذا استوفى الرأي المعروض بعض الشروط ، انه يشك وينقد قبل التأكيد ، والخلاصة انه يتعلق بخصوص ما هو صحيح وما هو خاطىء في حين ان الفكر الغريزي لا يتعلق الا بخصوص مايرغب.

والشروط التي يجب ان يستوفيها الراي لكي يترك جانباً تنزوي الى اثنين :

٣٧ — **اولهما أن لا يكون في الرأي بحد ذاته تناقض** : فأنا إذا تكلمت مثلاً عن مثلث بأربع جهات كانت فكرتي سخيفة مستحيلة يطرحها العقل .

٣٨ — **وثانيهما ان لا يكذبه الواقع** : ومثال ذلك تأكيدي بأن كل الاوز أبيض وحينئذ لا تكون فكرتي سخيفة مستحيلة لانه لا يوجد تناقض في أن يكون كل الاوز أبيض ، ولكنها خاطئة وحينئذ يطرحها العقل أيضاً لأن الخبرة تناقضها .

إذن فشكلا الحاجة الى الحقيقة هما : حاجة الاتفاق مع النفس من جهة وحاجة الاتفاق مع الواقع من جهة اخرى .

٣٩ — أما الاولى فهي ما يسمى بمبدأ التناقض : كل حكم يحوي تناقضاً مستحيل او حكمان متناقضان لا يمكن أن يكونا صحيحين في الوقت نفسه . وأما الثاني فهو كل حكم يناقضه الواقع مرفوت . وليس لهذا المبدأ اسم في الفلسفة الاتباعية .

والبحث في أصل هذه المبادئ خارج عن نطاق علم النفس ، وكل ما تسمح الخبرة بقوله هو أن الحاجة إلى السببية من جهة ومبدأ التناقض من جهة أخرى هما **حاجتان لا تقاومان عند الراشد السوي الحالي** اما الحاجة الى موافقة الواقع فهي اقل وهي اس الوضع العلمي .

٤٠ — هذا وليس لعلم النفس حق الفصل في اصل هذه المبادئ بما لديه من معلومات راهنة .

٥ — محاكمات الطفل

٤١ — تقسم حياة الطفل العقلية عادة ، الى ادوار ثلاثة :

(١) **دور حسي انفعالي** : وفي هذا الدور يلاحظ ما يجري حوله وما يؤثر على حواسه . واهم ما ينقصه ليجيد الحكم والمحاكمة شيئان : اللغة ومعرفة الحوادث ولكن ذلك لا يمنع من اظهاره بعض المنطق . ولعله ليس بحاجة الى الكلمات والاشارات للتصرف المنطقي ؛ انه يوفق إلى ذلك عن طريق الصور البصرية وقد لوحظ انه يقارن في هذا ويتصرف بالمشابهة والمقارنة ، فهو لا يكاد يبدأ النطق حتى يرى أن كل الرجال (بابا) ، وكل الطعام (نم) الخ . . . ثم يتبدى منطقه في تركيب الجمل محتذياً اسهل الافعال معمماً أسهل الصيغ .

٤٢ — (٢) **دور عفوي** : ويبدأ حوالى الثالثة من العمر حين يكون الطفل قد حصل على المهم في اللغة . وهو يرتقي في أشهر قلائل ارتقاء مدهشاً ويجتاز الفاصل الذى كان يفصل حياته الحسية عن حياة الانسان العقلية .

وهذا الدور هو دور (لماذا) و (كيف) ، إذا يشتد حب استطلاعه ولكن القليل من الشروح البسيطة السريعة يكفي لاشباع هذا الميل . في هذا الدور يوجه انتباهه نحو نفسه فيحصل على فكرة (الانا) وبعض المفاهيم المجردة الاخرى : كفكرة الهوية والسبب والغاية والجوهر . وفي هذا الدور ينمو وجدانه .

وهو يستخدم مبدأي الهوية والسببية في عملياته التوحيدية ولكنه كثيراً ما يبالغ في هذه العمليات بسبب ميله الى التعميم السريع ، ولكن هذا الميل يتلاشى قليلاً قليلاً ويصبح الطفل قادراً على شيء من الاستقراء والاستنتاج .

٤٣ – (٣) **دور تأملي او دور العقل** : يميل بعضهم الى القول بان هذا الدور يبدأ حوالى السابعة ، ويرى آخرون أنه لا يتوضح الا حوالى العاشرة فما بعد . والطفل حتى هذا الدور كان يملك افكاراً ينقصها الدقة والثبات لقد كانت حسية اكثر منها فكريه ، كان قائده الام غريزته ، أما الان فقد اصبحت هذه الميول الغريزية تأملية اكثر منها اندفاعية . وفي هذا الدور نستطيع مناقشة الطفل في بعض المبادىء ونشعره بقيمتها ، كما نستطيع اطلاعه على مدى اعماله وما يترتب عليها ، وتدريبه على النظر في سلوكه .

و – المحاكمات والتربية

٤٤ – **تربية المحاكمة في المدرسة** : على المعلم أن يذكر بان العلم هو اولا وقبل كل شيء مسأله احساس وادراك للصور ولذلك فهو تجريبي قبل أن يكون اختبارياً تلقينياً ولكي ننجح في تعليم العلوم لا بد من ملاحظة ما يلي :

(١) **وجوب تقدم الحدس على المحاكمة** : فالمحاكمة بدون حدس قد تؤدي الى تكوين عقول فارغة الامن السفسطة ، محبة للشكل (والصورة) فقط ، كلفة بذاتها .

(٢) **يجب ان يسبق الاستقراء الاستنتاج** : الحدس والاستقراء هما أساس الاستنتاج ومادته ولذلك يجب أن يسبقاه .

(٣) **بسبب التركيب التحليل** : يتطلب التحليل المعرفة العقلية والخبر الفكرية أما التركيب فيبدأ بالحقائق .

ولذلك وجب أن نلجأ الى التدرج التالي :

(١) نبدأ مع الصغار بالحدس فقط ثم نلجأ الى المحاكمات البسيطة جـ والطبيعية تماماً .

(٢) ومتى تقدمت السن بالطفل قليلاً نلجأ الى معارفه الحدسية لنتوصل بواسطتها إلى الاستقراء الذي نقصره على عالم الاشياء المحسوسة القابلة التركيب ثم نمزجه بشيء من الاستنتاج والتحليل .

(٣) ومتى كبر الطفل نلجأ الى الاستنتاج دون أن نهمل الحدس والاستقرا وكلما نما الطفل وتقوى وازدادت مرونته زدنا الاستنتاج وفي هـذا التكوين التدريجي للمحاكمة يجب أن نذكر ما يلي :

(١) **عدم محاولة البرهنة على كل شيء** : فذلك غير ممكن أولاً وليس ضرورياً ثانياً ، ومن الخطأ أن يحسب الطفل أن كل شيء مرده للعقل ، ولا بد م افهامه قيمة العاطفة .

(٢) **يجب ان نرافق الآداب والفلسفة وما اليهما من فنون ، العلوم** وما يتصل بها في تكوين عقل الطفل .

(٣) **تعويد الاطفال عدم الاكتفاء بالكلمات الفارغة** : والمفاهيم العائمـ والتفاسير المطاطة ، ولكن هذا لا يعني طبعاً تشكيك الاطفال في كل ما يلقى اليهـ والمناقشة الزائدة فيه دونما مبرر .

(٤) **تمشي اللغة والمحاكمة جنباً الى جنب** : ويتعاونان ولذلك كان من الأهمية بمكان عظيم تعويد الطفل تنظيم أفكاره والتعبير عنها بدقة واتقان .

٤٥ — والطفل مزود ، فطرياً ، بكل المبادىء الضرورية كما رأينا (مبد السببية والهوية) ولذلك كان لا بد من اللجوء الى مبـادىء العلوم لأجابته على

سؤاليه التقليدين (لماذا) و (كيف) وارضاءفضوله عن هذا العالم بأقسامه المختلفة : عالم الجماد والنبات والحيوان والانسان . علينا أن نحاول ايضاح هذه المبادىء جميعها بأمثلة منتزعة مما يحيط به من هذه العوالم .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصول ١ ، ٢ ، ٣
٢ — الجارم وأمين : الباب الثاني عشر
٣ — خلف الله ـ محمد : الجزء الاول ، الفصلان الثالث والرابع
٤ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث ، الفصل الثالث عشر
٥ — عبد المسيح ورفاقها : الباب العاشر (ص ١٥٨ فمابعد)
٦ — قنديل ـ امين مرسى : الجزء الثاني ، الفصل الثامن
٧ — المصري ـ ايريس : الجزء الاول ، الفصل السادس عشر

الفصل الثالث عشر

الخطأ

تصميم البحث

آ — انواع الخطأ :

اخطاء الادراك أو الضلال ـ اخطاء المحاكمة أو السفسطة :

١ً — سفسطة المراقبة البسيطة

٢ً — السفسطة الاستقرائية

٣ً — السفسطة الاستنتاجية

ب — طبيعة الخطأ :

الفكرة الخاطئة والاعتقاد الخاطئ

م — سبب الفكرة الخاطئة :

الميل الى الاستنتاج بالمماثلة أي بارجاع الجديد إلى المعروف سابقاً .

د — أسباب الاعتقاد الخاطئ :

١ـ الجهل

٢ـ الهوى

٣ـ ضعف الارادة

النتائج : مسئولية مختلفة الدرجة :

١ً ـ اخطاء بريئة تماماً

٢ً ـ اخطاء فيها بعض اللوم

٣ً ـ اخطاء مجرمة

من المفيد ، لكي نفهم ما هو الخطأ ، أن ندرس اهم انواعه وطبيعته وميكانيكيته

آ — اهم انواع الاخطاء

١ — هناك **نوعان** من الاخطاء يجب التمييز بينها : **اخطاء الادراك** او الضلال **واخطاء المحاكمة** او السفسطة . ولقد درسنا ميكانيكية اخطاء الادراك فيما مضى فيبقى علينا دراسة اخطاء المحاكمة وهذا ما يربط هذا الفصل بسابقه

٢ — **توجد صنوف ثلاثة من السفسطة** : سفسطة المراقبة البسيطة والسفسطة الاستقرائية والسفسطة الاستنتاجية .

(١) تنحصر **سفسطة المراقبة البسيطة** في قبول حكم ما على انه لاحاجة للبرهنة عليه فيمر الامر وكانه اكيد بديهي ، فالكثيرون مثلاً في ايامنا هذه ينظرون الى قانون التطور على انه بديهي ، اما في الماضي فقد كان البديهي ثبات الانواع . وكل التعصبات (الفكرة السابقة) Préjugé والنظريات الشائعة يظهر فيها هذا النوع من السفسطة .

وكما هو واضح فان هذه الاخطاء **ليست اخطاء محاكمة تماماً بل هي على الاصح اخطاء مبادىء** .

٣ — (٢) **اما السفسطة الاستقرائية** فهي التي ترتكب اثناء الاستقراء اي اثناء اصدار قوانين دون حق . **واهم انواعها** هي التالية : **سفسطة العارض** وهي عبارة عن اعتبار العارض اساسياً أي اعتبار صفة ما ، يمكن أن لا توجد احيانا ، على انها صفة لازمة دائمة ومثال ذلك التأكيد بان كل مؤمن متزمت لاننا لاحظنا التزمت عند بعض المؤمنين . والذين يستنتجون نقص عقل المرأة من ملاحظات طارئة عند بعض النساء يقعون في هذا النوع من السفسطة فهم لا يعرفون ابداً ما اذا كان هذا النقص الذي لاحظوا مرتبطاً بقانون مع الخلق النسائي .

٤ — **سفسطة السبب** : وهي تنحصر في مثل القول التالي : (آ) تسبق (ب) ـ مرة اوعدة مرات ـ فـ (آ) اذن سبب (ب) :شربت هذا الدواء فشفيت ،لذلك كان هذا الدواء سبب الشفاء . ويجب أن نعلم انه لايحق لنـا اعلان (آ) سبباً لـ (ب) الاعلى شرط دقيق جداً : يجب اذا حذفت (آ) وحدها (اي بالابقاء على كل الشروط الاخرى) أن تنحذف (ب) واذا وجدت (آ) وحدها أن توجد (ب) .

٥ — **سفسطة القمار البسيط** : وهي الظن باننا نثبت قانونا بتعدادنا عدداً كبيراً أو صغيراً من الحالات التي تصح فيها العلاقة ، مع انه يجب أن نعرف ما يلي : « عدد الحالات التي تصح فيها العلاقة لا يثبت شيئاً مهما كان هذا العدد كبيراً » فمئات المرات من الشفاء مثلاً لا تبرهن على شيء ، والواجب أن نسأل (من كم ؟) هل العدد (٢٠٠) من (٢٠٠) ، من (١٠٠٠) ،من (٠٠٠ ١٠٠٠) ؟ فالذي يهمل مخرج الكسر لا يزيد على ان يهزأ بنا . وكي يكون هنـاك قانون حقيقي يجب أن تكون الـ (٢٠٠) من (٢٠٠) .

ومفهوم طبعاً انه من المهم في كل حال أن نعلم أن(٢٠٠)تجربة من (١٠٠٠) قد نجحت ، اذ يمكننا بذلك أن نقدر احتمالاً ما على الاقل . أما إذا قيل لي (٢٠٠) نجاح فقط فأنا لا استطيع تقدير شيء .

وعلى كل حال فلكي نثبت قانوناً يجب البرهنة على انه ما من حالة واحدة لاتصح فيها العلاقة .

٦ — **سفسطة المماثلة** ولقد علمنا ما هيتها فيما سبق : انها نتيجة بالمماثلة تعطي على أنها مؤكدة في حين انه لا يوجد الا احتمال واحتمال قد يكون ضعيفاً .

٧ — (٣) **السفسطة الاستنتاجية** وهي التي ترتكب باستخلاص نتائج من حكم عام وأهم انواعها هي :

(١) **المعنى المزدوج** او غموض الكلمات وهـذا الخطأ هو عبارة عن المرور ، اثناء الاستنتاج ، من معنى للكلمة ، الى معنى آخر لها هي نفسها مثلاً : [الكائن الحر مسئوول] وبما أن الطير حر فهو مسؤول اذن . وهنا يلاحظ اننا تركنا معنى الحرية

المرة الاولى (الحرية المعنوية الاخلاقية) الى معناها في المرة الثانية (الحرية الجسدية المادية) .

٨ — (٢) **جهل الموضوع** : وهو عبارة عن اثبات غير ما نحسب اننا نثبت مثال ذلك البراهين الاخلاقية على الحرية فالحقائق التي تستند اليها كالنصائح والصلوات والعقود الخ ... لا تبرهن على أكثر من اننا نؤمن بحرية الانسان وليس على أنه حر .

٩ — (٣) **البرهنة على حكم ، بالحكم نفسه** ولكن بشكل آخر : كقولنا الانسان ينوم لان فيه قوة تنويم .

١٠ — (٤) **الدائرة المفرغة** : وهي السفسطة المكونة من اثبات حكمين ، احدهما بالآخر أي برهنة (آ) بـ (ب) ثم (ب) بـ (آ) كقولنا ان الله موجود لأن العقل لا يمكن أن يخدعنا ، والعقل لا يمكن ان يخدعنا لانه صادر عن الله (دائرة مفرغة منسوبه الى ديكارت) وهذا هو حال القواميس المختصرة السيئة .

١١ — تلك هي أهم أنواع السفسطة . ولعله من الخير في شيء كثير ان نلم اذ كثيراً ما نلحظ الضعف في محاكمة محدثنا ولكننا لا نستطيع دوماً تعيين موضعه ومن المفيد كثيراً أن نستطيع هذا التعيين .

ب — طبيعة الخطأ

يشتمل الخطأ كائناً ما كان ، **على عنصرين** : **فكرة خاطئة واعتقاد بهذه الفكرة الخاطئة** .

١٢ — **الفكرة الخاطئة** ومثال ذلك تمثلي القمر قرصاً صغيراً ، فانا لم ارتكب الخطأ بعد : لانه من الممكن أن لا اعتقد بذلك . اذن فليس في الامر الا **بداية خطأ ، خطأ ممكن ، خطأ محتمل الوقوع** .

ويصبح حقيقياً إذا اعتقدت بهذه الفكرة الخاطئة : اي إذا اكدت او حكمت

بان القمر في الواقع قرص صغير وهكذا يصبح الخطأ المحتمل الوقوع واقعياً ولذلك اصر المناطقة على القول بان الخطأ واقع في الحكم فقط .

وهكذا تزدوج مشكلة ميكانيكية الخطأ من تلقاء ذاتها :

ما سبب الفكرة الخاطئة ؟ وما سبب الاعتقاد الخاطيء

ح - سبب الفكرة الخاطئة

١٣ — يجب بادئ بدء ان نلاحظ اهمية المشكلة : والامر الذي تجب معرفته هو ما اذا كان عقلنا آلة ضارة ، نوعاً من المرآة المشوهة ؟ فاذا كان سبب الخطأ عيب موجود في فهمنا كانت الحالة البشرية تعيسة اذ تكون عرضة للخطأ دائماً ويكون حظنا حظ فلكي لا يملك الا مرصداً يغير اوضاع النجوم ومواضعها . اذن ما هو، اولاً ، تفسير الفكرة الخاطئة ؟

١٤ — الملاحظة الاولى هي كون **الخطأ في الافعال قبل كونه في الفكر** . والخطأ في الفعل معروف : انه عدم الترفيق في العمل، وسوء التكيف في الحركة، كابتلاعي نواة احدى الاثمار اثناء اكلي لها : خطأ في العمل

١٥ — ولهذه الاخطاء في العمل الاصل نفسه اي التصرف في الحالة الحاضرة مثل التصرف في حالة معروفة سابقاً ، فانا قد ابتلعت النواة لان لي عادة قديمة بابتلاع ما قد يوجد في فمي ، ولو اني تكيفت مع الحالة الجديدة لتجنبت هذا الخطأ ولكنني تصرفت كعادتي فمرت النواة فيما مر إلى جوفي .

١٦ — **وهكذا يخطيء الانسان في اعماله لانه يتصرف بالمماثلة** . ويجب الانتباه جيداً الى عدم الكلام هنا عن المحاكمة بالتمثيل ، إذ لا توجد هنا محاكمة ما ، بل يوجد رد فعل بالمماثلة وكل ما في الامر اني افعل اليوم مثلما فعلت أمس .

١٧ — **والامر هو نفسه من اجل اخطاء الفكر** . واول ما نستطيع تأكيده هو ان كل فكرة خاطئة هي تفسير خاطيء

١٨ — ولكن ما سبب سوء تفسيرنا علامة ما ؟ ذلك لاننا نتصرف بالمماثلة .

فأنا اعالج الحالة الجديدة بتمثيلها بالحالة القديمة، فسبب الفكرة الخاطئة اذن **هو الميل الى ارجاع الجديد الى المعروف** .

١٩ — وهل يمكن تجنب ذلك ؟ كلا ، والسبب في ذلك هو اننا مضطرون على تمضية حياتنا في إلحاق ما يعرض لنا بزمر معروفة ، ولا يمكن أن نعرف الا بهذه الواسطة والواقع انها هذه هي المعرفة فنحن نحمل في نفوسنا دوماً زمراً تتكثف فيها كل خبرتنا السابقة ونحن انما نقارب الاشياء وفي نفوسنا هذه الزمر الجاهزه

د — أسباب الاعتقاد الخاطىء

ولقد قلنا فيما سبق ان الخطأ لا يحدث الا اذا اعتقدنا بالفكرة الخاطئة فكيف نفسر الاعتقاد الخاطيء ؟

٢٠ — قانون التوكيد الذي ذكرنا (في الفصل الحادي عشر) هو الذي يحكم في المسألة : « كل حكم لا يصادف ما يضاده يؤكد على أنه حقيقي » .

وينتج عن ذلك أن السبب الاكبر للاعتقاد الخاطيء هو **الجهل** فلقد كان الناس في القرون الوسطى يعتقدون بأنه لو كانت الارض كروية لكان هناك اناس رؤوسهم الى الاسفل ولسقطوا في الفراغ ،وهذا خطأ لا يمكن تجنبه لان الفكرة المضادة تنقصهم وهي فكرة الجاذبية الأرضية .

٢١ — ومع ذلك فان هذا السبب لا يؤثر بالشكل المحتم الذي قد يظن . فهناك مناطق في العلم انحذف منها ويمكننا ان نقول فيها « ارى بوضوح انه لا يمكن ان يكون هنا أي احتجاج » وليس فقط « لا أرى هنا اي احتجاج » ، وهذا ما هو حاصل بالنسبة للحقائق الرياضية التي لا يمكن الاعتراض عليها ، وهذا الامر صحيح ايضاً بالنسبة لبعض الحقائق الفيزيائية : فحين يستخدم المنهج التجريبي بدقة تنتج قوانين لا يمكن تكذيبها .

٢٢ — **فهناك اذن حالات غلب فيها الجهل على أمره** كما أن هناك حالات اكثر عدداً لم يغلب فيها الجهل تماماً : لان الانسان يمتنع عن التوكيد علماً منه بان

هناك حالات كثيرة يجهلها ، وهذا ما يفعله المثقفون ثقافة صحيحة لتواضعهم العـ

اذن **ففكرة جهلنا نفسها تلعب دور الفكرة المعاكسة** وهذا هو جوهر الـ

النقدية وهذا موضع الحكمة في قول فلاسفة العرب « **وان لا ادري لمن العا**

٢٣ — وينتج عن ذلك أن السبب الثاني للاعتقاد الخاطيء هو **الهوى** —
أكان النفع الاناني أو الروح العائلية او الروح الوطنية أوالحب أو البغضاء . والهـ
سبب من اسباب الخطأ لانه يجعلنا نؤكد كما لو اننا نعرف في حين اننا لا نعـ
في الواقع : فأنا على اعتباري اكره شخصاً ما ، اقبل بسهولة عظيمة اتهاماً مو
اليه كما لو اني تحققت من هذا الاتهام .

٢٤ — ويرى مما سبق كيف ان **الارادة** يمكن ان تكون سبباً من اسـ
الخطأ : لنذكر انها قدرة ايقاف ومقاومة ولكنني اذا لم اتدخل في الوقت المنـ
لايقاف توكيد ما ، اذا لم اقاوم الهوى والرأي العام والرغبة في اعتقاد ما احـ
اقع في الخطأ نتيجة تقصيرمني الى حد ما . فالارادة اذن سبب من أسباب
اذا قصرت في العمل أو ضعفت . وهي ، بالعكس ، عدو للخطأ بقوتها ود
تسلطها على النفس .

٢٥ — وهذا كله يمكننا من الاجابة على السؤال الذي طالما تردد عن **المسـ**
في الخطأ . فهل هناك اخطاء مذنبه او مجرمة ؟ أوانه يكفي أن نقول دائماً في معـ
الاعتذار : لقد اخطأت . ؟ ان ما مر يوضح انه توجد حالات مختلفة تشغل
الدرجات الواقعة بين البراءة المطلقة والاجرام المطلق في بعض الاخطاء . وللبسـ
نقتصر على درجات ثلاثه :

٢٦ — (١) **عدم المسئولية المطلق** — وهو موجود حين يكون التخـ
من الجهل مستحيلاً من جهة وحينما تكون روح النقد وعادة التحفظ في حال
التأكد معدومتين بسبب نقص الثقافة . ومن هذا القبيل اخطاء الاطفال مثلاً

٢٧ — (٢) **المسؤلية الجزئية** — **وهي الحالة الاعم** . هي حالة تأكيد رأي مع الشك في وجود احتجاجات عليه ومع امكان الحصول على وسائط لمعرفة هذه الاحتجاجات والتأكد منها ، ومع ذلك فالتوكيد حاصل لان المؤكّد يرغب في أن يكون الامر حقيقياً . فكثير من اخطاء الحساب ترتكب على الطريقة التالية : يشعر الانسان جيداً في وقت من الاوقات بانه ليس متأكداً وان هناك اقساماً يسودها الشك ومع ذلك فهو يدعها الى غيرها ويسرع في نسيانها ولا يعيد العملية فلا يتحقق . وهنا يبدأ عدم إخلاصه نحو نفسه : حينما لا يعلن بأنه لم يصل الى الاطمئنان وانه ترك بعض امور لم يضبطها ولم يتحقق من صحتها . اذن توجد هنا نصف مسؤولية واخطاء كهذه ليست بريئة واذا صدف اننا نستفيد من تأكيداتنا استفادة كبيرة جداً امكن ان يصبح الخطأ إجرامياً .

٢٨ — (٣) واخيراً يمكن ان تكون **المسؤلية مطلقة** إذا علم الانسان انه يؤكد الخطأ . وهذا حال ممكن إذ يحتمل أن يكذب الانسان على نفسه ويخدعها وكثيراً ما يتوصل الى إقناع نفسه بصحة ما يعلم انه خطأ وقد ينتهي بالاقتناع بانه فعل ، ما رواه من قبيل التبجح . وفي مثل هذه الاحوال يكون الانسان مذنباً كل الذنب لانه يعرف الحق وينكره لهوى في نفسه او لصالحه . والخلاصة فان الخطأ رغماً عن وجوده عند الانسان ليس عيباً أساسياً من عيوب عقله . انه كثير ومحتوم عند الابتدائين وغير المثقفين ولكن تجنبه يزداد امكانية بازدياد الشعور بالجهل والتحكم في النفس .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصول ١ ، ٢ ، ٣ .
٢ — الجارم وأمين : الباب الثاني عشر
٣ — خلف الله ـ محمد : الجزء الاول ، الفصلان الثالث والرابع
٤ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثالث : الفصل الثالث عشر
٥ — عبد المسيح ورفاقها : الباب العاشر (ص ١٥٨ فما بعد)
٦ — قنديل ـ امين مرسى : الجزء الثاني : الفصل الثامن
٥ — المصري ـ ايريس : الجزء الاول ، الفصل السادس عشر

الفصل الرابع عشر

الذكاء

تصميم البحث

آ — طبيعته :

١ — تعريف الذكاء - نظرية (ع) و (خ)
٢ — الفروق الفردية في الذكاء

ب — قياسه

١ = مقاييس الذكاء الاولى : مقياس بينه Binet
٢ = سويات الذكاء المختلفة
٣ = ثبات ا (ح ٠ ذ)
٤ = العمر الذي يتكامل فيه نمو الذكاء
٥ = انواع اخرى من مقاييس الذكاء
٦ = مزايا مقاييس الذكاء ٠
٧ = العوامل الهامة في تقدير ذكاء الناس
٨ = علاقة الذكاء بالملامح
٩ = اكتشاف مقياس للذكاء
١٠ = تدريج المقياس
١١ = امتحان المقياس
١٢ = استخدام مقاييس الذكاء
١٣ = نتائج قياس الذكاء

آ — طبيعته

١ — عرف الذكاء تعاريف مختلفة منها :

١ — الكفاءة في التعلم . ٢ — قابلية حل المشاكل (المسائل) الجديدة . ٣ ـ قابلية الحصول على وضع ذهني معين ، والتكيف لتحقيق غايات مرغوبة يضاف اليهما قدرة على النظر في النفس ونقدها . ٤ — القدرة على التفكير المجرد . ٥ — امكانية التكيف الذهني العام مع مشاكل وظروف الحياة الجديدة .

والذكاء في ذلك يتميز عن (١) الموهبة Talent التي هي نمو قابلية خاصة و (٢) المعرفة التي هي ليست الا علماً غير مطبق و(٣) قابلية التذكر التي تهتم فقط بالماضي .

والذكاء **فطري** ، أما المحيط والتربية فانما يعملان على صقل هذه المادة الخام وتوجيهها ؛ وهو لهذا وراثي يحتاج إثماره الى البيئة .

٢ — **نظرية (ع) و (خ)** — لسبيرمان Spearman واتباعه في الذكاء نظرية اسمها (**نظرية العاملين**) ، وهذان العاملان هما ال (ع) وال (خ) ، اما العامل (ع) فيمثل القابلية العامه أو الذكاء العام اوالشيء الذي تقيسه مقاييس الذكاء بشيء من النجاح ، وهذا العامل ثابت عند فرد بعينه ولكنه مختلف من فرد الى آخر ، وهو العنصر المشترك الذي يسبب توافقاً ايجابياً بين قياسات قابليات عديدة عند فرد ما . أما العامل الثاني (خ) فيمثل العامل المعين الملازم لعمل او فعل مأخوذ بعين الاعتبار ، فهو يمثل مثلاً القابلية الموسيقية عند الكلام عن الموسيقى ، والكفاءة الرياضية عند البحث عن الرياضيات ؛ وهاتان القابليتان قد تختلف كميتهما عند الشخص الواحد . واختلاف هذين العاملين الخاصين هو الذي يسبب اختلاف درجة اتقان الشخص الواحد لعملين مختلفين . ولكن **نجاح انسان ما في اي نوع من ردود الفعل أو الاعمال هو النتاج المشترك لكل من (ع) و (خ)** عنده اي لقابليته العامة وقابليته المعينة بالنسبة للمهمة التي يقوم بها .

ما هي (ع) ؟ أما بسيكولوجياً فقد تفسر على انها الذكاء او الحيوية الذهنية

واما فيزيولوجياً فقد تفسر على انها حيوية (فعالية) الجملة العصبية ، وطواعيتها plasticité ، حال الدم ، التوازن الغدوي ، الشروط الأوكسجينة وغيرها من العوامل .

ويرى سبيرمان ان (ع) موجودة بشكل ثابت شامل في كل العمليات ذات الطبيعة التربوية ، وانه لذلك يكون كل مقياس ذكاء مشتمل على الادراك واستخدام العلاقات مقياساً صالحاً . **وللعامل (ع) علاقة وثيقة بالوضوح والسرعة ، ولكن لا علاقة له مطلقاً بالذاكرة .**

أما ثورندايك Thorndike **فيرى ان مجموع ذكاء انسان ما مكون من عدد عديد من القابليات الخاصة لا يربطها عامل مشترك .** نعم ان بين هذه القابليات توافقاً كبيراً Correlation (نسبة طردية) ولكن قد لا يكون هناك توافق . وإذا ما وجد هناك توافق في القابليات فسببه وجود عناصر مشتركة .

هذا وانه **ليس على شيء مهم الخطر ، في عملية قياس الذكاء ، أن نأخذ بهذه النظرية او تلك .**

٣ — الفروق الفردية في الذكاء

نلاحظ **فوارق عظيمة** وظاهرة في الذكاء بين الناس الذين يتراوحون في قابلياتهم العقلية بين الغبي المغرق في الغباوة والذكي اللامع الذكاء . وهذه الفروق الشاسعة مضافا اليها الحاجة المتزايدة الى الذكاء في الظروف العصرية الحاضرة هما اللتان جعلتا علم النفس يهتم اهتماماً شديداً بدراسة الذكاء فلاحظ أن الفروق **فروق درجة** لا فروق نوع ، اي فروق كمّ لا فروق كيف : فالعمليات العقلية عند ضعيف العقل والعبقري مشابهة للعمليات العقلية عند الانسان العادي الذكاء وهي (أي العمليات العقلية) خاضعة في كل الاحوال للقوانين النفسية نفسها . هذا وقد لوحظ حين قياس ذكاء الناس قياساً موضوعياً انهم يتوزعون في ذكائهم

توزعهم في طولهم او غيره من الصفات الجسدية أي ان اغلبية الناس يتجمعون حول الوسط ويقلون كلما تقدمنا الى احدى النهايتين .

ب — قياس الذكاء

٤ — **مقاييس الذكاء الاولى — مقياس بينه** Binet ظهرت اولى مقاييس الذكاء في فرنسا سنة ١٩٠٥ ثم تناولها علماء امريكان والمان عديدون بالتغيير والتحوير والتحسين .

والمقياس عبارة عن مجموعة من الاسئلة والمشاكل لا يزيد عددها عن **المئة** (وسطياً) لكل مستوى عمري وهاك بعض امثلة :

١ً — في **الثالثة** يجب أن يعرف الطفل أشياء مألوفة كالمفتاح والسكين

٢ً — وفي **السادسة** يجب أن يجد الطفل الاجزاء المهملة من صورة وجه كالعين والانف والاذن الخ .

٣ً — في **العاشرة** يجب أن يقرأ الطفل فقرة صغيرة ويذكر حقائق ثمانية منها.

٤ً — وفي **الرابعة عشرة** يعطي مسائل مختلفة يحلها ذهنياً موضوعها عقربا الساعة .

وتعيين مقياس لعمر ما يكون بان يعطى المقياس لمن هم اقل من هـذا العمر بسنة فاذا نجح فيه ٥٠ ٪ من الطلاب العاديين الطبيعيين عين لمن هم اكبر بسنة اي ان مقياساً ما يعين لابناء الخامسة اذا نجح فيه ٥٠ ٪ من اطفال عمرهم اربع سنين .

ويجب ان يعطى المقياس في شروط معينة . وهو لا قيمة له ولا خطر اذا لم يعطه خبير متمرن . وقد عين كل مقياس لكل عمر بعد ان اختبر به الف طالب على الاقل فوافق معدلهم .

وبحسب الاسئلة التي استطاع الطفل الاجابة عليها يعطى عمراً عقلياً (ع ٠ ع ٠)

فاذا استطاع طفل عمره الزمني (ع . ز) ثمانية سنوات الاجابة على اسئلة خصصت للثانية عشرة من العمر قيل أن العمر العقلي (ع . ع .) لهذا الطفل هو (١٢) وهكذا يكون حاصل الذكاء (ح . ذ) عبارة عن للعمر العقلي (ع.ع) مقسوماً على العمر الزمني (ع . ز)

$$ح . ذ = \frac{ع . ع .}{ع . ز .}$$

ويعبر عنه بنسبة مئوية : وهكذا إذا استطاع طفل عمره ثمانية سنين على أسئلة مقياس خصص للأطفال في الثانية عشرة من عمرهم كان حاصل ذكائه (١٥٠)

$$ح . ذ . = \frac{ع . ع .}{ع . ز .} = \frac{١٢}{٨} = ١٥٠$$

أما إذا استطاع هذا الطفل الإجابة على الأسئلة المخصصة لعمره فيكون حاصل ذكائه (١٠٠) ، وأما إذا لم يستطع الإجابة إلا على الأسئلة المخصصة للسادسة من العمر فيكون حاصل ذكائه (٧٥) .

ومن هذا كله نرى أن حاصل الذكاء هذا طريقة حسنة للتعبير عن ذكاء طفل أو غباوته .

٤ — سويات الذكاء المختلفة :

يتراوح حاصل الذكاء العادي الطبيعي بين الـ ٩٠ — ١١٠ بصورة عامة أما الأطفال الذين يكون حاصل ذكائهم متراوحاً بين ١١٠ — ١٢٠ فأطفال **ممتازون** وهذا حال أغلب طلاب الجامعات ؛ وأما الأطفال الذين يكون حاصل ذكائهم بين ١٢٠ — ١٤٠ فهم **نابغون** لا يتجاوز عددهم ٠/٠٦ من مجموع الاطفال . أما الذين يتراوح حاصل ذكائهم بين ٨٠ — ٩٠ فيسمون (**بالبلد**

— **العاديين**) وعليهم أن يتعبوا في دراساتهم ؛ أما الذين يتراوح حاصل ذكائهم بين ٧٠ — ٨٠ وما دون فهم (**ضعاف العقول**) ؛ وأما الذين يكون حاصل ذكائهم بين ٥٠ — ٧٠ فهم **نوكى يحتاجون عناية ونوجيهاً وضبطاً** فهم لا يستطيعون تكييف نفوسهم مع المحيط الاجتماعي ولا يستطيعون تعلم سوى الأعمال التمرينية Routine (التي لا تحتاج إلى عقل وإعمال روية) ، وهم إنما يستطيعون العناية بأنفسهم إذا روقبوا ، وهم لذلك لا يستطيعون الاستفادة من التعليم في المدارس العادية ؛ وأما الذين يكون حاصل ذكائهم **تحت الـ** (٥٠) فهم يقسمون إلى **البُلْه** Imbéciles إذا كانوا يستطيعون تعلم إلباس أنفسهم وإطعامها وتجنب أخطار الحياة الشائعة ؛ وإلى **المعتوهين** Idiots إذا كانوا لا يستطيعون حتى هذه الأعمال .

ومن حسن الحظ أن النوكى والبله والمعتوهين لا يشكلون أكثر من ١ ٪ من مجموع الأطفال .

٥ — ثبات حاصل الذكاء (ح . ذ) :

بصورة عامة نستطيع القول بأن **حاصل ذكاء طفل ما يبقى ثابتاً** من عام إلى آخر ولذلك كان من **الممكن ان تنبأ** بواسطة مقياس الذكاء منذ وقت مبكر عن قابلية طفل حين يبلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، وقد أيدت هذه الحقيقة التجارب الدقيقة التي أجريت على الأطفال في مختلف سني عمرهم فلم يلاحظ إلا تبدلاً يسيراً جداً . هذا وأن حاصل الذكاء **قد يرتفع في ظروف خاصة** :

١ً — إذا رفع عائق ما (قصور بصري أو سمعي أو غيرها) .
٢ً — إذا تحسنت الظروف الجسدية للطفل تحسناً ظاهراً .

٦ — العمر الذي يتكامل فيه نمو الذكاء :

تعترض حلّ هـذا المشكل **صعوبتان** أولاهما أن **الأعمال التي يحترفها الراشدون تميز بينهم** فينتج عن انعدام وجود خبرة مشتركة صعوبة في إيجاد مقاييس صالحة للراشدين . وثانيتهما أن خروج الأطفال ، بعد كبرهم ، إلى الحياة العملية يجعل **من المستحيل تقريباً ايجاد عينات** حقة من السكان الراشدين يجري عليهم العمل التجريبي .

ومع ذلك فان الدراسات التي أجريت في الحرب الماضية على الجيش الأميركي دلت على أن النموّ العقلي لا يزداد بعد سنّ الثالثة عشرة ، ولكن دراسات أخرى دلت على وجود تحسن خفيف يدوم حتى الثامنة عشرة أو العشرين ، ولعل أحسن تقدير هو الذي يفترض أن **قوة التعلم تصل حدها الأعلى بين الـ ١٥ — ٢٠**

٧ — أنواع اخرى من مقاييس الذكاء :

١ — **مقاييس الجماعات** وهي مقاييس تعطى للجماعات عوضاً عن أن تعطى للأفراد ، وقد استخدمت لأول مرة في الجيش الأمريكي في الحرب الماضية فكانت تعطى لكل مئتي شخص مجتمعين وكان من نتائجها أن انتخبت الأفراد لمختلف المهن .

٢ — **مقاييس الاعمال** وهي تمارين لا تشتمل على كتابة أو مفردات وهي مخصصة لاستعمال الغرباء والأميين .

٨ — مزايا مقاييس الذكاء :

١ — **توفير الوقت** : فبواسطة المقاييس يمكن قياس ذكاء عددٍ كبير من الناس في جزء من الوقت اللازم لتقدير ذكاء شخص بواسطة الاحتكاك الشخصي مع إنسان في أعماله اليومية .

٢ — **العدل** : وهذا التقدير خالص من تأثير التعصب أو العوامل الخارجية كالشخصية والملامح الجسدية .

٣ — **الموضوعية** : والتقدير كمي يمكن بواسطته دراسة جماعات مختلفة .

٩ — **العوامل الرئيسة في تقدير ذكاء الناس** :

١ — إن العامل الهامّ في اختلاف ذكاء الناس هو **الفروق الفردية** وكل تعميم كميّ مضبوط عدا هذا مستحيل .

٢ — أما فيما يتعلق **بالعرق** فيجب أن نذكر أن الماضي الثقافي للعروق المختلفة مختلف لدرجة لا يصحّ معها أيّ تعميم ، فاذا ذكرنا هذه الملاحظة لم يبق هناك خطر في قولنا أن معدّل ذكاء الزنوج والهنود الحمر أقلّ من معدل ذكاء الأمريكيين البيض .

٣ — هذا وتدل الدلائل التجريبية أن الآباء الأقربين عامل هام في تعيين الذكاء **فالصفات العقلية تورث** بالشكل نفسه الذي تورث فيه الصفات الجسدية كالطول وملامح الوجه الخ .. يضاف إلى هذا أن الصفات العقلية تتأثر بشروط النمو .

٤ — أما فيما يتعلق **بالحالة الاجتماعية المهنوية** فيمكن **تفسير** الحقيقة التي تتلخص بأن الطبقات الاجتماعية العليا تتصف عادةً بذكاء يفوق ذكاء الطبقات الاجتماعية التي دونها **بطريقتين** :

(١) **فرص النمو** عند الطبقات العليا **أكثر منها** عند الدنيا .

(٢) **تجتذب** الطبقات العليا أولئك الذين ورثوا ذكاءً عالياً فقط ، هذا وإن دراسة الأطفال المعروفي الوراثة الذين ربوا في محيطات مختلفة تشير إلى النتائج التالية :

(آ) : وراثة متوسطة + محيط متوسط = (ح . ذ .) ١٠٠

(ب) : وراثة ممتازة + محيط ممتاز = (ح . ذ .) ١١٥

(ج) : وراثة متوسطة + محيط ممتاز = (ح . ذ .) ١٠٤ — ١٠٧

١٠ — علاقة الذكاء بالملامح الجسدية

دلت الدراسات العلمية على أنه لا توجد علاقة ضرورية بين الذكاء وبعض الصفات الجسدية كالطول والوزن والشقرة والمنظر الخ . كما أن التجارب التي أجريت لمحاولة تقدير الذكاء من المظهر الجسدي والوجه والصورة الفوتوغرافية لم تنجح أبداً .

١١ — اكتشاف مقياس ذكاء

إن اكتشاف مقياس للذكاء عبارة عن **تلمس خبري** فلو انتخبنا مثلاً جمال الخط أو صحة الاملاء كمقياس للذكاء ، ورتبنا طلاب صف ما بحسب أحدهما لوجدنا أن هذا الترتيب يختلف اختلافاً بيناً عن ترتيب خبير بهم كمعلمهم مثلاً . وسبب ذلك أن أذكى الطلاب قد يكتب أبشع خط ، وإن أغباهم قد يكتب أجمله . أما إذا ساعدنا الخط الحسن فوجدنا مقياساً تتفق نتائجه مع رأي هذا الخبير فان هذا يكون باعثاً للثقة بالمقياس . ولو فرضنا الآن أن عدة مقاييس اتفقت فيما بينها ولكنها لم تتفق مع رأي الخبير ، فان معنى ذلك حتماً أن الخبير قد أخطأ .

١٢ — تدريج المقياس

لنفرض أننا اكتشفنا المقياس المناسب وأننا عينا التعليمات اللازمة لاستعماله فهل يعني هـذا انتهاء العمل في المقياس ؟ كلا ! إذ يبقى علينا القيام بمهمة تدريج المقياس ، وذلك بأن **يعطى هذا المقياس لطلاب غير منتخبين** في الجماعة التي سندرّج المقياس من أجلها . ولذلك يجب انتخاب هؤلاء الطلاب من **اعمار مختلفة** وفي كل عمر يجب أن يوجد طلاب **ممثلون لكل الطبقات الاجتماعية والمدرسية** المختلفة . وبعد انتخاب عدد من الطلاب (لنفرض أنه ٥٠٠) وتدريج المقياس بحسبهم يجب التأكد من صحة هـذا التدريج وذلك بانتخاب عدد إضافي ، فان

ثبتت صحة هذا التدريج فبها وإلا زيد العدد ، وهكذا حتى نصل إلى درجات ثابتة . وهناك طريقة رياضية تكنيكية أخرى لا مجال لذكرها الآن .

١٣ — امتحان المقياس

يكون امتحان المقياس بالنظر في صحته ، ودقته ، وموضوعيته ، وسهولة استخدامه ، وصلاح قوانينه .

أما **صحته** Validité فنعني بها « **الى اي درجة يقيس المقياس ما يريد قياسه** » .

وأما **دقته** Reliabilité **فنعني بها مقدار ضبط المقياس في قياس ما يقيسه .**

وأما **موضوعيته** Objectivité فنعني بها « **الى اي حد يتحرر القائس من محاكمه الشخصية في اعطائه العلامات على كل جواب** » .

١٤ — استخدام مقاييس الذكاء

تستخدم مقاييس الذكاء في الأمور التالية :

(١) — تعيين ضعاف العقول ودراستهم

(٢) — انتخاب الموهوبين

(٣) — تقسيم الطلاب إلى فئات بحسب قابلياتهم

(٤) — تعيين الأثر النسبي للدراسة في النمو العقلي

(٥) — التوجيه المهني : ولحسن الحظ ان العلماء جادون الآن في إيجاد مقاييس ذكاء مهنوية

(٥) — دراسة القابليات العقلية للمجرمين

(٧) — سبر غور الفروق الفردية .

١٥ — نتائج قياس الذكاء

إن قياس الذكاء دلّ على :

(١) — أن ضعف العقل عند المجرمين أكثر منه عند مجموع السكان ، فهو في الحالة الأولى ١٥ ٪ وفي الثانية ١ ٪ فقط

(٢) — الغباء عند الأطفال ذوي العاهات الجسدية : كالعميان والطرشان أكثر منه عند السليمين

(٣) — بعض العروق أقل ذكاء من العروق الأخرى ، ولكن إطلاق الحكم لا يستند في هذا الصدد إلى حقائق علمية ما دام تأثير المحيط قائماً .

(٤) — لا فرق جدي في الذكاء بين المرأة والرجل

(٥) — أبناء المشتغلين في الأعمال العقلية أكثر ذكاء من أبناء المشتغلين بالأعمال اليدوية .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثاني ، الفصل الأول

٢ — خلف الله ـ محمد : الجزء الاول ، الفصول ٥ ، ٦ ، ٧

٣ — عبد المسيح ورفاقها : الباب الرابع عشر

٤ — عطية الله ـ أحمد : ص ١٦٠ فما بعد

٥ — قنديل ـ امين مرسى : الجزء الثاني ، الفصل التاسع

٦ — نجار ـ فريد : الفصل الثامن

الفصل الرابع عشر

الرغبة

تصميم البحث

لماذا يجب تفضيل كلمة رغبة على كلمات غامضة كالميل والنزعة ؟

آ — طبيعة الرغبة

١ — دراسة موضوعية : تظهر الرغبة وكأنها عمل ممنوع يحاول أن يتحقق

٢ — دراسة شخصية : تظهر الرغبة في الشعور وكأنها تحقيق خيالي للعمل الممنوع وهذا هو حلول حياة الحلم محل حياة الواقع

ب — كبت الرغبة :

الرغبة التي لا تتحقق تنتج نوعين من الآثار :

١ — آثار عاجلة : ألم ، غضب ، حزن ، حيرة .

٢ — آثار آجلة : أحلام اليقظة ، أحلام النوم ، لذات القصص والتمثيل والفن ، أعمال منتظرة ، رغبات جديدة هي كنايات عن الرغبات الأولى ، ضيق ووسواس ، أساس الطبع .

ج — انواع الرغبات الهامة (أو النزعات) :

١ — النزعات الشخصية :

غريزة حفظ البقاء .

(١) الحاجات العضوية — كيف تحولها الحياة الاجتماعية

(٢) النزعات الروحية : الرغبة في السعادة ، الرغبة في التحكم (السيطرة) ، حب الذات ومشتقاته . الرغبة في التملك .

(٣) النزعات الخليطة : الحاجة للعمل . ألعاب الأطفال . الحاجة للحركة .

٢ — النزعات الغيرية :

(١) العطف .
(٢) الرحمة .
(٣) الصداقة — الحب .

٣ — النزعات المثالية :

(١) النزوع إلى الحق : حب الاطلاع ، العلم .
(٢) النزوع إلى الجمال : تربية الذوق .
(٣) النزوع إلى الخير : العاطفة الأخلاقية .
(٤) النزوع إلى الدين .

د — الرغبة والنزعة .

المراجع :

نفتتح دراسة الحياة الانفعالية بدراسة الرغبة وذلك لأن كل الهيجانات والعواطف ليست إلا فترات من تاريخ الرغبة . ويجب أن نقول (رغبة) لا (ميل) ولا (نزعة) ذلك لأن كلمة (نزعة) كلمة غامضة وغالباً فارغة .

١ — إنها غامضة : لأنها تدل على النزعات المكتسبة كالعادات كما تدل على النزعات الفطرية كالغرائز وهي تدل أيضاً (وبصورة أرجح) على النزعات الحركية كالأفعال المنعكسة كما تدل على النزعات العاطفية (النزعات نحو اللذة) كحب النفس أو حب المجد . وكلمة غامضة كهذه يجب تجنبها . وزيادة على ذلك فان هذه الكلمة فارغة في كل الاحيان تقريباً ، والحقيقة فان النزعة هي السبب الخفي لأعمالنا وهيجاناتنا . ولكن الشيء الملحوظ وما يحدث هو الهيجان والعمل ، وما النزعة إلا أساسهما المزعوم ؛ إذن فهي ليست حادثاً . إنها كلمة مجردة تدل فقط على الاعمال والهيجانات الممكنة .

٢ — ودراسة إيجابية لا تقبل هذه الكلمة إلا بمعنى واحد : لتدل على الدافع حين نشعر به حين يكون شهوة Envie كشهوة الضحك وشهوة السعال : فهي إذن تتعلق بحادث تحقيقي تمكن ملاحظته ، ولكنها بهذا المعنى ليست إلا بداية عمل ، عملٌ ناجمٌ ؛ والأمر حينئذٍ ، لا يتعلق بمنبع سري للاعمال .

٣ — ولهذه الاسباب كلها فنحن نعتبر الرغبة ، لا النزعة ، المنبع الحقيقي لا السري ، لاعمالنا وهيجاناتنا ، وذلك لان الرغبة حادث تمكن ملاحظته والتحدث عنه ووصفه . عندما أريد ابتياع شيء أو رؤية شخص فأنا اشعر بهذه الرغبة ، فنحن إذن لا نواجه تجريداً محضاً . ولكي تتضح فكرتنا عن الرغبة يجب أن ندرس : ١ — طبيعة الرغبة ٢ — كبت الرغبة ٣ — النماذج الهامة من الرغبات .

آ — طبيعة الرغبة

سندرس الرغبة على شكلين : من الظاهر أولاً بواسطة الملاحظة الخارجية الموضوعية ، ثم من الباطن بواسطة الملاحظة الداخلية الشخصية أي التأمل الباطني .

٤ — **دراسة موضوعية** : ضروري أن نأخذ بعين الاعتبار حالات مختلفة ذلك لأن الرغبة تختلف بدرجة الضغط عليها وإعاقة تنفيذها . وهي تختلف بالمظهر اختلافاً بيناً بحسب إجابتها عاجلاً أو آجلاً أو عدم إجابتها مطلقاً .

لنتصوّر بادئ بدء **أن ليس هنالك عائق جدي** : مثلاً طفل يرغب في دفتر يجده على طاولة أمه وما من أحد يفكر في معاكسته ، ففي مثل هـــذه الحالة البسيطة **يختلط العمل والرغبة** تقريباً ؛ وما على الطفل إلا أن يمدّ يده ليأخذ الدفتر . فليست الرغبة إلا القسم الاول من العمل بالضبط ويمكن أن لا نميز بين العمل والرغبة ، وإذا ميزنا فكأننا ندل على طرفين لشيء واحد . وهذا المثال البسيط يرينا أن الرغبة قريبة جداً من العمل ، وأنه يجب إضافتها للعمل : مع أنها العمل الناجم ، إنها تعبئة القوة التي ستنتهي بالعمل .

٥ — ولنفحص الآن حالة أخرى : في هذه الحالة **يوجد عائق** . مثلاً إن الام الحريصة على دفترها ترفعه عن متناول يد الطفل فتضعه على الرف وهنا نشهد **تفريقاً أهم بين الرغبة والعمل** ، ولنر ما سوف يحدث : يمكن أن **يغضب** الطفل ، وهذا هو التحول الاول للحيوية ، ويمكن أن يلجأ الطفل ، الذي نفترض أن عمره سنتين أو اكثر قليلاً ، إلى عملية طبيعية تماماً : انه سيحضر كرسياً ، ويضعه قرب الرف ويصعد عليه ثم يتناول الدفتر ، كل ذلك إذا لم تتداخل الأم في الوقت المناسب لتحرمه منه .

٦ — إذن فالرغبة تظهر للمراقب بسلوك خاص : أنها **المظهر لحادث يحاول التحقق** مداوراً العوائق او متغلباً عليها . فنحن إذ نظرنا من الظاهر إلى الرغبة رأيناها حادثاً ناجماً حادثاً يحاول ان يتحقق ، فاذا زال المنع تحققت ولم تبق رغبة ، أما إذا بقي المانع بقيت الرغبة ، أي دامت المحاولة والبحث .

٧ — ولندع هذا إلى الحالة التي تكون فيها **الرغبة مضغوطاً عليها تماماً دون ان تكون هناك استحالة مطلقة** ، ولكن هناك تحريماً أخلاقياً او دينياً او اجتماعياً

يمنع تحقيقها ، فمثلاً في الوقت الذي أريد فيه الخروج لعمل هام يزورني زائر ويجلس إلي متحدثاً ، فأنا أرغب طبعاً رغبة أكيدة في أن يذهب ولكني أحتفظ بهذه الرغبة تأدباً وكياسة ، فنحن إذن أمام رغبة **تبقى رغبة ولا تصبح عملا** كما كان الحال في المثالين السابقين ؛ وفي هذا الحال لا يستطيع المراقب الخارجي أن يرى إلا شيئاً قليلاً وذلك لأنه مفروض فيّ أنني ضبطت نفسي ؛ هذا ولا ينم عن حالي الداخلية إلا أعمال صغيرة كنظرة ألقيها على الساعة أو قدم أحركها أو غير ذلك من العلامات التي يكون الزائر ، عادة ، آخر من يلاحظها .

٨ — وأخيراً نصل الحالة التي تكون فيها **الرغبة عاجزة تماماً** ؛ حين تخرج الأمور تماماً عن إرادتنا ، ومثال ذلك : طفل يرغب في لعبة ولا يستطيع الحصول عليها بشكل من الأشكال ، أو راشد يرغب وجود صديقه الميت ، وفي هـذا الحال تكون **الرغبة منفصلة عن العمل كل الانفصال** ولا يستطيع المراقب رؤية شيء أو شيء ذي بال ، وذلك لأن الراغب لا يستطيع عمل شيء وإن استطاع فلا يستطيع أكثر من أن يلجأ إلى قوة يؤمن بها كالله او الأم أو الجن الخ ... فيرجوها . وعدا ذلك فلا يستطيع المراقب أن يلحظ شيئاً . **والمشهد كله يجري على مسرح آخر** ، وإلى هذا المسرح يجب الذهاب لفحصه .

٩ — **دراسة شخصية** : لنبحث إذن في شعورنا الخاص عن هذا المشهد الخفي الذي لا يظهر إلا بصورة آخذة بالقلة .

ففي هذه الحالات ، ولا سيما الأخيرة ، **يوجد تخفيض خيالي للرغبة** ، ففي أثناء الزيارة غير المرغوب فيها أقود الزائر عشرين مرة إلى الباب ولكن على مسرح عقلي فقط ، وهكذا فأنا أمثل عقلياً مشهد الذهاب الذي لا استطيع تمثيله فعلياً . وبالاختصار فان **العمل الخيالي يحل محل العمل الحقيقي** .

١٠ — وهنا نجد من اللازم **التنبيه الى عدم الخلط بين** ما تكلمنا عنه أي

تحقيق **الرغبة على مسرح خيالي وبين** الحادث البسيط غير ذي القيمة ألا وهو **تخيل عمل** . فأنا استطيع ان أتخيل ، دون ان اجهد نفسي لتحقيق العمل ، أو اجهد نفسي لكيلا يتحقق ، كأن أتخيل مثلاً موت حبيب ، أما في الرغبة فالامر على عكس ذلك : يحاول العمل أن يتحقق ، فأنا اجهد بكل قواي لكي يتحقق الامر ، وفي اعماقي أحقق العمل حتى النهاية ولكن على مسرح عقلي . وهكذا نستطيع ان نقترف جريمة اخلاقياً دون ان يظهر منها شيء ؛ نستطيع ان نحيا خيالياً حياة لا نستطيعها فعلياً ، ولو كان الانسان قادراً على كل شيء — لو كان يملك (خاتم المارد) — لحقق رغباته ، إذن نستطيع ان نقول **إن الرغبة هي ما كنا نفعله لو كنا قادرين على كل شيء** .

١١ — وبتعبير آخر **في الرغبة جهد جعله العائق عاجزاً ولكنه جهد حقيقي** كما في العمل الارادي ، نوع من الأمر الذي أعطي وكأنه سينفذ . وكثيراً ما يفاجيء الانسان نفسه وهي تلقي هذه الأوامر بصورة داخلية ، ففي اثناء الزيارة غير المرغوب فيها أفاجيء نفسي تصدر اوامر غير لبقة ، ولكنها لحسن الحظ داخلية (اذهب ، انهض ، الخ ....)

وهكذا فالرغبة ، في بقائها بحالة رغبة ، عمل يتنفذ بقدر ما يستطيع وهو يجد واسطة للتحقق على مسرح عقلي على الاقل .

وهنا لا نجد مندوحة عن بعض **الملاحظات** :

١٢ — نرى ان **هناك نوعين من الوجود** : احدهما **حقيقي مادي** والآخر **حقيقي خيالي** ، وهكذا يمكن ان نحيا هذه الحياة او تلك . وحتى هـــذه الحياة الخيالية ، فهي على درجات .

١٣ — ومن هذا نستطيع أن نتبين عمق بعض الاديان التي تقول : إن الانسان يجرم برغباته كما يجرم بأعماله .

١٤ — والخيال معزٍّ : لا نستطيع العمل فنتعزّى بالخيال .

١٥ — واخيراً نلحظ التقابل بين عالم الرغبة وعالم الحلم : هما في اعماق الامر عالم واحد فالحلم بجميع اشكاله ، من حلم اليقظة إلى الحلم العادي ، يتولد من الرغبة . وهذا ما سوف تظهره بوضوح اكثر دراسة الكبت .

والخلاصة فان الرغبة عملٌ منعه مانع خارجي كالبعد ، او داخلي كإرادتنا الاخلاقية ، وهي تجهد في التحقق رغم كل شيء ، إما بحركات مرئية غير مباشرة وملتوية ، وإما على مسرح خيالي .

ب — كبت الرغبة

١٦ — عندما نبدي رغبة فان هناك حالتين ممكنتين : اما ان تصبح الرغبة عملاً حقيقياً ويكفي لهذا ان يزول العائق ، وحينئذ تكون قصة الرغبة بمعناها الصحيح قد انتهت ، وما سيحدث هو العمل والسرور والهيجانات السعيدة المختلفة ، وقد يحدث هوىً . واما ان لا تستطيع الرغبة ان تتحقق اي إن المانع باقٍ والرغبة لن تزول ، ولكن سنضغط عليها وستبقى في حالة الانتظار انتظار لحظة الإنفلات . واثناء كل هذا الدور التحت الشعوري ستخلق آثاراً عديدة تدهش المراقب ولا يفهمها صاحبها ، وهي تفضح من بعيد القوة الخبيثة ، بقاء الرغبة هذا ، المضغوط عليها كانها رفاص ، يدعى كبتاً .

وآثار الكبت على نوعين : آثار عاجلة ، واخرى آجلة :

آثار الكبت العاجلة :

١٧ — هناك اولاً الألم . هذا المنع للعمل ، الذي يحاول التحقق ، مؤلم في حدّ ذاته : لقد قلنا إن هناك تحققاً خيالياً حقيقياً على مسرح الاحلام ، ولكن يبقى الخروج إلى عالم الحقيقة ، وعدم الخروج هنا يخلق ألماً .

وكثيراً ما يتلو ذلك **الغضب** ، فعندما يكون العائق ، او عندما نحسب ان العائق ، **ارادة** تقاوم ، ينفجر الغضب عادة . فالطفل الذي يطلب شيئاً ولا يعطاه يثور ، والراشدون أنفسهم يتصرفون تصرفاً مشابهاً مع تحفظٍ واحد ، وهو أنهم قد يخفون علائم الغضب إن كانوا معتادين ضبط النفس .

وهذا بالتأكيد ، تحول في القوة فكل القوة التي كانت مدّخرة لتحقيق الرغبة التي أوقفها المانع تحوّلت إلى غضب .

١٨ — وكبت الرغبة يسبب **الحزن** في بعض الأحيان ، وهذا ما يحدث حين يكون الضغط أعمق ، **عندما يمنع على الانسان** لا التصرف فقط ولكن **الرغبة نفسها** فلا يسمح له بأن يرغب أي لا يسمح له بتحقيق العمل عقلياً فالحزين لا يستطيع أن يرغب ، وفي اللحظة التي يريد أن يحلم فيها بسعادة مستحيلة يتوقف حلمه لتأكده من عجزه ، وهذا ما يحدث بصورة خاصة فيما يتعلق **بأسفنا على ماضينا الضائع : انها رغبات ولكنها رغبات ولدت ميتة .**

١٩ — واخيراً فان الكبت يخلق حالة **حيرة** (اضطراب) **حينما يكون سببه معاكسة رغبة اخرى** ، حينما توجد رغبتان متضادتان تتكابتان . ومن حالات الحيرة هذه نشير بصورة خاصة إلى **الخجل والتواضع** . فالخجول في ازمة كبت لأنه ضحية رغبتين متضادتين : رغبة الارضاء من جهة ورغبة المضي غير ملحوظ من جهة أخرى ؛ والمتواضع بين رغبتين إحداهما سعادة تلقي المديح والأخرى عدم إظهار هذه السعادة .

آثار الكبت الآجلة

٢٠ — مع طول الزمان تنتج الرغبة المكبوتة حوادث يصعب فهمها ، وهاك أهمها :

أولاً : **الاحلام يقظة** ؛ ولقد اتضح لنا من دراستنا للرغبة قرابة الرغبة والحلم ، والحقيقة فان **الاحلام تقودها في الغالب رغبات مكبوتة** ، ويعيش الانسان على هذه الصورة الحياة التي امتنعت عليه في الواقع .

وثانياً : **الاحلام** ، وقد تحدثنا عنها (انظر الفصل الرابع) .

٢١ — وثالثاً **مسرات خاصة** نعرفها جميعنا : **لذة القصة ، لذة التخيل** وحتى **لذة الفن** عامة ، فمن المؤكد ان القصة — بالنسبة لكثير من الناس — واسطة من الوسائط التي يستطيعون بها ، خيالياً على الأقل ، أن يحيوا حياة تختلف كثيراً عن حياتهم ؛ ويمكن ان نقول الشيء نفسه عن المسرح . ويجب ان يحقق العمل رغبة حقيقية ، مكبوتة ولكن حية .

٢٢ — ورابعاً : **اعمال وسلوك** يدهش من يحيط بنا كما يدهشنا أنفسنا ، واذا كان الانسان ضعيفاً فان انفجارات الرغبات القديمة **قد تأخذ وجهة مرضية** وتسبب اضطرابات عصبية .

٢٣ — وخامساً : فان الرغبة التي لم تحقق يمكن ان **تعود للظهور بشكل رغبة اخرى** : وكثيراً ما لا يتبين احد ان هذه الرغبة ليست إلا الأولى محوّرة فمثلاً رغبة التسلط الأساسية يمكن ان تتحول ، إذا لم يمكن تحقيقها ، إلى إحسان فعال .

٢٤ — سادساً : يحدث أحياناً أن تسبب الرغبة المكبوتة **مخاوف مقيقة او وساوس** . فمن كثرة ما يقول الانسان لنفسه : « أخشى ان ارتكب الخطأ الفلاني » ينتهي إلى قلق ، إلى خوف حقيقي من ارتكابه ، ومن هذا قد ينتج مرض الوسواس .

٢٥ — ينتج من كل هذا أن **الرغائب المكبوتة تشترك في تكوين الطبع** .

فطبعي ليس عاداتي وسجيتي أو فرديتي المضونة فقط ، ولكنه رغباتي الأساسية ، رغباتي التي أرضيها لو كنت قادراً على كل شيء . وكثيراً ما اجهل انا نفسي هذه الرغبة او الرغبات ، أنها في الغالب مكبونة بواسطة من الوسائط .

حـ — أنواع الرغبات الرئيسة (او النزعات)

٢٦ — لقد شرحنا فيما سبق وجوب التخلص من كلمتي ميول ونزعات ، ولذلك فلن نعيد القول هنا ؛ ولكن الامر الذي لا مرية فيه هو أن كل الأعمال واللذائذ والآلام والأهواء عنـــد الناس تعود إلى نماذج بعينها لا تختلف ابداً ، وكل شيء يجري كما لو أن قوة عظيمة تدفع الكائنات البشرية نحو اهداف معينة قليل عديدها سهل تمييزها .

وإذا لم يكن بدٌّ من تسمية القوى المزعومة التي تدفع بالانسانية إلى اهداف معينة نزعات وميولاً ، فاننا نقبل هذه التسمية شريطة أن لا ننسى ان الأمر هنا ليس متعلقاً بحوادث إيجابية ولكن بكلمات يسيرة الاستعمال ، وان الحوادث الايجابية الوحيدة الخبيئة تحت هذه الكلمات هي الرغائب والأفعال والهيجانات .

وبعد ان اتخذنا هذه الحيطة نستعرض هذه النزعات اي هذه الرغبات الكبيرة الهامة التي تقود العالم . وإتباعيٌّ ان نميز بين **ثلاثة انواع** منها : فنحن إما أن نرغب في **غيرنا الخاص ، او غير اشباهنا ، او غير غير شخصي ومثالي** . هذا وقد عرضنا للكلام عن هذه النزعات والميول باختصار حين تكلمنا عن الغرائز والميول الغريزية .

آ — النزعات الشخصية

٢٧ — النزعة الاولى التي تقود العالم هي **حب الحياة** او **غريزة حفظ البقاء** : لننظر في مجموع الأعمال البشرية ، نجد ان القسم الأعظم منها محصور في البحث عن الوسائل لتجنب الموت وبصورة خاصة **البحث عن الغذاء** الذي هو أم الغرائز بدون شك ؛ وطيلة أجيـال عديدة كانت هذه هي الغريزة الوحيدة عند الانسان

تقريباً ؛ واليوم ايضاً رغم تعاظم قدرتنا الهائل فانها ليست **اقدم هدف** فحسب ، ولكنها **اكثر الاهداف البشرية سيادة** ، وللاقتناع بذلك فكر في مئات الحرف التي لا عمل لها إلا إنتاج الأغذية وجمعها وبيعها .

٢٨ — **والنزعة الى السعادة** عامة كحب الحياة نفسه حتى ان بعض الفلاسفة يرون فيها الرغبة الخالدة السامية للانسانية فنحن لا نرغب في الخيرات الأخرى إلا من اجل السعادة التي تجلبها ، فالسعادة إذن الهدف الوحيد المرغوب فيه لذاته ؛ وإن كان ليس هنا محل مناقشة الفلاسفة القائلين بهذا كأرسطو وستوارت ميل فانه من غير المشكوك فيه أن هذه النزعة لا يمكن قهرها رغم كل المحاولات والاقوال .

٢٩ — وهذه السعادة التي ننزع إليها جميعنا حالة سامية خالية من كل الآلام حافلة بمختلف اللذات ، او على الاقل فان اللذات فيها تزيد على الآلام ويبحث الانسان عنها بطريقين مختلفين : فاما ان يعمل الانسان على ان يزيل من حياته الحوادث المؤلمة بأن يحسب النتائج النافعة او الضارة لاعماله وهذه هي الطريقة النفعية ؛ وإما ان يتحكم الانسان في نفسه ليحصل على هدوء النفس النهائي مهما حدث وليتحمل ضربات القدر ، وهذه هي الطريقة الابيقورية . ولهاتين النظريتين قيمة اخلاقية مختلفة كثيراً ، أما ما يبقى لنا — نحن طلاب علم النفس — فهو تمني الناس اجمعين حالة سامية تكون السعادة فيها أكثر ثباتاً وأقل اختلاطاً .

٣٠ — **اما الرغبة في التحكم** (الرغبة في السيطرة) او (إرادة التحكم) على حدّ تعبير نيتشه ، فهي ليست اقل اهمية من سابقتيها في الحياة البشرية ، ويقصد بهذه الرغبة الرغبة في التحكم ؛ حكم الناس الآخرين او حكم العالم ، فكل إنسان — وحتى اكثر الناس تواضعاً — يحاول ان يشغل اكبر محل مستطاع في محيطه .

وإذا نظرنا من جهة اخرى الى مسير البشرية بمجموعها (وهذا ما نسميه بالرقي) رأينا انه مسير نحو التحكم ، الرقي الاخلاقي يمكن ان يشك فيه او

على الاقل يمكن ان يعتبر بطيئاً جداً ، اما الرقي في القدرة فهو حقيقة ملموسة في الاختراعات كلها ، المشكوك في اثرها في السعادة والاخلاق ، نمو لا مراء فيه في القدرة والتحكم ، إنها انتصارات على العالم المادي ، انها تغلب على المسافات والزمان . إذن فلمسير العالم معنى واضح : انه يتجه نحو التحكم الكامل في الطبيعة وهذا دليل على ان الرغبة في التحكم ، على الاقل فيما يتعلق بالمجموع ، ذات اهمية عظمى .

٣١ — ونضع في المقام الرابع **الرغبة في المديح** مع مشتقاتها كالرغبة في النجاح والشهرة والمجد ؛ ولعل الكلمة الصحيحة للدلالة على هذه الرغبة هي **النزعة الى حب الذات** Amour-propre التي اذا تزايدت واهتاجت سميت غروراً ، ولا شك في انها قوة عظيمة تقود الناس ، ولكنها اقل اهمية وابتدائية من سابقاتها .

٣٢ — ولهذه النزعة صبغة اجتماعية وغيرية ، وذلك لاننا نبحث عن المديح عند اشباهنا ، وان كان من الخطأ ان نعلق اهمية كبرى على هذه الصفة ، ذلك لاننا وان طلبنا مديح الآخرين لنا ، فان هذا ليس إلا واسطة ، وما غايتنا الحقيقية إلا إعجابنا بأنفسنا .

وإذا كان المديح حبيباً الى نفوسنا فذلك لانه يقنعنا بقيمتنا ، واذا كان النقد بغيضاً الى نفوسنا في بعض الاحيان ، فسبب ذلك انه يسبب لنا شكوكاً في كمالنا ، والخلاصة اذا اردنا تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية ، قلنا انه على اساس حب الذات وعزة النفس توجد **الكبرياء** .

٣٣ — **اما الرغبة في الغنى** فتحتل المحل الخامس وهي **غريزة الامتلاك** وشكلها العصري الشائع [حب الدرهم] او الاندفاع المستميت نحو الثروة ، وهذه الرغبة العظيمة الاهمية عند عالم الاجتماع بسبب سيادة المشكلة الاقتصادية في المجتمعات ليست ابتدائية كسابقاتها . والواقع إن هذا البحث عن الدرهم يتغير شكله بتغير الهدف الذي يطلب الدرهم من أجله ، فأنا قد أبحث عن الدرهم لأعيش او لأزيد سعادتي او قوتي او لاصنع المعروف مع غيري . ومن الجلي ان طبيعة رغبتي تتغير بتغير هذه الحالات المختلفة ، وبحسب هذا التغير تنتهي هذه الرغبة الى واحدة

أو عدة من الرغبات الأخرى . لا شك ان هناك أناساً يحبون الدرهم للدرهم ، ولكن هذا معناه مرض البخل غير السوي .

٣٤ — وأخيراً هناك الرغبة المجهولة في كثير من الاحيان وذات الاهمية العظمى وهي **الحاجة الى الحركة** ، فالناس يعملون دائماً على إهاجة نفوسهم ، على العيش تحت أعظم ضغط ممكن . وكل المثيرات الجسدية : كالكحول والقهوة والشاي الخ . تخدم هذا الهدف ؛ والحياة الاجتماعية كلها بأغانيها ورقصها واسطة للإثارة ، وقلّ مثل هذا عن كثير من الألعاب والرياضات والأعمال الأدبية والتمثيلية والموسيقية .

٢ — النزعات الاجتماعية او الغيرية

٣٥ — **نميز** في النزعات الاجتماعية **بين ما كان منها ملازماً للجماعات نفسها وبين ما كان منها ملازماً للافراد .**

هناك ، بادئ بدء ، نوع من **غريزة حفظ البقاء عند الجماعة** كما توجد عند كل منا ، فكل الجماعات الانسانية تجهد لبقائها في حياتها الجماعية كما تعمل على ترقيتها ، وهذا الجهد ملحوظ في القبائل ، والعائلات ، والمعابد ، والجمعيات الخاصة وغيرها : فالشعب يريد الحياة والنموّ شأنه في ذلك شأن الفرد . ومن هنا **نجد في الجماعات وخاصة عند الدول كل النزعات الشخصية** : فكل شعب يبحث عن الرقي والغنى والترف التي هي اشكال من سعادته ؛ وكل شعب يبحث عن التحكم إنه يريد فرض إرادته على غيره ؛ وكل شعب يحبّ ذاته وله كبرياؤه وعنجهيته .

٣٦ — **وهذه الحياة الاجتماعية تتطلب ثلاث شروط يمكن أن نعتبر نزعات ثانوية** وهي : ١ — **التعاون** فليس الاجتماع ممكناً دون تبادل المعونة في عمل عام ، وهذا التعاون إما أن **يكون بسيطاً** : الكل يعملون عملاً واحداً كالمجدفين في مركب ،

واما مركباً أي بتقاسم العمل (مثال ذلك : عمل البحارة في باخرة) . ٢ — **التقليد** الذي يبقي في الجماعة نوعاً من التشابه والتناسق تنحل الجماعة بدونهما .

٣ — وأخيراً **التعاطف** Sympathie أي النزعة لتقاسم السعادة والآلام مع الآخرين ، ذلك المبدأ الضروري في كل معونة وتضحية متبادلتين .

٣٧ — وإذا تركنا هذا النوع من النزعات الاجتماعية عند الأفراد وضعنا في الصف الأول **الحب الأمي** (نسبة للأم) الذي لعله الأساس لكل غيرية ؛ وطالما تساءل البشر كيف يمكن أن تنبثق الغيرة من الانانية ، وكيف يمكن أن ينبجس حب الغير من حب الذات . والواقع إن هذا يحدث عند الأم بصورة طبيعية تماماً : فطيلة عهد الرضاعة تحب الأم في طفلها نفسها وغيرها .

٣٨ — أما الثاني فهو **الحب** بمعناه الواسع الذي شمل الصداقة والحب الهيجاني ، نزعة الانسان لأن **يُحِبَّ ويُحَبَّ** : تلك الرغبة القوية الثابتة التي تحرك الانسان والتي لا تقل قوة عن الرغبة في الحياة أو التحكم .

٣٩ — وكلمة (حب) تعني أولاً **السرور بوجود المحبوب** ، فحبك شخصاً معناه : سرورك برؤياه ، وتعني ثانياً : **الألم لغيابه** وليس محباً من لا يتألم لغياب حبيبه .

وطبيعة الحب هذه **تفصح عنها مرظات** ، يمكن ان نلاحظها عند الطفل عند اقتراب شخص يحبه : **يبتسم** (علامة السرور) **ويفتح عينيه** ليراه جيداً **ويمدُّ ذراعيه** نحوه ، وهذه التعابير نفسها نجدها عند الأم : إنها تبسم لطفلها وتتأمله وتعانقه ؛ وهذه هي مظاهر كل حب ، وعلى عكس ذلك **البغض** : فالطفل يبكي أو يصرخ ، يغلق عينيه أو يختبئ ، يدير ظهره أو يبتعد لمرأى من يكره .

تلك هي النزعات الاجتماعية الكبرى ، ولنذكر انها **تبقى على النزعات الانانية التي تحولها وكثيراً ما تغير طبيعتها** ، فمثلاً يمكن أن يختلط حب التحكم بالحب فيغير شكله بأن يضع في المحل الأول إرادة التسلط على نفس أخرى مع أن الحب الحقيقي إخلاص وتضحية ورغبة بالاتحاد .

٣ — النزعات غير الشخصية

وهي النزعات التي تسير بنا نحو مثل أعلى : حقيقي ، جميل ، خيّر ، وحتى نحو الله .

٤٠ — التعبير المتعارف عليه بهذا المعنى هو (الميل الى الحقيقي) أو (**حب الحقيقة**) ومع ذلك فيجب أن لا ننخدع بهذا ، **فالتمييز بين الحقيقي والخاطئ بعيد عن ان يكون ابتدائياً** ، إنه أمر متأخر عند الأفراد وعند الانسانية ، ويبقى أمراً نادراً اكثر مما نحسب ، ويكاد يقتصر على العلماء . إنه بالاجمال روح النقد وهو من الأمور التي تحصل عليها النفس المثقفة متأخرة . أما ما هو عام حقيقة فهو **الحاجة الى تفسير** ، فالناس ، وحتى أقلهم ثقافة وأصغرهم سناً ، يريدون ان يعرفوا لماذا كانت الأشياء على ما هي عليه ؟ لماذا يوجد العالم ؟ لماذا توجد عواصف وصواعق ؟ الخ ... أما ان يكون التفسير صحيحاً او خاطئاً ، فان هذا مما لا يهم الناس الابتدائيين ، وهذه الحاجة طبيعية ، حتى أنها تسود نومنا ، وما الكثير من احلامنا إلا تفاسير ممكنة اومستحيلة ، لا يهم ؛ لمشاكلنا وتساؤلاتنا [كما رأينا] .

٤١ — **الميل الجميل** : وهنا ايضاً تجب الحيطة ، فهناك كثيرون من الناس الذين يصعب ان نلحظ عندهم دافعاً لحب الجمال . صحيح ان كل الناس ، في بعض اللحظات يصيحون معجبين : ما اجمل هذا ، ما ابدع ذاك ؛ ولكن يجب أن لا ننخدع بمعنى هذا الصياح ومداه ، كثيراً ما يرددها الفرد بالتقليد فقط ؛ وحتى

حين تترجم عن عاطفة حقيقية ، فاننا لا نعرف ابداً فيما اذا كانت صادرة عن تقدير للجميل : **بمكن ان تكون لذة ما ، انانية** كل الانانية **وحسية** كل الحسية ، او على العكس: **عقلية محضة أو أخلاقية** — ولتقدير اهميـــة النزعات نحو الجميل تقديراً صحيحاً **يجب اعتبار الانسانية بمجموعها** ، وحينئذ نرى نتاج العمل الفني العظيم : معابد ، تماثيل ، صور ، قصائد ، أغاني ، الحان : عالم متناسق يسمو عن عالم المادة . يظهر اذن ان للانسانية قدرة خالقة ، رغبة عظمى في تخليد مظاهر من هذا العالم تسارع في الاختفاء .

٤٢ — **والميل الى الخير** أمر غير مشكوك فيه فهو موجود عند كل الناس الأسوياء ، ولو اردنا ان نعيد هذا الميل إلى عنـاصره الهامة لقلنا إنه **نزعة الى الابتعاد بقدر الامكان عن الحالة الحيوانية** . وهي بهذا المعنى الدقيق ميل يقود الى السمو ؛ ولعله ليس هنالك شخص واحد يرضى ان يعيش عيشاً حيوانياً ولو كان في ذلك العيش كل اللذائذ الحسية ؛ ويمكن البحث عن هذه الحياة الانسانية بالفكر غالباً او بالحب غالباً ، او في نوع من الحكمة العملية غالباً ، ولكن يوجد دائماً جهد نحو الانسانية ؛ ونحن **نلحظ هذه الغريزة الاخلاقية بسهولة في التفكير اكثر مما نلحظها في السلوك** ، فشرّ الناس نفسه لا يستطيع الامتناع عن احتقار الأعمال الخسيسة الشريرة . وهذا الاندفاع المتسامي في مجموع البشرية يسمى (**مدنية**) وهي بالضبط الابتعاد بأسرع ما يمكن في القيام بكل الأعمال ، حتى اكثرها تواضعاً ، عن السلوك الحيواني : ويكفي للدلالة على هذا مقارنة وجبة طعام متمدين مع التهام ابتدائي .

٤٣ — واخيراً **فالميل الديني** من اعم الميول واقواها ، ففي كل الأزمان وعند كل الشعوب وجدت أعمال دينية لا عدّ لها ، وكانت هذه الأعمال تستهدف دوماً اتصال الانسان بموجود سام غير مرئي وقادر على كل شيء : طقوس وعبادات مختلفة ، صلوات ، وبعد ذلك عبادات داخلية .

٤٤ — هذه هي النزعات التي تقود العالم ، **والانسان الكامل هو الذي توجد فيه كلها متناسقة متوازنة** فحبه ذاته مرتبط بحبه الغير والاثنان مرتبطان بحب المثل الأعلى ، **وأعط هذه النزعات أثمارها** : لأنه يجب ان نعيش أولا ، **ولكن السامية منها هي الانبل** والأثمن ، ذلك لأنها هي التي تجعل للحياة قيمة .

وسيادة واحدة منها عند انسان ما تحدد طبعه فعند هذا تسود رغبة الغنى وعند ذاك رغبة التحكم ، وعند الثالث رغبة الحقيقة الخ ...

د — الرغبة والتربية

٤٥ — **قيمة النزعات والميول : لسنا نتفق** مع روسو وغيره من الفلاسفة القائلين **بأن النزعات والميول خير كلها** ، إذ أن نزعات شريرة كثيراً ما تظهر عند الطفل مباشرة . **كما أننا لا نتفق** مع غيرهم من الفلاسفة والمفكرين القائلين **بأن فطرة الطفل شريرة** خبيثة ، فالنزعات الطيبة تتجلى عند الطفل منذ فجر حياته . وعمل المربي هو أن يكتشف ما عند الطفل من ميول خيّرة فيقويها وما في طبيعته من ميول شريرة فيقوّم اعوجاجها .

٤٦ — **تربية النزعات الشخصية : ليست الميول الشخصية متساوية في درجة نمائها عند كل الاطفال ، فمنهم من نجد تتساوى عندهم النزعات الشخصية والنزعات الغيرية** ، فعمل المربي حينئذٍ أن يحد عن ميولهم الشخصية ويعدلها وأن يقوي عواطفهم الكريمة ، **ومنهم من ينسون نفوسهم في سبيل ارضاء معلميهم وأصدقائهم** ، وكثيراً ما تصل هذه الحال بهم حدّ الافراط في استخدامهم . وعبثاً يحاول الناصح جعلهم يقلعون عن ذلك ، فعند هؤلاء تجب

إهاجة حب الذات ؛ وأخيراً **منهم من ولدوا وقلبهم خلاء وعاطفتهم جفاف** والواجب فيما يتعلق بهؤلاء أن نبدأ بتهذيب الأشكال المختلفة لحب الذات عندهم بشكل نحيل معه الوضيع منها إلى رفيع ، ثم ننتقل إلى زرع العواطف الغيرية في نفوسهم .

منح الطفل الشعور بالحياة : إفهامه ما يجب أن يكون ، والغاية التي يجب أن يستهدفها ليحيا حياة سامية رفيعة . تعليمه تحمل آلام الحياة كرجل خيّر فاضل واجداً فيها فرصة للبرهنة على عظمته وقوته ، إطلاعه على حياة العظماء وسير الأبطال ونضالهم ، لاراءته كيف تكون الحياة الحافلة بمجيد الأعمال ، كلها واجبات المربي .

٤٧ — **حب التملك :** ويعتنى في تربية هذا الميل بما يلي :

(١) **محاربة الأنانية :** هنالك أطفال لا يعطون أبداً ، فمن الواجب محاربة هذه النزعة باستثارة النفعية عندهم « أعطِ تُعطَ » .

(٢) **تعويد الطفل احترام ملكية الغير .**

(٣) **ازاقة الطفل لذة الكرم :** وذلك بالمثل ، وبالتفريق في ذهنه بين الغنى والسعادة ، وبتكليفه الاعطاء ومشاركة الغير بما في يديه .

(٤) **تعويد الطفل روح الاقتصاد :** بالمحافظة على ما يملك والاعتناء به .

٤٨ — **حب الذات :** وعلى المربي أن يراعي في تربية هذا الميل ما يلي :

(١) **وجوب عدم القضاء على حب الذات بل توجيهه الى الخير :** حب الذات يوحي للطفل احترام النفس ويعطيه شجاعة ويعينه في تفهم الواجب والشرف ، ولذلك فليوجه نحو هذه الأهداف .

(٢) **وجوب اعطاء الطفل فكرة صحيحة عن قيمته :** انخداع الطفل في قيمته الشخصية يؤدي به إلى أعمال طائشة ، والقيام بما قد لا يستطيع ، فيحتقر الأمور المتواضعة والمهام الصغيرة طالباً عظام الأمور ، حتى إذا حاولها وعجز

عنها كان ردّ الفعل يأس قاتل و (عقدة قصور) ، ولذلك كان من واجب المعلم تعرف طلابه وتعريفهم على أنفسهم وإعطائهم فكرة صحيحة عنها .

(٣) **بناء تربية حب الذات على طبع كل طفل وسجاياه** : يجب مداراة الخجول وتشجيعه وجعله يثق بنفسه ، إنه لخطأ فادح القول عن طفل أنه لا يصلح لشيء وليحذر المعلم تخجيل الطالب المقصر الذي بذل جهده ، وجعله موضع سخرية رفاقه وهزئهم .

(٤) **محاربة الغرور عالما يظهر** بلباقة ومهارة ، فهناك طبائع حساسة تجب معاملتها بحذر خشية جرحها ، كما أن هناك طبائع يمكن مجابهتها رأساً .

(٥) **وجوب اجتناب المبالغة في المديح** : كما يفعل بعض المغفلين من الآباء والأصدقاء .

(٦) **تحذير الطفل من الغرور وإفهامه مضاره** .

(٧) **تحويل الغرور الى منافسة وجهد في سبيل الغير** : بالاستفادة من حب الأطفال للبطولة والتضحية .

٤٩ – **الحاجة المحركة** : وفي تربية هذه الحاجة راعِ النصائح التالية :

(١) **دع الطفل يتحرك ولكن علمه ضبط النفس** : منعه من الحركة مضرٌّ ، ولكن تعويده ضبط النفس رويداً رويداً أو تحويل الحركات التي لا نفع فيها إلى أعمال ، أمرٌ ضروري .

(٢) **إلجأ في تدريبك الى المناهج الفاعلة** : حيث يعمل الطفل بنفسه ولا يكتفي بالاصغاء ، ليجهد الطفل فانه يلتذ بذلك كما يسر بأن ينجح في أعماله .

(٣) **تذكر ضرورة اللعب** : صحياً ونفسياً واجتماعياً .

النزعات الفطرية :

٥٠ — **محاربة أنانية الطفل** : كثيرٌ من العائلات تربي هذه الأنانية بخص

الطفل بامتيازات مختلفة والابتسام لأخطائه في هذا الصدد . وأولى وسائل هذه المحاربة المثل والقدوة ، وثانيتها تحميل الطفل نتائج انانيته كحرمانه من اللذاذات التي يسعى إليها وإجباره على التضحية .

٥١ — **تنمية عطفه على الغير وحبه له** في العائلة والمدرسة يجب أن يعيش الطفل في جوّ من الحنان والرحمة والعطف على الغير . كما يجب تعليمه تخفيف آلام الغير .

٥٢ — **الصداقة والحب** : وفي تربية هذه النزعة راع ما يلي :

(١) **عارب في الطفل النزعات الانانية المعاكسة للصداقة** : كالغرور ، وحب الذات ، وسرعة الغضب ، والمشاكسة ، وعلم الطفل تحبيب نفسه للناس .

(٢) **نوّر الأطفال فيما يتعلق باختيار الاصدقاء** ودراسة الناس قبل اتخاذهم أصدقاء : معرفة ميزاتهم ، وأفكارهم ، وقيمتهم الأخلاقية . والأصدقاء الحقيقيون سهل اكتشافهم ، انهم الذي تقود صحبتهم إلى الخير .

(٣) **راقب حياة الطفل الجسدية** .

(٤) **راقب قراءاته وعلاقاته** .

(٥) **محبة الاطفال باخلاص** تسهل مهمتك .

(٦) **ضرورة التربية الجنسية** .

(٧) **وجوب العناية بالنفساني** .

النزعات المثالية .

٥٣ — **النزعة الى الحقيقة** : وفي تربيتها أعن بما يلي :

(١) **تربية حب الاستطلاع** : وتشجيع الصالح من هذا الحب وتشذيب الطالح ، وإذاقة الطالب لذة العلم وتحبيبه في البحث العلمي والاكتشاف .

(٢) **زرع حب الحقيقة في نفس الطفل** : الطفل غرٌّ سريع التصديق صريح ، فربّ هذه الصراحة وسلامة النية ، ووجهها وقوّمها .

(٣) **تشجيع تساؤل الطفل**: إنه يريد أن يعرف فنوّره **ووجه هذا التساؤل نحو المعرفة العلمية** وكن في ذلك صبوراً واسع الصدر .

(٤) **لا تقبل أن يكون الطفل منفعلاً** ، وليشترك في الدرس والبحث والسؤال .

(٥) **حببه بالعلم بحديثك الدائم عن العلماء، وأعمالهم وعظمتهم** .

(٦) **كن القدوة في الصراحة** .

(٧) **ثق بالطفل ثقة معقولة** .

(٨) **ربّ صراحته وإخلاصه** .

٥٤ — **حب الجميل** واذكر في هذا الصدد :

(١) **ضرورة التربية الجمالية** (ولا سيما الجمال الأخلاقي المعنوي) .

(٢) **وجوب وضع الطفل في بيئة ملائمة لهذه التربية** اعتن بالتنسيق والنظافة والتنظيم وحسن الذوق **في البيت** ؛ وبجمال المدرسة ، وفسر الصور الجميلة في كليهما وكذلك الزهور والأغراس .

وجوب إيقاظ عاطفة الإعجاب وتربية الذوق واستخدامها كمشوق في التربية ومساعد فيها .

(٤) **العناية بتنمية حب الطبيعة** .

(٥) **وجوب تحبيب الطفل بالفن على مختلف أشكاله** ولكن تذكر أن قراءات الطفل يجب أن تكون مناسبة لمداركه .

٥٥ — **حب الخير**

(٢) **يبدأ تكوين العاطفة الأخلاقية في العائلة** : فتأثير الوالدين هام

جداً ، والكلام الطيب والقدوة الصالحة يؤثران في وجدان الطفل ، وإهمال العائلة هذا الواجب قتلٌ لأخلاق الطفل وجريمة لا تغتفر .

(٢) **أما مهمة المدرسة فإكمال عمل العائلة** : يجب أن تظهر أعمال المعلم وأقواله أنه رجل خير ، وليحذر المعلم كثرة الوعظ ، وليذكر أن تأثير البيئة المدرسية هام جداً ، فاذا كانت منظمة منضبطة واعية أنشأت عادات أخلاقية تدوم ، وفي الوسط المدرسي يتعلم الطفل الحياة الاجتماعية ؛ ولكن كثيراً ما تهدم العائلة والرفاق والشارع ما تبنيه المدرسة .

(٣) **وجوب تعريف الطالب بواجباته تعريفاً كافياً** : تعريفاً يفضي إلى العمل ويحثّ عليه ويساعد على استمراره .

(٤) **ضرورة استخدام التعليم في تنمية العاطفة الاخلاقية** : ولاسيما دروس التاريخ والعلوم والآداب ، هذا والدراسة نفسها عمل أخلاقي ، وهي تقدم فرصاً على المعلم أن ينتهزها للقيام بهذه التربية .

(٥) **لزوم الاستفادة من سير الابطال والعظماء** : ولا سيما في تاريخنا القومي . ويجب عدم الاقتصار على استثارة الاعجاب ؛ بل ترجمة هذا الاعجاب إلى أعمال .

٥٦ — **العاطفة الدينية** : وفي تربيتها يجب أن نعني بما يلي :

(١) ثقافة دينية واسعة صحيحة متينة .

(٢) تكرار مستمر لحقائق الدين الاساسية .

(٣) التحبيب المستمر بالدين .

(٤) تعويد الطفل القيام بالفروض الدينية .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصلان السادس والثامن

٢ — الجارم وأمين : الباب الرابع

٣ — خلف الله ـ محمد : الفصلان الأول والثاني

٤ — خليل ـ نظمي : الفصلان الأول والثاني

٥ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثاني : الفصل الثالث

٦ — عبد المسيح ورفاقها : البابان السادس والسابع

٧ — عطية الله ـ أحمد : ص ٦٢ — ٩١

٨ — قنديل ـ أمين مرسى : الجزء الأول ، الفصل التاسع

٩ — المصري ـ ايريس : الفصلان الخامس والسادس من الجزء الاول

الفصل الخامس عشر

الهيجان

تصميم البحث

آ – بسط النظرية المحيطية في الهيجان .

١ — النظرية الشائعة في الهيجان .

٢ — نظرية جيمس ولانج المحيطية .

ب — دلائل بجانب النظرية المحيطية .

م — اعتراضات عليها .

ء — القيمة الحقيقية لهذه النظرية .

١ — صحيحة فيما تثبت .

٢ = خاطئة فيما تنفي .

ه — الطبيعة الحقيقية للهيجان .

١ = كيف يتولد : خرق للتكيف .

٢ = نتائج هذا الخرق : جهد غير قادر وتحرك .

٣ = الوجهات المختلفة لهذا التحرك : دماغي ، حشوي ، حركي ، عقلي .

خلاصة : الهيجان اضطراب محيطي نفسي في الوقت نفسه ذو مركز ومنبع هو الجهد .

١ — يمكن تعريف الهيجان بأنه **اضطراب نفسي وعضوي سببه ظهور حاضر** (حالي) **لأمر يجذب أو يعاكس رغباتنا** . يطرأ خطرٌ مثلاً فأهتاج ، ألقى برقية سيئة فأهتاج ، آخذ علماً بنجاحي فأهتاج أيضاً ، ولكن بالسعادة ؛ ولعل من الأنسب أن **نقصر كلمة هيجان على الاضطراب الحاصل في اللحظة نفسها التي يحدث فيها الحادث** . نعم يمكن أن يبقى من هذا الهيجان مسحة من السعادة أو الحزن تدوم أياماً أو شهوراً أو أكثر ، ولكنا نخطئ إذا سمينا هذه السعادة أو الحزن الثابتين هيجاناً ، ومن الأنسب أن نستعمل عوضاً عنه (عاطفة) .

٢ — والهيجانات البسيطة تظهر حسب الترتيب التالي عند الطفل : **الخوف** (في الأسبوع الأول — من الضجة .) ؛ **السعادة والحزن** والتعاسة (حوالي الشهر الرابع) ؛ **الغضب** (حوالي الشهر السادس) ؛ **الحنو** La tendresse (حوالي الشهر العاشر) . **ثم تتكون تدريجياً الهيجانات المركبة** المشتقة عن هذه الهيجانات البسيطة : الشفقة ، الحسد ، الشهوة ، الخجل ، هيجانات الجمال ، والهيجانات الأخلاقية والدينية .

٣ — أما مشكلة الهيجان كما تعرض لناظرينا منذ دراسات (جيمس) و(لانج) فهي التالية : **هل الهيجان حادث مركزي** أي موجود في النفس أو الدماغ ؟ **أم هو حادث عضوي** موجود في الجسم عامة والأحشاء خاصة .

أما النظرية الأولى فهي نظرية الذوق العام ونظرية أغلب الفلاسفة القدماء . وأما النظرية الثانية المسماة بالمحيطية (لا الفيزيولوجية لسبب سنذكره) فقد قال بها سنة ١٨٨٠ و ١٨٨٤ العالمان اللذان أتينا على ذكرهما .

وسنجعل من هذه النظرية مركز بحثنا فنبدأ : ١ — ببسطها ٢ — ثم نذكر الدلائل التي تستند إليها ٣ — ثم نذكر الاحتجاجات عليها ٤ — ثم نذكر قيمتها الحقيقية وأخيراً ٥ — نستنتج طبيعة الهيجان الحقيقية .

آ — النظرية المحيطية

٤ — لعل خير نهج في بسطها **مقارنتها بالنظرية الشائعة** ، فالمقارنة كف
بايضاحها . ويمكن تلخيص النظرية الشائعة بما يلي :

١ً — الهيجان حادث مركزي كالارادة أو التفكير أي إنه حادث نفسي
أو قل إن شئت حادثاً من حوادث الدماغ ، فليست المشكلة هنا ؛ إن كنت تفض
اللغة المادية قلت إن الهيجان يحدث في الدماغ ؛ أما إذا كنت ترجح اللغة النفس
فقل إن الهيجان يحدث في النفس ، وهو في الحالين حادث مركزي .

٢ً — الظواهر الجسدية للهيجان التي لم ينكرها أحد : كالاحمرار والاصفر
وخفقان القلب والارتجاف الخ ... هي علامات وآثار الارتجاف .

٣ً — فترتيب الحوادث إذن هو التالي : آ — **ارى الخطر** . ب — **بظ**
عندي هيجان الخوف . ء — **أرتجف ، أهرب** .

٥ — إلى جانب هذا الرأي للذوق العام لنذكر النظرية الجديدة :

١ً — الهيجان حادث عضوي أو ، بصورة أضبط ، **محيطي** : أي إ
يوجد في العضوية في القلب والشرايين والرئتين والأعضاء .

ويجب ان نلحظ بعناية أن كلمة (محيطي) هنا لا تعني (سطحي) ول
عكس (مركزي) ، أي إنها تعني الجسم كله ما عدا الدماغ . اي إن جيس
ولانج يريدان القول بأن الهيجان ليس حالة نفسية او حالة دماغية ولكنه
اعضاء ووظائف الحياة الحيوانية .

٢ً — **فالحوادث الجسدية اذن ليست نتائج كما أنها ليست أسباباً انها عنا**
الهيجان نفسها وما الهيجان الا الاحساس بالاضطراب العضوي ، فالخو
مثلاً هو الشعور المضطرب بأن القلب يخفق وأن التنفس يزداد او ينقص (يتسا
أو يتباطأ) وإن الأعضاء ترتجف والحلق ينشف الخ ...

ولنلاحظ انه توجد هنا واحدة من صعوبات الموضوع الذي ندرس والتي كثير

جهلت . فليس الأمر امر (سبب) ولكنه مسألة (طبيعة) ، فجيمس لا يقول ان سبب الهيجان في العضوية القول الذي يكون له معنى مختلفاً كل الاختلاف خيفاً كل السخف ؛ ولكنه يؤكد فقط بأن الهيجان حالة عضوية ، إنه يقول ان الاحساسات العضوية هي مادة الهيجان نفسها . فكما اني أتلقى إحساسات حركية إذا انطوت اصابعي ، كذلك حين يضطرب قلبي ورئتاي وشرايني احس بهـــذا المجموع المركب ، وهذا المجموع من الاحساسات هو الهيجان . بصورة اضبط ، كأن هناك معادلة قد وضعت :

هيجان = مجموع احساسات محيطية

٣ً — وهكذا يصبح ترتيب الحوادث الحقيقي كما يلي : آ — **ارى الخطر** .

ب — **ارتجف** حـ — **احس هذا الارتجاف بشكل خوف** وحتى ، لكي نكون مضبوطين ، يجب أن لا نشير الى تتالي بين (ب) و (حـ) بل يجب أن نقول :

ب — ارتجف . بً — وبنفس الوقت اخاف .

٦ — ولعله من المفيد ان نشير إلى الفرق الموجود بين نظرية جيمس ولانج . صحيح ان الاثنين **يتفقان على الاساس وهو أن الهيجان محيطي** ، ولكنهما يختلفان قليلاً في التفاصيل **فنظرية وليم جيمس نظرية فزيولوجيا عامة** ، فهو يعتقد ان **كل العضوية تعمل اثناء الهيجان** : ليس فقط الوظائف التنفسية والدورانية ولكن حركات الأعضاء والسحنة . أما **نظرية لانج** فهي على عكس ذلك **نظرية فيزيولوجيا شرايينية** ، فهو يرى ان **المهم هو الحادث (المظهر) الشرايني** . وكقاعدة عامة يوجد سعادة حين تمتد الأوعية ويوجد حزن حين تنقبض . أما الحوادث والمظاهر الأخرى فثانوية تشتق عن هذه ، فبسبب تمدد الأوعية : يتسع التنفس ويحمر الوجه وتلمع العينان .

ب — دلائل بجانب النظرية المحيطية

هناك دلائل كثيرة اتى بها جيمس ولانج واتباعهما وهاك أهمها :

٧ — أولاً : **ما من هيجان دون تغيرات عضوية** . اما فيما يتعلق بالهيجانات الكبرى كالخوف والغضب فلا يحتاج الأمر إلى مناقشة وإطالة شرح ، وأما فيما يتعلق بالهيجانات الدقيقة كالهيجانات الأخلاقية والعلمية والجمالية ، فليس الأمر واضحاً وضوح سابقه ، ولكن لا نحسبنا قادرين على إنكار هذه التغيرات لنضرب مثلاً الهيجان الجمالي : إننا نرى ان علينا التمييز بين حالتين ، فاما أن لا يكون هناك هيجان — وهذا ما يحدث عند الناقد الذي اعتاد ضبط عاطفته والذي يفهم كمال العمل والصعوبات التي قامت في وجهه وتغلب عليها وتناسب الأجزاء ، ولكنه يبقى هادئاً — فليس إذن من الغريب أن لا تضطرب عضويته وإما أن يكون هناك هيجان حقيقي ، وحينئذٍ يكون من المحتمل كثيراً أن يخفق القلب كالمعتاد . وأهم من هذا الوظيفة التي يمكن للعين المجردة ان تلحظها ونقصد بها التنفس ، فهناك بدون شك تناسق تنفسي للاعجاب يكفي لجعل نظرية جيمس ولانج غير ممكنة المهاجمة في هذا الصدد . ومن الجلي ان هذا الدليل لا يبرهن على الفرضية ، لأن الحوادث العضوية — مع انها موجودة دائماً — يمكن ان تكون آثار الاعجاب . ولكنه (اي الدليل) مع ذلك هام ، وذلك لأن حالة هيجان صحيح واحدة بدون علامات جسدية تكفي للبرهنة على فساد هذه الفرضية .

٨ — أما الدليل التالي فأكثر أهمية : **يكفي ان نأخذ الوضع الجسمي الطبيعي لهيجان لنقوّي هذا الهيجان ومتى لنخلقه** . فمثلاً يكفي أن تجلس متخذاً وضع الكآبة والتقطيب مطرقاً برأسك واضعاً إياه بين يديك حتى تشعر بالحزن والعكس صحيح إذ يكفي ان تبتسم وترفع رأسك ، متخذاً وضعية الثقة والقوة لكي تتغلب على صعوبة كانت كفيلة بأن تخلق لك حزناً . وكلنا يعلم ان الضارب

في الليل الذي يهاجمه الخوف يصفر ، غريزياً ، لكي يستشعر الشجاعة . ولقد قال باسكال بأن الركوع قد يبعث الخشوع ؛ والمشكلة التي أثارها [ديدرو] وهي : « هل يهتاج الممثل العظيم بسبب الدور الذي يمثله أو يبقى هادئاً ؟ » كما يحسب ديدرو ، يمكن أن تحل بواسطة هذه النظرية بقولنا : إن الممثل قد يبدأ تمثيله هادئاً بارداً ، ولكنه إذا كان ممن يحسنون التمثيل — أي إذا كان يحسن اتخاذ الأوضاع التي يمثلها — فلا بد من أن يهتاج . وقل الأمر نفسه عن كثير من الخطباء .

٩ — وهذه الحقيقة هي التي كثيراً ما تستخدم **في الايحاء الذاتي** ، فالحصول على صفة ما يجب أن تتصرف وكأنك حائز عليها ، فعلى الخجول أن يتطلع إلى الأمام ويتكلم بصوت عال ليذهب خجله من تلقاء نفسه ، وإذا ذهب الشخص (نصف المريض) أو المريض قليلاً إلى عمله وكأنه في كامل صحته عوضاً عن أن يجلس قرب المدفأة لينصرف إلى العناية بنفسه قد يوفق إلى التخلص من هـــذا المرض . هذا ويجب الانتباه إلى **عدم المبالغة في هذه** الطريقة لدرجة يجعلها سخيفة ، ولكن يجب ان نذكر ان فيها كثيراً من الحق إذا تعهدها الذوق السليم .

١٠ — أما الدليل الثالث فمرجعه **تأثير الكحول والشاي والقهوة والطعام الجيد** الخ ... فبعض جرعات من الشمبانيا كفيلة بتغيير المزاج ، والعامل الذي يستيقظ تعباً محطماً يجرع كأساً من الشراب فيخرج من الخمارة قوياً نشيطاً . نعم إنه سيدفع ثمن ذلك غالياً وستتدنس أخلاقه ، ولكن ليس هذا موضع بحثنا إنما الهام في هذا الصدد أن وسائط مادية بحتة كفت لتغيير حالته العـاطفية . وقل الأمر نفسه عن وجبة طعام طيبة طهتها ربة بيت لبقة ، والأمر صحيح فيما يتعلق **بالحقن بالمصل الاصطناعي** (ماء مقطر مملح بنسبة ٩ بالألف) الذي يكفي لتقوية معنويات المريض المضعضع .

١١ — ودليل قوي آخر يمكن أن نعتمده **مما يجري في الحلم** : نعلم أننـا كثيراً ما نحلم أحلاماً مزعجة كل الإزعاج ، احلاماً مليئة بالحوادث المخيفة من

اغتيال ومطاردات شيطانية ومآس مريعة . وهناك كل الدلائل على أن أحلامنا إنما تخيلت لتفسر الألم الذي نشعر به أثناء نومنا . فهناك اولاً الألم والرعب ثم اختراع الوضعيات المؤلمة التي تبرر هيجاننا . مع أن هذا الألم والرعب لا يمكن أن يكونا إلا تعبيراً ، في شعور النائم ، عن الضيق الجسدي وعسر الهضم والتلبكات التنفسية وغيرها . وهي تشبه الألم والرعب الناشئين عن أسباب معنوية لدرجة يغلط معها الشعور فيتخيل لأول وهله تفسيراً معنوياً لها .

١٢ — واخيراً يوجد مرض عقلي يقدم لهذه النظرية دليلاً قوياً جداً : ونعني به **الجنون الدوري** الذي أحسن الدكتور جورج دوما دراسته في كتابه De la tristesse et la joie والمصاب بهذا المرض ينتقل طيلة عدة سنين وبصورة منتظمة من دور سعادة تامة إلى دور حزن عميق دون أي سبب معنوي فبينما نراه اليوم يائساً نجده بعد خمسة عشر يوماً كأحسن ما يكون السعيد ، ثم يعود بعد شهر إلى تعاسته العميقة ، وهكذا ... وهكذا يظهر أن هذه التغيرات الهيجانية التي لا علاقة لها بأي سبب نفسي ذات علاقة بالتغيرات العضوية وبصورة خاصة بتغيرات شريانية .

هي ذي أهم الدلائل التي يتقدم بها أصحاب النظرية المحيطية في الهيجان وملحوظ أنها على شيء كثير من القوة .

ح — الاعتراضات

وجه إلى هذه النظرية عدد كبير من الانتقادات هاك أهمها :

١٣ — الاحتجاج **بمسألة البكاء** : ملحوظ أن البكاء يخفف الحزن أفليس في هذا دليل على أن الظواهر الجسدية لا تخلق الهيجان بل تخففه ؟ وقل الشيء نفسه عن الأعمال التي تنتج عن الغضب والتي تفشأه .

إن هذا الاحتجاج ضعيف فلقد لاحظ جيمس ، بحق ، أن الحزن يخف بعد البكاء لا أثناءه . ولكن الأمر متعلق بحوادث محيطية ، والذي تجب معرفته هو ما يحدث للقلب والشرايين حين انفجار البكاء ؛ فان كانا طبيعيين ، فمن

الطبيعي حينئذٍ — وبالاتفاق مع نظرية جيمس — أن يزول الحزن . هذا ويجب ان نضيف إلى ذلك قولنا بأنه من السذاجة بمكان ان نحسب ان الدموع تعبير عن الحزن ؛ إن للدموع على الأصح علاقتها بالرحمة والحنان ، وهي إرادية إلى حدّ ما ، وتصبح أحياناً نوعاً من اللغة يطلب بواسطتها الرحمة أو العون ، والدليل على ذلك بكاء الطفل .

١٤ — الاحتجاج المسمى بـ (**الدب في القفص**) — لا يهرب الانسان لمرأى دبّ في قفص ، مع أن الواجب — بحسب قول جيمس ولانج — أن يهرب ، لأن الأمور تجري بالشكل التالي : رؤية الدب ، ردود فعل عضوية وشعور بهذه الردود بشكل خوف ، فاذا كان (الدب في القفص) لا يحدث ردود الفعل العضوية والهرب فما ذلك إلا لأن الهيجان وحده هو الذي يحدثها ولو سبب الدب هيجاناً لنتج الهرب وما دام الدب في القفص فهو لا يحدث أي هيجان ، وهذا هو السبب في عدم الهرب .

١٥ — ولقد ظهر هذا الاحتجاج قوياً لبعض علماء النفس ، ولسنا ندري السبب في ذلك ، مع أن خطأه جليٌّ واضح : إذا كان (الدب في القفص) لا يسبب الرجفان والهرب ، فذلك لسبب بسيط جداً ، فمركّب [**دب — هرب**] الصحيح كل الصحة ، والذي لا ينتظر إلا أن يتحقق يوجد إلى جانبه مركب آخر هو [**قفص — أمان**] الذي لا يقل صحة عن سابقه والذي يُبطل مفعوله ، ودليل ذلك أن الطفل الذي لا يعرف ما القفص يهرب من [الدب في القفص] .

١٦ — احتجاج **الارتجاف** . يمكن ان نرتجف بسبب البرد ، فالمظهر الجسدي قد حدث دون أي هيجان : فلسنا نخاف مع أننا نرتجف . ثم ، يخفق القلب إثر صعود سريع على درج ، ومع ذلك فلسنا مهتاجين .

أما الاحتجاج الأول فضعيف لأن الأمر هنا أيضاً أمر محيط ، إذ المهم ما يحدث في القلب أو الشرايين ، ومعلوم أني في الحين الذي أرتجف فيه من البرد لا يحدث شيء غير عادي في قلبي او شرايني .

وأما الاحتجاج الثاني فأقوى لأنه يتعمق أكثر من الأول ، والحادث هـــذه المرة حشوي تماماً . ومع ذلك فالاحتجاج مع جيمس لا عليه ، وذلك لأن ما تجب معرفته هو أنه « **فرق بالنسبة للشعور بين خفقان القلب الناشئ عن الهيجان وخفقان القلب الناشئ عن اللهاث** » ، وحتى الانسان نفسه لا يستطيع التمييز الدقيق ، فلو أن الانسان يعرف أنه قد صعد بسرعة ، ويتأكد من أن الزيارة التي سيقوم بها لا أهمية لها مطلقاً ، فلا مجال هنـا للتردد في القول بأن سبب الخفقان الصعود السريع . أما إذا كانت الزيارة على شيء من الأهمية ، فالانسان نفسه لا يستطيع القول بالضبط إن منشأ الخفقان هذا أو ذاك من السببين . والحالة الذهنية في الحالتين متشابهة لدرجة تدعو للخلط — ولا شيء يفوق هذا المثل في البرهنة على صحة ما تقول به النظرية الحيطية : النهيج القلبي الناشيء عن سباق كثير الحيوية يظهر للشعور بعاطفة تشبه الهيجان كثيراً .

١٧ — **احتجاج تجريبي** — للتحقق من نظرية جيمس — لانج بصورة حاسمة يجب إجراء تجربة لا يمكن تحقيقها طبعاً ، ولكن يمكن تخيلها : يجب **عزل الدماغ عن باقي الجسم** . لنتصور أنه من الممكن قطع كل اتصال عصبي بين الدماغ والأحشاء (قلب ، شرايين ، رئتين ، غدد) فنجدنا أمام برهان قاطع ؛ **فإما أن ينتاشى الهيجان وحينئذ تصح نظرية جيمس** ، وإما أن يبقى الهيجان طبيعياً ، وحينئذ يتقرر خطؤها . وأما أن يخف الهيجان — وحينئذ تظهر النظرية صحيحة جزئياً — أنه من المستحيل محاولة مثل هذه التجربة على الانسان ولكنها طبقت على الحيوان عن يد العالم الفيزيولوجي الانكليزي شيرنغتون Sherrington الذي أجراها على الكلاب الفتية . وتنحصر العملية في فصل النخاع الشوكي من خلف النخاع المستطيل (البصلة السيسائية) مباشرة ، فينتج عن ذلك عدم حساسية جسدية في كل الجسم تقريباً ماعدا الرأس وقسم من الكتف — فاذا كنا ممن يقولون بالنظرية الحيطية وجب أن ننتظر عدم وجود هيجانات على الاطلاق ، ولكن نتيجة التجربة دلت على عكس ذلك ، فقد بقي الكلب على طبيعته لتظهر عليه كل علامات الخوف

معروفة ، وكذلك علامات الغضب والوفاء ، فكان مثلاً يهتاج لرؤية القطة بشكل طبيعي تماماً .

١٨ — هذا الاحتجاج هام طبعاً ، ولكنه ليس قاطعاً لأسباب ، منها : وجوب التحفظ فيما يتعلق ببسيكولوجيا الحيوان ، لأننا لا نعلم تماماً ما يجري في شعوره ، ومنها أيضاً : أن من المؤكد ان **العزل الحاصل ليس مطلقاً** ولا سيما بقاء اتصال الدماغ بالجملة الودية (المستقلة) ، وسنرى أن هذه الاتصالات هي الأهم .

والخلاصة فان **الاحتجاجات** على هذه النظرية **ليست قاطعة** ، فبعضها منشؤه عدم فهم النظرية ، والبعض الآخر تنقصه القيمة العلمية . فهذه النظرية إذن تثبت في وجه الامتحان ، ونحن منذ الآن على مثل اليقين بأن فيها كثيراً من الصحة ، وسنرى قيمتها .

د — القيمة الحقيقية للنظرية المحيطية

يمكننا القول بأنها **صحيحة فيما تثبت مشكوك فيها كثيراً فيما تنكر**

١٩ — **صحيحة فيما تثبت** : بعد الفحص الدقيق تبين أنه **من غير المشكوك فيه كون الهيجان ، جزئياً على الأقل ، مكوناً من احساسات عضوية منتشرة** وكل هذه المظاهر القلبية والشرايينية والتنفسية والحركية هي بكل تأكيد عناصر مكونة للهيجان . ولم يكن هذا معروفاً بهذا الشكل المضبوط قبلما قال به جيمس ولانج ، ولذلك فنحن مدينون لهما به .

٢٠ — وتوجد اليوم **دلالات فيزيولوجية جديدة** تدعم هذه النظرية ونعني بها **وظائف العصب الودي والعصب المبهم** من جهة **ووظائف الغدد الداخلية الإفراز** من جهة أخرى .

أما فيما يتعلق بالعصب الودي والعصب المبهم ، فقد بدأ العلماء يرون علاقتهما بصورة أوضح مما كانوا يرونها قبل أربعين أو خمسين سنة ، **والجملة الودية هي**

الجملة المثيرة الفاعلة : فهي التي تحرك القلب وتجعله يخفق بصورة أسرع وأقو

أما **العصب المبهم** فهو **معدّل مخفف للضغط** فهو الذي يعدّل القلب بشكل يكون معه لهذين العصبين عمل متعاكس فاذا تفوق الودي تفوقت مظاه الثورة وإذا تفوق المبهم تجلت مظاهر خفة الضغط — وفي هذا ، كما نرى ، تأيي ظاهر للنظرية المحيطية في الهيجان . ولنأخذ مثلاً على ذلك حادثة الغضب ، فا الأمور تجري على الشكل التالي : يهتاج العصب الودي تحت تأثير الهجوم الذي وج إلينا ، وينتج عن ذلك خفقان القلب بسرعة أكثر ، ثم يزداد ضغط الدم ف الأوعية ، ثم يتسارع التنفس ويظهر التأثر في السحنة ، وتتسع الحدقتان : أ إننا نرى مشهد الغضب بكامله .

٢١ — ومن المحتمل كثيراً — وإن يكن ليس من المؤكد تماماً — ان

حالة الهيجانات الحزينة الخفقة بتهيج العصب المبهم فينتج عن ذلك المظاه المعاكسة : تباطؤ ، هبوط الضغط الخ ...

٢٢ — والاكتشافات الحالية عن الغدد ذات الافراز الداخلي مؤيد قو لهذه النظرية ، وقد رأينا أن أغلب غدد الجسم تفرز سوائل تنصب في الدم وإن هذه المواد تلعب دوراً فعالاً كل الفاعلية في حياة الانسان السوية . ومن بي هذه الغدد غدة يظهر أنها تتداخل بقوة في الحوادث الهيجانية ونعني بها **الكظرين** لنأخذ مثل الغضب ثانية : نحن نعلم أن العصب الودي إذا تهيج بسبب تسارع عاماً في القلب وجريان الدم ، ولقد لوحظ من جهة أخرى ان هذا العصب الودي نفسه يهيج الكظرين ، واذا أثير الكظران أفرزا في الدورة الدموية كمية متزايدة من عصارتهما أي من مادة [الأدرنالين] ، ومعروف ان **الادرنالين يثير الجملة الودية إثارة عظيمة** ، ومن هنا نرى أن هناك نظاماً يقوي نفسه بنفسه .

إذن فالعناصر العضوية الحشوية للهيجان صحيحة كل الصحة ، ولعلها اكثر علاقة بالهيجان مما ظهر لجيمس ولانج .

٢٧ — وهذه النظرية ، على العكس ، مشكوك فيها كثيراً فيما تنفي . الواقع أننا **لا نجد سبباً لانكران وجود اضطراب مركزي دماغي وعقلي** في وقت نفسه . ولقد اقترف جيمس ولانج الخطيئة الشائعة في مثل هذه الأحوال هي أن الانسان إذا اكتشف في موضوع يدرسه عنصراً جديداً ، اعلن ان هذا العنصر هو الوحيد الذي يتشكل منه الحادث .

٢٤ — وليس **الاضطراب الدماغي** ممكناً فقط ، ولكن **حدوثه كثير الاحتمال** وتجمع الدلائل على انه يمكن الاعتقاد بأن **الحادث المؤثر يبدأ بأحداث هيجان منتشر في المراكز الدماغية** ، وصحيح ان هذا التهيج ستتلوه رأساً ردود افعال حشوية ، ولكن هذا لا يعني أنه لا شيء في الحالة الهيجانية .

٢٥ — ولنلاحظ هنا بأن الدليل الذي يظهر لأول وهلة انه اقوى الدلائل ضد نظرية جيمس ، ونعني به **دليل الكحول** ، هو في الواقع دليل على وجود هيجان في الدماغ . لا شك بأن إنتاج سبب مادي بحت ، كشرب الخمر ، تغييراً هيجانياً مما يبهر النظر ، ولكن ليس هذا هو المهم ، بل المهم ان نعرف فيما إذا كان نعتبره هيجاناً هو تغير الدماغ او التغير المحيطي. ويظهر انه من المؤكد بأن **الكحول يؤثر مباشرة** على الحجيرة العصبية ، ذلك لأن الكحول سمٌّ دماغي ، وحينئذ يجري سهلٌ : **الكحول المتمحص يخلق في الحال اضطراباً دماغياً ، وهذا الاضطراب الدماغي هو الذي يترجم للشعور على أنه هيجان** ، ولا تكون الحوادث المحيطية إلا تابعاً للحادث الدماغي .

٢٦ — ولا يوجد اضطراب دماغي فقط ، ولكن **يوجد اضطراب نفسي** أيضاً ، وهـــذا الاضطراب يمكن ان يتلخص في هذه الكلمة : (تصرف) ، (إثارة) ، فالانسان الهائج أثير عقلياً فهو لا يدير تفكيره ، وحينئذ يلاحظ الانسان الهائج إلى حدٍّ لا يستطيع القراءة أو الاصغاء . وهذا الاضطراب طبعاً يجب ان

يشكل قسماً من المجموع الذي يسمى هيجاناً ، ولنلاحظ أن هذا الاضطراب لي
حادثاً عقلياً ، إنما الحادث العقلي الفكرة او الصورة ، أما الحركة غير المنتظ
الأفكار والصور وإضاعة التحكم في هذه الأفكار او الصور ، فليس
عقلياً : إنه فوضى يجب ان يشعر بها على انها اضطراب عقلي يشكل قسماً مما يس
هيجاناً .

كل هذه الأمور تظهر لنا بصورة أوضح وتأخذ محلها الصحيح إذا تر
النظرية المحيطية لنفحص بأنفسنا كيفية تولد الهيجان .

٥ — طبيعة الهيجان الحقيقية

٢٧ — لكي نفهم الهيجان فهماً جيداً يجب ان نذهب الى أبعد مما يذهب
أرباب النظرتين فنشهد ظهوره . ولعل خطيئة كل النظريات تنحصر في انها
الهيجان بعد ان يكون قد تولد ، ثم تحاله فتكتشف فيه عناصر مختلفة
مركزية او محيطية ، ولكنها تنسى ان تنظر في الشروط التي تولد فيها ، فل
نحن إذن ما أهملته هذه النظريات .

٢٨ — من السهل ان نرى ان **الهيجان يتولد عندما يحدث خلل مفاجئ**
التوازن أي حينما يظهر حادث لم نتكيف معه من قبل . وسواء أكانت الهيج
خفيفة أو قوية ، فهي تتولد على الشكل التالي : صدمة غير منتظرة ، مق
نستعد لها ، إفلاس ، موت ، اخبار نجاح الخ ... **كل هذه الأسباب للهيج**
ظروف مفاجئة لا نملك لها ردود فعل جاهزة .

٢٩ — فمن الواضح إذن أن **الهيجان طارئ للتكيف مع المحيط** ،
حين نكون متكيفين تماماً مع ظروف ثابتة بمقدار كاف نكون عملياً هاد
ومثال ذلك الشخص الذي يعيش في جماعة يعرفهم تماماً متمتعاً بصحة عادي

يشوب حياته مفاجئات . أما إذا حدثت واحدة من هذه المفاجئات اختلّ التوازن وحصل الهيجان .

٣٠ — ومن هنا ينتج أنه من واجبنا ، ونحن نمر سراعاً ، أن نعترف بحق نظرية يجهلها الكثيرون لديكارت في كتابه Traité de Passions حيث يعلن أن الإعجاب L'admiration أو ما نسميه نحن بالدهشة Surprise (المفاجأة) هو أولى كل الهيجانات، وما يسبب الهيجان هو دائماً ظرف لم تتهيأ له أي ظرف يفاجئنا .

٣١ — ماذا يحدث في هذا الحال ؟ طبيعي تماماً أن **نجهد للتكيف** : يحاول الانسان أن يواجه الطارئ ويمكن أن نقول أنه يعبئ قواه لكي يواجه التهديد أو المهاجمة أو المأساة ، وحينئذ يحدث **واحد من اثنين : إما أن نجد الوسيلة لعمل ما يجب وحينئذ نتجنب الهيجان** أو على الأقل نؤجله ، وهذا ما يحدث مثلاً لراكب الدراجة حين يواجه خطراً مميتاً ، فاذا استخدم الموجّه (المقود) على الوجه اللازم مرّ بدون هيجان إلا الهيجان الداخلي الذي يحدث له بعد بضع دقائق حين يفكر في الحادث — . **وإما أن لا نستطيع التصرف كما يجب وحينئذ يحدث عوضاً عن العمل النافع تحرك مضطرب هو الهيجان .**

٣٢ — وهنا نستطيع أن نعطي قانوناً نفسياً صحيحاً هو : **حينما لا يوفق الانسان الى القيام بالعمل المفيد ، يقوم بعدد من الأعمال غير المفيدة** وهذا ما نعنيه بكلمة (تحرك) أو اضطراب ، فمثلاً حين لا يوفق التلميذ إلى كتابة مسابقته يحل محل العمل المفيد الأحلام والتصورات غير المفيدة ؛ وشارب الكحول الذي لا يوفق إلى قول الجملة المفيدة يعوضها بلغو كثير ، والأمر دائماً على هذا المنوال .

والهيجان — احدى حوادث هذا الاضطراب — منشؤه استحالة التكيف مع الطارئ المفاجئ ، إنه تحرك منشؤه عدم التكيف ، أو جهد غير مثمر في سبيل التكيف .

ولو تتبعنا هذا الاضطراب لرأينا ظهور العناصر المختلفة التي أشارت إليها النظرية المحيطية والنظرية المركزية وتمركزها :

٣٣ — سيكون فيه بادئ بدء ، على ما يظهر ، **اضطراب دماغي** وبما أنه لا ينشأ في الجوهر الدماغي حركات مضبوطة دقيقة مباشرة فانه ينشأ فيه عدد كبير من الحركات المنتشرة غير المنتظمة .

٣٤ — ثم يحدث **الاضطراب الحشوي** فالحيوية المعبأة والمستخدمة بصورة سيئة تنتشر في السبل ذات المقاومة الأقل ، ويظهر أن **العصب الودي** هو القناة الجاهزة لتلقي هذه الدفقات ، وحينئذ يهتاج الودي ، فيهتاج القلب وغيره من الأحشاء فتظهر الحوادث المحيطية . ذلك هو محلها ومنبعها ، وهذا ما في نظرية جيمس ولانج من صحيح .

ومن الممكن أنه في أحوال أخرى — ولكلامنا هذا صفة الاحتمال فقط — يهيج العصب **المبهم** ، فتظهر حينئذ حوادث تخفيف الضغط .

٣٥ — وفي المحل الثالث يظهر **اضطراب حركي** : ارتجاف ، إشارات ، صراخ ، هرب الخ ... ومن الطبيعي تماماً إذا كانت الحيوية المنتشرة عظيمة أن لا يستنفدها الاضطراب الحشوي فتصل إلى الظاهر .

٣٦ — وأخيراً **اضطراب عقلي** هو شكل من أشكال هذا الاضطراب المجموعي : تيار من الأفكار والصور والكلام ، إضاعة للحرية والانتباه الخ ... — وما من سبب يدعونا لجعل هذا الاضطراب العقلي انعكاساً للاضطراب الحركي ؛ بل هو عنصر يضاف إلى العناصر الأخرى .

٣٧ — والخلاصة يظهر لنا **الهيجان** على أنه **اضطراب مركب ، فيه احساسات محيطية وعواطف مركزية أيضاً** . إنه فوضى مادية ومعنوية ، ولكن **لها مركزاً ومنبعاً : هو جهد المخلوق الكلي بتكيف** مع ظروف صعبة ، جهد غير قادر ، جزئياً أو كلياً .

أما ما غاب عن ذهن جيمس ولانج وأتباعهما فهو رؤية النفس في حركتها وجهدها ؛ إنهما لم يلحظا أن المهم هو الجهد العظيم الذي يقوم به المخلوق في مواجهته للحالة الطارئة ، وأن استدعاء الحيوية الشديد ، واستحالة استخدامها بصورة نافعة ، حوادث إيجابية يجب أن لا ننكرها لا لشيء إلا لأننا نفهمها فهماً سيئاً .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصل السابع

٢ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثاني ، الفصل الثاني

٣ — عبد المسيح ورفاقها : الباب الخامس عشر (ص ٢٧٤ فما بعد)

٤ — عطية الله ـ أحمد : بحث الانفعالات والعواطف

٥ — المصري ـ ايريس : الجزء الاول ، الفصل السابع عشر (قسم ب)

الفصل السابع عشر

بعض الهيجانات الخاصة : ١ — الغضب

تصميم البحث

آ — أزمة الغضب عند الطفل

١ — سببها : رغبة تعاكس

٢ — مظهرها : ثورة شديدة • انفجار

٣ — انتهاؤها : سريع ، بعد الافراغ

ب — ازمة الغضب عند الراشد

١ — أسبابها : عائق للرغبة ـ مهاجمة ـ وجود فقط

٢ — مظهرها : أعمال انفجارية — انحطاط مستوى الأخلاق ـ توتر متزايد ـ حالة اضطرابية في الشعور •

٣ — انتهاؤها : بالافراغ السريع ـ بالتحول إلى حقد أو بغضاء أو رغبة في الانتقام ـ بالتحكم الأخلاقي النهائي •

ﻫ — طبيعته

١ — ينمو على أساس من إمكانية الثورة

٢ — الفعالية المعبئة لتحقيق الرغبة ـ والتي أوقفها العائق تتصرف في الداخل ـ تهيج الجملة الودية وبواسطتها تهيج القلب والدورة الدموية والتنفس الخ ••

و — أنواعه

١ — الحنق

٢ — الكره (عدم العطف)

٣ — الكظم (الحزن المزيج بالغضب) : وصفه الخاص ـ تحليله

ﺯ — علاجاته

١ — الغضب المرضي : مسكنات ومقويات

٢ — الغضب العادي : (١) أخطاء يجب أن لا ترتكب (٢) عمليات مفيدة : التحويل ، وهو عمل إرادي قوي ، لمن يستطيعه • التلبؤ — تأجيل رد الفعل •

دراسة الغضب ترينا حالة خاصة بسيطة جداً من الهيجان .

آ — الأزمة عند الطفل

١ — يكاد يكون **سبب الغضب دوماً رغبة نقاومها** : هذا طفل يرغب في شيء فيقترب منه ويطلبه ويمد إليه ذراعيه ، فنرفض ونرفع الشيء من متناول يده فينفجر غضبه .

٢ — وهكذا يكون للغضب **مظهر انفجار** وتحدث حوادث تهيج عميق : **تهيج صوتي** (صراخ) ، **وتهيج حركي** (حركات وضرب الأرض بالرجل) ، **وتهيج عضوي** (لهاث واحمرار وجه) .

٣ — **وانتهاء الأزمة سريع** عادةً ، إنه هدوء بعد الافراغ يشبه الهدوء الذي يتلو العاصفة ، فتمر فكرة أخرى في نفس الطفل وينسى .

هذه هي الحالة الأبسط ، وهي الحالة النموذجية ، ويرى أنها تحول الرغبة السريع إلى غضب ؛ وكأننا بكل **الفعالية المعبئة لتخطي الرغبة تظهر على شكل جهد أو الغضب** .

ب — الأزمة عند الراشد

٤ — **أسبابها** : — كثيراً ما يكون سبب الغضب — كما في حالة الطفل — **إرادة او قوة تقف في وجه رغبتنا** ، فالوالدان مثلاً يغضبان من الولد الذي يعصى أوامرهما ، وسائق العربة يغضب من الدابة غير الطيعة ، وأنت تغضب من علبة (لا تريد ان تنفتح) او مسمار (لا يريد أن يندق) ، وكأني بك تصفهما بارادة تعاكسك . إذن هنا كما في الحالة السابقة سبب الغضب رغبة تعاكس ، ومعلوم أن العناد مثير ، وما العنيد إلا من لا يخضع لإرادة الناس .

٥ — وقد يكون سبب الغضب **مهاجمة مفاجئة** كضربة أو إهانة ينفجر

لها غضبنا . وقد يكفي في بعض الحالات **مجرد وجود** لإثارة غضبنا ، كوجود عدو ، حتى ولم يهاجمنا أو يقاومنا ، وجوده فقط يكفي لإثارة غضبنا كما في القطة والكلب . ففي هذا الحال إذن ليس في الأمر عمل ولكن وجود الشخص نفسه يسبب الغضب .

مظاهر الانفعال : يجب التمييز بين النوعين ، فهناك **غضب القوي** كما هنا **غضب الضعيف** (ضعيف ، مستكين أو عصبي) . ولنصف غضب القوي الذي هو الغضب الحقيقي .

٧ — تكون **الاعمال انفجارية** كما هي الحال عند الطفل : **صراخ ، حركات** قد تأخذ شكل الضرب ، والمضاربة أمر معتاد عند الناس الغضوبين .

٨ — ومن السهل ان نلحظ نوعاً من **انحطاط المستوى** : فكأن الانسان ينحط في سلم المدنية فيستعمل لغة خشنة غريبة عن لغته المعتادة ، وقد يلجأ الى لغة لم يتكلم بها منذ عهد طفولته .

٩ — **والوظائف الفيزيولوجية تضطرب** بصورة ظاهرة ، فيزداد خفقان القلب ويزداد بذلك ضغط الدم واندفاعه في الشرايين فيحمر الوجه وتلمع العين كما يتزايد التنفس ويتسع المنخران .

١٠ — **ويضطرب الشعور** اضطراباً لا يمكن تحليله وكل ما نستطيع قوله إنه تظهر فيه عناصر ثلاثة يختلف الاحساس بها : أولاً **حس بتوتر منزايد** فيشعر الانسان انه في حالة انفجارية ؛ ثم **تمركز شديد للانتباه** حول سبب الغضب قد يصل درجة عدم الاحساس بما سواه ؛ وأخيراً **السعادة بالانتقام** وليس غريباً أن نرى الغالب الذي لم يهدأ غضبه ينقض على المغلوب ، وهنا تنشأ الفظاعة .

١١ — ويختلف **غضب الضعيف** عن هذا ، فالضعاف الخجولون المستكينون

ن لا يملكون إلا قوة قليلة يصرفونها يستعملون هذه القوة في **اهتياجات سلبية** جأون إلى **العناد والحرد والكظم** (غضب مزيج بحزن) فيعذبون أنفسهم تقموا من الغير، **وروح المشاكسة** إحدى عوارض غضب الضعفاء الدائمة .

١٢ — **انتهاء الأزمة** :- ينتهي الغضب على أشكال مختلفة ، ففي بعض حيان يوجد نوع من **الافراغ السريع** فيسود الهدوء بعد الانفجار الشديد ، ذا ما لاحظناه عند الطفل . وفي احيان أخرى **يتحول** الغضب عوضاً عن أن غ ، فمثلاً إذا منع الغضب من الانفجار تحول إلى **حقد وبغضاء ورغبة في نتقام . وليس الحقد إلا غضب ينتظر** . وفي بعض الأحيان يوجد **انتهاء لا في حقيقي** بواسطة ضبط النفس ، فالارادة الممرنة على ملك نفسها المدربة ى النضال ضد الاندفاع وعلى كظم الغيظ توفق بالفعل إلى القضاء على الغضب تماماً هائياً . ومامن شك في أن هذه ميزة أخلاقية . ولكن قد يتجمع الغضب المكبوت ى هذه الصورة ، فيتحول إلى حقد كما في الحالة السابقة ، ومع ذلك فانه ربح ليم أن يؤجل الانسان انفجار غضبه فالانتظار الى الغد ، قد يسبب مرور اصفة بسلام لتغير ظروف الغد وتغير حالتنا العضوية بصورة خاصة .

ح — طبيعة الغضب

١٣ — يتضح من وصفنا السابق أن **الغضب حالة خاصة من حالات تحول رغبة** ولننظر الآن في هذه الفكرة بالتفصيل .

لعل أول ما تجب معرفته **نشوء الغضب على أساس من إمكانية الترجيح** الثورة . وما من شك في أن كل إنسان سوي تحدث عنده في بعض الأحيان وادث غضب ، ولكنه من المسلم به أيضاً ان بعض الطبائع تستسلم للغضب أكثر

من الأخرى ، وهذا متعلق بدون ريب بالحالة العضوية والمزاج ، وقد يكون متعلقاً بالحالات الخاصة المجهولة للبناء العصبي ، ويظهر انه متعلق بسيطرة العصب الودي أو المجهول . وبعد ان ذكرنا هذا الأساس نقول : إن الغضب ينمو على الشكل التالي :

١٤ — **نقطة البدء رغبة** ، رغبة شديدة تبدأ بالتحقق ، فالراغب يمد يده ليأخذ او ليطلب الشيء المرغوب فيه او باحضاره ؛ وبالاختصار فان الحيوية قد عبئت لارضاء الرغبة . وفي هذه اللحظة **يقوم المانع** الذي يكون عادة إرادة نحسب أنها حرة تقاومنا ، وفي اغلب الأحيان يكون إرادة بشرية وقد يكون قوة طبيعية نضيف إليها نحن إرادة سيئة (المسمار الذي لا يريد ان يندق) .

١٥ — وحينئذ **تنصرف الحيوية المعبئة** ، غير القادرة على خدمة الغرض المرغوب فيه ، **في الداخل** ؛ وهي تتفرغ بصورة خاصة **في الجملة الودية** التي هي — كما نعلم — الجملة المهيجة ، وحينئذ يهتاج القلب ودوران الدم والتنفس والإفرازات فنشهد مشهد الغضب كاملاً .

ويجر تهيج الودي مباشرة **تهيج الكظريين** اللذين يفرزان **الأدرنالين** ويرسلانه الى العضوية ، فيزيد بدوره تهيج الودي ، وهكذا يتعاظم الغضب فتنفجر براكينه .

١٦ — ينتج عن هذا ان **الحوادث الحشوية** على قسط وافر من الأهمية في الغضب ، ولكنها ليست إلا **آثاراً** ، أما **المركز** — لب الأمر كله — **فالرغبة** نفسها الموجودة دائماً والتي ليس الغضب إلا شكلاً ثانياً لها .

١٧ — أما في الحالات النادرة التي يتولد فيها الغضب دون رغبة سابقة ، كما **في حالة المهاجمة** الفجائية مثلاً ، فالعملية هي هي : إذ ان المهاجمة توقظ سراعاً **رغبة في الدفاع** وفي المهاجمة ، وهي هذه الرغبة التي تصبح باصطدامها بالمقاومة غضباً

وما الفرق بين الحالتين إذن إلا ان الرغبة هنا يثيرها الشخص نفسه الذي سيحل به الغضب .

وأخيراً فحين يكون مثار الغضب **مجرد وجود شخص** فالذي يجب الانتباه إليه ، هو ان هذا الوجود يثير فينا **رغبة جامحة في إبعاده** . وهي الرغبة أيضاً التي تتحول الى غضب .

وبالاختصار فالغضب على كل حال رغبة تصطدم وتثور لمقاومة تلقاها .

د – أنواع الغضب

يمكن تمييز انواع خاصة من الغضب :

١٨ – **الحنق** وهو غضب **ذو صفة أخلاقية** وليس **منشؤه** عمل يعاكسنا شخصياً ، ولكن **عمل ظالم بحد ذاته** ، ومن المعلوم أنه من الممكن للانسان – ولو كان هو ضحية الظلم – أن يشعر بالحنق المجرد الذي لا غضب أنانيّ فيه .

١٩ – **الكره** وهو **ميل الى الغضب إزاء شخص** معين وهو ايضاً نوع من الغضب الناجم ، فوجود شخص يثيرنا .

٢٠ – **الكظم** (مزيجٌ من الغضب والحزن) ، وهو يستحق لغرابته دراسة خاصة .

يظهر الكظم في سلوك إنسان ما بشكل مفرد : **يتصرف** هذا الانسان طيلة ساعات وأيام وحتى سنوات **ضد رغباته الحميمة** ، إنه يهاجم نفسه ، فاذا رغب كل الرغبة في الخروج ، قال : لا ! سأبقى ؛ وإذا عصفت فيه الرغبة للسير يميناً أهاب بنفسه أن سيري شمالاً ، وإذا تجمعت آماله في ضمّ شخص إليه دفع به بعيداً عنه .

٢١ – ويلاحظ دوماً عند الشخص المتصف بالكظم (الكظيم) روح

المشاكسة فهو يعمل عكس ما يطلب إليه ، وحتى حين نكون من رأيه ؛ وهذه علامة كثيرة النفع تفيدنا في الدلالة على أن شيئاً ما قد فسد في مزاج محادثنا .

٢٢ — وهذه الحالة الغريبة **تظهر عند الطفل باكراً** فلقد لوحظت **منذ الثالثة** وحتى منذ الثانية والنصف عند البنات ، فمثلاً تطلب الطفلة دخينة من والدها فيرفض إعطاءها إياها ثم يعود بعد دقائق خمسة إلى عرضها عليها فترفض .

٢٣ — **وسبب الكظم عند الطفل دوماً رغبة عوكست** ، وهو لذلك نوع من الغضب . والأمر نفسه **صحيح عند الراشد** ، ولكن سببه في كل تسع مرات من عشرة رغبة عزة نفس أو كبرياء ، والذي يخلقه عند أغلب الناس **جرح بسبب الكبرياء** : حقيقة جارحة قيلت لهم ، وحتى مجاملة غير مفهومة . وهذا ما يجعل الحسد ذا علاقة وثيقة بالكظم ، ففكرة أن الخصم يزه تجرح كبرياء الحسود .

بقي أن نتساءل عن **معنى هذا السلوك** الغريب ، وعن سبب هذه الحاجة للعمل والقول على عكس ما يرغب المصاب ؟ يظهر أن هناك **أهدافاً ثلاثة** .

٢٤ — إنه **واسطة من وسائط الانتقام** إننا بهذا الوضع نجرح (الآخر) أي الشخص الذي أصابنا لأن كل أعمالنا يجب أن تريه أنه ليس على شيء من الأهمية بالنسبة إلينا وأننا لا نقيم وزناً لرأيه وأن اهتمامه لا يثير فينا أي اهتمام ، فنحن لا نحفل بهداياه ولا ننتبه إلى مجاملاته — وهذا يرينا **أن في الكظم الرعاء (مواربة)** : يتظاهر الانسان بأنه مسرور في حين أنه يتألم ، بالبغض في حين أنه يحب ، وكل ذلك في سبيل تعذيب الآخر عن طريق تعذيب النفس . وهو لذلك انتقام ولكنه انتقام الضعيف ، انتقام منكبّ مؤلم .

٢٥ — وهو **أيضاً نوع من الدفاع** ، نوع من **تجريد الخصم من سلاحه**

« إنك رفضت إعطائي ما أرغب ، ولذلك فاني أعلن لك أن لا حاجة لي به ، ولو أنك عرضته علي لرفضته » ذلك هو لسان حال المصاب بالكظم (الكظيم) .

٢٦ — والكظم **يظهر بجلاء الثنائية الكائنة فينا** ، وذلك لأن الانسان الذي يتصرف عن كظم إنسانٌ مزدوج حتماً : واحد يريد وآخر لا يريد . وكثيراً ما يصعب القول بأن الأول أو الثاني هو أكثر الاثنين حقيقة ؛ ما من شكّ بأنه يمكننا القول بصورة عامة بأن هذا أقل حقيقة من ذاك ، لأنه عارض ولكن ليس هذا القول قطعياً ثابتاً ، لأنه توجد بعض أعمال كظم تدوم إلى ما لا نهاية .

٢٧ — والخلاصة يوجد في **الكظم نوع من الرواقية** (عدم المبالاة بالألم) الغريزية التي تعلن عدم المبالاة بالخيرات الخارجية ، ومن يدري لعل في الرواقية كظماً ؟

٥ — العلاجات

لكي ندرس علاج الغضب نبتدأ بالتفريق بين حالتين : الغضب المرضي والغضب العادي .

٢٨ — **أما الغضب المرضي فعلاجه عند الأطباء** : فالطفل الذي يغضب كثيراً وسريعاً وبشدة ، طفل يجب أن يعرض على طبيب ، وحينئذ إما أن يكون علاجه **دواء مسكناً** أو أن يكون **دواء مقوياً** رغم كل الظواهر : لأن هناك — كما رأينا — غضباً للضعفاء ، تهيجاً سببه التوتر ، وهؤلاء يهدؤون بأثارتهم .

أما فيما يتعلق بالغضب السوي فيجب البحث في السلوك الواجب تجاه الغضبانين أو تجاه أنفسنا حينما نحس بالغضب .

٢٩ — إذا كان الأمر متعلقاً بالغير ، أطفال أو راشدين ، فهناك **اخطاء يجب تجنبها** : منها أن **نغضب منهم** أو أكثر منهم ، أن **نحاضرهم** طويلاً

عما يجب وعما لا يليق وعن المعقول وغير المعقول ، أن **نهزأ بهم** ، وذلك لأن التهكم كفيل باخراج أكثر الناس هدوءً عن طوره . وهناك حماقة شائعة وهي **التداخل دونما مناسبة وإثارة الثائر** كلما أوشكت أن تخبو . وهنا يصدق المثل القائل بأن السكوت من ذهب .

٣٠ — هذا ما يجب تجنبه وهو الهام ، أما **ما يجب عمله فهو محاولة التحويل** ، وليس ذلك ممكناً في كل حين ، ولكنها عملية كثيراً ما تنجح ؛ ونعني بالتحويل أن نوقظ في الغاضب اهتماماً آخر بشكل طبيعي لا يثير ريبته ، ففي حالة الطفل تستطيع ان تضع أمامه بلباقة شيئاً آخر يثير اهتمامه ويصرفه عن الغضب ، وكثيراً ما توفق بأسرع مما تتصور .

أما في حالة الراشدين فيجب مقدار أكبر من اللباقة والكياسة ، ولكن التوفيق ممكن على كل حال ، إذ أنك تستطيع أن توقظ كبرياءه أو عزة نفسه وأنت موفق حتماً .

٣١ — **ويحتاج الانسان مع نفسه الى اللباقة وحتى الحيلة ، كما يحتاج في الوقت نفسه الى** القوة ، وللقوة [**قوة الارادة**] هي الدواء الناجع . والغضب في الواقع أحد الدوافع التي يجب أن تخضع لتمرين إرادي سرمد ، والانسان الجدير بهذا الاسم ، يجب أن يتوصل إلى تحريم الغضب على نفسه . **ولسنا نقصد أن لا يشعر بالغضب** يندفع إلى نفسه ، الأمر الذي نعتبره غير محمود ، ولكننا **نقصد أن لا يسمح لغضبه بالانفجار** ؛ وهذا يحتاج إلى جهد إرادي دائم ، وهكذا يكون كظم الغيظ إحدى وسائط تربية الارادة الفعالة .

هذا ولا بد من الإشارة إلى أننا إنما **نقصد الغضب غير المشروع** ، ولكن هناك نوعاً من الغضب المشروع الذي يكون من واجبنا حتماً أن لا نقول بكظمه .

٣٢ — وهناك وسائط مساعدة ذات بال : لأنه من عدم الحذر ان ندع انفسنا

للارادة وحدها — من المفيد كثيراً أن **نتنبأ وأن نحول دوراً دون ما قد يقع** . فكثيراً ما يكون سبب الغضب عدم التوقع إذ ندهش لتصرف إنسان ، ولو كنا نتوقعه لأمكن ضبط التهيج الذي يبدأ وقد نتجنبه (إلا في حالات خاصة وضعناها تحت اسم فرط الحساسية) — ونحن حين نتنبأ عن إمكانية الغضب تهرب من مناسبته فنتجنب لقيا من قد تغضبنا رؤيته كما نتجنب مقاربة الشخص الذي قد يثيرنا ، وهي حالات الهرب فيها شرف .

وختاماً تبقى نصيحة الحكماء الأقدمين سامية : التأجيل ، لا تقل ، القول « غداً اتصرف كما يناسب » ، وقد لا يأتي الغد حتى تستغرب ثورتك الماضية وتدعها جانباً .

الفصل الثامن عشر

٢ ـ الخوف

تصميم البحث

آ ـ مظاهر الأزمة

١ ـ السلوك : الهرب ـ وعند عدم الامكان : الانكماش ـ الارتجاف .

٢ ـ الحوادث الفيزيولوجية : تقبض في الأوعية الدموية ينتج عنه صفرة وارتعاش وانقباض واضطرابات في الإفراز .

٣ ـ حوادث الشعور : الأساس هو الاضطراب الهيجاني ـ وعلى هذا الأساس رغبة في الهرب تعطي إثارة الخوف الخاصة .

ب ـ كيف يتولد الخوف

١ = تهديد الموت .

٢ = المجهول ، السر .

٣ = الظلام ، الليل .

٤ = الألم الجسدي .

٥ = انتظار صدمة ما ـ حتى المفرجة .

م ـ طبيعة الخوف

١ = ميل للهرب ، ولكنه ميل يلاقي مانعاً ـ جهد فاشل للهرب .

٢ = وعن هذا تنتج أنواع الخوف المؤلمة بحسب إمكانية الهرب أو عدمها ـ حالة هامة : القلق

ء ـ الحالات المرضية

١ = الخوف المرضي وأنواعه .

٢ = القلق المرضي .

ه ـ العلاجات

١ = وسائط طبيه . ٢ = ضبط الخيال . ٣ = العادة . ٤ = الإيحاء الذاتي . ٥ = الثقافة العامة للارادة .

آ – مظاهر الأزمة

١ – يوجد في الحالة البسيطة جداً **سلوك ابتدائي للخوف هو الهرب**، وحينما يستطيع الانسان الهرب دون مانع تجري الأمور على شكلها الطبيعي تماماً : ظهور الخطر ، الهرب ، العودة للهدوء ، ولا يكاد الهيجان يجد وقتاً ينمو فيه .

أما **إذا كان الهرب مستحيلاً** فانه يظهر سلوك آخر يميل للحلول محله وهو **الانسكماش** فيختبئ الانسان اختباء الأرنب في القفص ويستر الطفل الخائف رأسه بثيابه .

وفي كل الحالات **يترجم الخوف بالارتجاف** : إرتجاف ظاهر تماماً أحياناً ، واضح كل الوضوح : ارتجاف الركبتين ، اضطراب اليدين ، اهتزاز الجسم ؛ وفي بعض الأحيان يكون الارتجاف أقلّ وضوحاً يتفسر فقط **باضاعة الضبط** (الدقة) في الأعمال ، فتستحيل الحركات الرشيقة .

٢ – أما **جسدياً** فنلحظ **نقبضاً في الأوعية الدموية** شديداً وهو العمل الرئيسي الذي تنتج عنه النتائج التالية : **فقر دم محيطي** ، وبالتالي : **اصفرار ، ارتجاف ، اضطراب ، انقطاع الافراز اللعابي** (فم ناشف) ، وأخيراً كثيراً ما تلحظ اضطرابات في الإفرازات الأخرى .

٣ – وأما **داخلياً في شعور الخائف فنوجد حالة كثيرة الابهام** كما في كل الهيجانات ، وجلّ ما نلحظ فيها أمران : فأولاً ما يسمى بالحالة الهيجانية العامة المكوّنة من الاضطراب والابهام الذهني والضيق الذي قد يصل حدّ الألم الشديد ؛ وثانياً : الحالة الخاصة بالخوف وهي **الرغبة في الهرب** ، وهي رغبة يُشعر بها بشكل مبهم وتظهر في الشعور على أنها رغبة في الابتعاد بأسرع ما يمكن في الحالات الخطرة ؛ وعلى أنها رغبة في الكون في محل آخر في الحالات الخفيفة .

ب — كيف تتولد

يسبب الخوف ، كما هو الحال في كل هيجان ، **ظهور مفاجيء لظرف لسنا منتبهين له** ، ولكن يبقى علينا أن نعلم ما في أصل هذا الهيجان الخاص من أمور خاصة .

وعلى هذا يظهر أنه من الواجب التمييز ، على الأقل بين خمس حالات :

٤ — السبب الأكثر بساطة وابتدائية هو **التهديد بالموت** ، إنه الحالة النموذجية ، فكل خطر مفاجيء ينتج الخوف . فهناك أيضاً انفجار في **غريزة حفظ البقاء** قوي لدرجة يظهر معها أنه الأساس الحقيقي لكل أنواع الخوف ، ولكن التحليل الذي سنقوم به سيرينا أنه ليس كذلك .

٥ — يسبب **المجهول** الخوف أيضاً ، حتى ولو لم تكن حياتنا في خطر . فكل ما هو سري مخيف . ولا يجهل أحد ان الدور الذي لعبه الرعب من الأشباح والطيوف وغيرها كبير جداً في الانسانية ، فكل **الحوادث الغريبة** أو الاستثنائية تهيج: فكسوف الشمس الكلي يخلق في الجمهور تكتلاً يدخل فيه الخوف كعنصر ، ويخاف الأطفال من كل شيء لا يعرفونه ، والقناع يخيفهم لأنه سري .

٦ — **والظلام والليل** سبب من أسباب الخوف ، والأمر طبيعي عند أغلب الأطفال لدرجة يخيل معها للانسان أنه ردّ فعل طبيعي . هذا وليس الذي يخيف هنا المجهول ولكن الليل ، على ما يظهر ، قدرة قوية على الاخافة .

٧ — **الالم الجسدي** أو على الأصح **توقع الالم الجسدي** يثير الخوف طبعاً . فانتظار العملية الجراحية يثير القلق المؤلم .

٨ — وأخيراً **فتوقع صدمة ما** سواء أكانت جسدية أو معنوية حتى ولو لم تكن مؤلمة يسبب حالة هيجانية من نوع الخوف . فالأطفال يخيفون بعضهم بعضاً

بالمفاجئة ، وفي المسرح تظهر حركة واضحة من الخوف عند الجمهور حين إطلاق مسدس رغم تأكدهم من سلامتهم ، والخوف من العاصفة الكثير الوقوع انتظار للصوت الهائل المسبب عن صوت الرعد القاصف : وقد يكون الخوف من الموت هنا مفقوداً تماماً ؛ وحتى لو كانت الصدمة محببة فالانتظار مقلق إذ أن السعادة تخيف .

ح — طبيعة الخوف

٩ — ينتج مما تقدم أن **الخوف في الدرجة الاولى ميل للهرب** ، فاذا لم يصادف مانعاً أصبح هرباً ، فهو إذن هرب يحاول أن يتحقق ، وليس هناك هيجان خوف بالمعنى الصحيح إلا إذا امتنع الهرب ، إما بمانع خارجي أو بواسطة الإرادة ، وحينما يتمكن الخائف من الهرب بسرعة لا يجد الوقت الكافي ليهيج ولذلك يمكننا القول بأن الخوف ميل للهرب يصادف عوائق كبيرة أو صغيرة ، إنه جهد عاجز للهرب .

وهذا هو السبب في أن الهيجان يصبح أمراً يخشى وقوعه بقدر ما يستحيل الهرب ، والدليل على ذلك القلق الذي يستحق أن نتمهل عنده قليلاً .

١٠ — **طبيعة القلق :— هو الانتظار المؤلم لما لا يمكن تجنبه** ، على أن نفهم بـ (ما لا يمكن تجنبه) لا شراً أكيداً ولكن شراً **لا يتعلق تجنبه بنا** ، شراً يستحيل الهرب منه . حينما لا يكون هناك شيء يستطيع الانسان عمله تحول الخوف إلى قلق ، والمثال الواضح على ذلك حالة الأم التي تنتظر العملية الجراحية التي يجريها الأطباء لابنها أو تقريرهم عن صحته أو الدقائق الخمسة التي تمر أثناء قياس درجة الحرارة ، وهو ما يسمي (بقلق ميزان الحرارة) ، ففي كل هذه الحالات لا يستطيع الانسان أكثر من الانتظار : **والهرب نفسه لا معنى له** . ومثال آخر هو انتظار الطالب الذي أدّى امتحانه ويعرف أن الهيئة الفاحصة قد انهت التصحيح وهي على وشك إعلان النتائج ، فهذا الانتظار قلق ، لأن الطالب جاهد أثناء

الفحص ، أما الآن فليس من ردّ فعل مفيد يستطيع القيام به . نعم هناك بعض طلاب يهربون ، ولكنهم يعلمون أن لا فائدة من هذا .

هذا وان القلق اكثر انواع الخوف ألماً : أنه عذاب مقيم وذلك لفقدان ردّ فعل يستطيع القلق أن يقوم به أو لاستحالة الهرب ولذلك فهو يتألم من هرب داخلي .

١١ — وهكذا يكون لدينا أنواع من الخوف تتراوح بين الشديدة الايلام والقليلة بحسب إمكانية الهرب ، ففي النهاية الواحدة يوجد الهرب السريع ، وحينئذٍ يكونُ الخوف على شكله الهيجاني الأقل ؛ وفي النهاية الأخرى يكون القلق وهو بالشكل الهيجاني الأعظم ؛ وبينهما درجات عدة .

إذن فالخوف رغبة في الهرب يحول دونها مانع .

د — الحالات المرضية : الخوف المرضي ، القلق المثنّى

١٢ — يمتاز **الخوف المرضي** عن الخوف العادي بصفات ثلاثة رئيسية : إنه **دائم ، ولا نسبة بينه وبين موضوعه ولا بقادم** ، وهو يتميز عن الحالات الجنونية **بأن الخائف نفسه يعرف أن خوفه لا معنى له** ، وهو لذلك يحاول التخلص منه ، وهو ينظر بقلق إلى ظهوره وعودته ، ويميز الأطباء بين أنواع خمسة من هذا الخوف .

(١) **خوف الأشياء** وأهم نوع منه الخوف من الملامسة ، فالمريض يخشى كثيراً أن يلمس سكيناً أو قماشاً أو سائلاً ما الخ ...

(٢) **خوف الأمكنة** : الخوف من الأمكنة الكبيرة الفارغة ، الخوف من الأمكنة المغلقة ، الخوف من سكة الحديد الخ ...

(٣) **خوف العناصر** : الخوف من الصاعقة ، الخوف من التيارات الهوائية الخ ..

(٤) **خوف الأمراض** : الخوف من الألم ، الخوف من ألم بعينه ، الخوف من الجرح .

(٥) **خوف الأشياء** : الخوف من الحيوانات (الزحليات ، الفأر) ، الخوف من النباتات .

١٣ — إلى جانب هذا النوع من الخوف وكأساس لكل أنواع الخوف يوجد **القلق المرضي** وهو يختلف عن القلق الذي درسنا آنفاً بأنه **حالة مرضية للقلق** أو **توقع قلق لشيء مجهول** ، ويتعلق هذا القلق بأي أمر كان ، ولا لشيء إلا ليبرر ذاته ، فنرى المريض نفسه يمر بأزمة قلق بالنسبة لوقعة طعام ثم بالنسبة لمكان يمر فيه الخ . ولقد اخترع الدافع اختراعاً لأن حالة القلق موجودة سلفاً .

١٤ — ولهذه الحالات من القلق المشتت **اساس عضوي أكيد** : إذ نلاحظ دائماً عند المرضى **اضطرابات في الضغط الدموي والتنفس** وحتى في الاحساسات القلبية المتمركزة ، ويظهر أن في هذا دليلاً على انه **قد يكون للحالة الهيجانية أساسان** : أحياناً **اساس عضوي مباشر** دون غرض خارجي (حالة القلق المرضي) ، وأحياناً **اساس حسي** (رؤية أو صورة أمر مهدد يسبب الحالة الحشوية نفسها) . ولنلاحظ أننا نتكلم هنا عن الأساس والأصل لا عن طبيعة الحادث الذي عالجناه سابقاً والذي يختلف كل الاختلاف : لأنه حتى في القلق المرضي نفسه ، ومع أن نقطة البدء قد تكون حشوية ، فيمكن أن يكون هناك اضطراب دماغي خاص يُحسّ به كهيجان .

٥ — العلاجات

الوسائط الأهم لمنع الطفل من الخوف تتلخص فيما يلي :

١٥ — **الوسائط الطبية** أولاً : ففي كثير من الأحوال يكون الأمر متعلقاً بعلم حفظ الصحة والعلاج الطبي ؛ ولذلك يجب الاهتمام بالنزعة إلى الخوف حالما يلاحظ ازديادها ، فقد يكفي استرداد العافية والتوازن الجسدي ، وأحياناً استعمال المقويات لاسترداد الهدوء .

١٦ — **ضبط الخيال** وذلك لأن الخوف يتحكم بواسطة الخيال ، والخيال هو الذي يخضعنا لتأثير الأشباح والطيوف ، ولذلك يجب تعويد الطفل ضبط خياله وتجنب الصور المخيفة ؛ ولكن هذا لا يعني إضعاف خياله . هذا وإن من واجبنا تجنب إثارة خيال الأطفال وتخويفهم بالجن والعفاريت والقصص المزعجة والصور المخيفة .

١٧ — **العادة** : ويجب استعمالها بلباقة وكياسة ، إذ قد تؤدي إلى نتائج غير مرغوب فيها ، ويمكن تعويد الطفل على عدم الخوف من الظلام تدريجياً بادخاله إلى غرف مظلمة .

١٨ — **الايحاء الذاتي** : الذي يجب الاستفادة من أثره دونما تردد ، وهو ينحصر في أن يعيد الخائف لنفسه القول بأنه لا يخاف وأنه شجاع ، أما عند الأطفال ، فعلينا نحن أن نقودهم إلى هذا القول لأنفسهم ولغيرهم ، ونستطيع مساعدتهم بان نعلن نحن بأنهم شجعان لا يهابون ، مثيرين كبرياءهم ممتدحين شجاعتهم .

١٩ — وأخيراً تبقى **التربية العامة للارادة** وضبط النفس العلاج الأسمى ، مضاف إليها تعويد الطفل **الحاكمة الصحيحة** في هذا الصدد ، والاستفادة من **العلم** للقضاء على المخاوف الشخصية التي لا مبرر لها .

الفصل التاسع عشر

٣ – الخجل

تصميم البحث

تمييز مبدئي بين الخجل الهيجاني والخجل الطبيعي

أ – صفات أزمة الخجل

١ = حوادث شلل .

٢ = حوادث داخلية : ضيق ، انطراب عقلي ، رغبة في الهرب أو الاختفاء .

ب – اسباب الأزمة

١ = وجود أشخاص .

٢ = انتباه هؤلاء الأشخاص .

٣ – جعل طباع هؤلاء الأشخاص كلياً أو جزئياً .

٤ = عند الخجول كبرياء وعدم ثقة بالنفس .

ج – طبيعة الخجل

١ = حالة من عدم التكيف مع المحيط – كرد هيجان .

٢ = عدم تكيف مع المحيط الاجتماعي – وهذه صفة خاصة بهذا الهيجان .

٣ = تأكيد ما سبق بواسطة دراسة الخجل عند الأطفال – ٣ أشكال (بولدوين) :
خجل غريزي حوالي السنة الأولى – التخلص من كل خجل حوالي السنة الثانية –
عودة الخجل حوالي السنة الثالثة .

د – الخجل كصفة من صفات الطبع

١ = اتصاله مع الصفات الأخرى .

٢ = نتائجه : محاولة العزلة – الرياء .

٣ = علاجاته : (١) وقاية : عدم خلق الكبرياء عند الطفل .
(٢) علاج : الايحاء الذاتي .

الخجل

١ — كلمة (خجل) — ككثير من كلمات القاموس البسيكولوجي — ذات معنيين يجب تمييزهما : فهي تدل حيناً على الهيجان ، او أزمة الخجل ، وحيناً آخر تدل على صفة من صفات الطبع دائمة (اي طبع الخجول) ، فتؤدي إلى حصول أزمة الخجل في كثير من الأحيان ، وعلى شيء من الشدة . ولذلك كان من الطبيعي ان نبدأ فندرس الأزمة ثم نعود فندرس صفة الطبع .

آ — صفات الأزمة

٢ — لو لاحظنا طفلاً أو صديقاً او انفسنا في حالة الخجل للاحظنا ما يلي :

نلاحظ أولا نوعاً **من الشلل** ، إذ يصعب الكلام والسير وحتى الحركة . ونرى ان ذلك الشاب الذي كان للحظة طبيعياً مع أصدقائه الخلص ، يتصرف بسهولة وانطلاق ، قد أصبح ولا يعرف كيف يتماسك ويحبس صوته في حلقه ؛ إذن فالحادث الذي يلحظ أولاً هو حادث عجز أو نوع من الحيوية المنصرفة إلى الداخل .

٣ — ونلحظ أيضاً علامة ظاهرة هي **الاحمرار** ، وليس الاحمرار صفة مقصورة على الخجل إذ نلاحظها في التواضع والحياء والاضطراب (مما يدل على أن بين هذه الهيجانات الأربعة نوعاً من العلاقة) . ولكنه مؤكد أن الاحمرار مظهر ملازم للخجل .

٤ — أما داخلياً فتحدث حالة مركبة مبهمة نميز فيها ثلاث عناصر رئيسية :

ضيقاً وحتى في كثير من الأحيان **الماً** . والواقع إن حالة الخجل مؤلمة ، وهي عند بعض الناس شديدة الإيلام لدرجة يحاول معها الانسان كل شيء للحيلولة دونها ،

وهذا مما ينتج تغيرات في الطبع خطيرة سنشير إليها فيما بعد . **اضطراباً عقلياً** : فالخجول — أثناء أزمة الخجل — لا يرى جيداً ، وأفكاره مضطربة مشوشة ، ولا يعود قادراً على الملاحظة ، وكأن ضباباً يشتمل نفسه .

وأخيراً رغبة بسيطة وقوية جداً هي **الرغبة في الابتعاد** . والخجول إبان

اضطراب نفسه لا يفكر إلا في شيء واحد : وهو كيفية التخلص من هذا المأزق الحرج والاختباء ، وهما ردا الفعل اللذان يقوم بهما الحيوان الخائف : الهرب أو الانطمار .

ب — اسباب الازمة

٥ — نلاحظ بادئ الأمر أن **الخجل ناتج عن الحياة الاجتماعية** . فالأزمة لا تحدث إلا بوجود شخص أو — على الأكثر — اشخاص . وإذا كان من الممكن للأشياء أن تثير الهيجانات الأخرى (كالخوف من الأشياء والغضب عليها) فانه ليس من الممكن ان نخجل منها .

٦ — ولا يكفي أن يوجد اشخاص ، بل يجب ان ينتبهوا لنا ، إذن فما يثير الخجل هو **الانتباه الموجه الينا** ؛ إذ أن أكثر الناس خجلاً يدخل دون وجل الى اجتماع إذا تأكد انه ما من احد ينظر إليه ، فهو يدخل مثلاً دون خوف الى مسرح مليء بالناس ، ولكن من المؤكد أنه يكفي ان ينظر احدهم إليه ملياً حتى تحدث ازمة الخجل .

٧ — والخجل **مرتبط بوجود اشخاص لا نعرفهم ابداً او نعرفهم معرفة بسيطة** . ولعل اكبر مشكلة عند الخجول هي الانضمام إلى حلقة جديدة او الدخول الى ندوة سيصادف فيها اشخاصاً لم يعتد رؤيتهم من قبل . وهو — في أغلب الأحيان — اكثر الناس اطمئناناً بين من يعرف . وهذا ما يعلل كون الأشخاص غير الخجولين انفسهم يشعرون بشيء من الخجل امام من يختلف عنهم في الطبقة الاجتماعية ، حتى ولو كان دونهم . وهذا ايضاً ما يعلل كون **الفارق الجنسي** سبباً من أسباب الخجل ، إذ انه طبيعي تماماً ان يخجل الشاب امام فتاة والعكس اكثر طبيعية .

٨ — وأخيراً فالخجل **تقويه** صفتان من صفات الطبع هما **الكبرياء وعدم**

الثقة بالنفس ونقصد بالكبرياء هنا عزة النفس (حب النفس) مبالغ فيها . فعند الخجول يوجد غالباً رغبة عظيمة في النجاح ، ولو أن الخجول لا يرغب رغبة شديدة في إحداث أثر جيد لكان اكثر هدوءً . ونرى في اغلب الأحيان أن ما يسبب اضطراب الخجول هو رغبـــة في ان يُعجب به وان يلمع . وعدم الثقة بالنفس ذات دخل في الموضوع ، ولو لم يكن الانسان يشك في قيمته وجاذبيته لما خجل ، ولكنه لا يثق بنفسه ، وقد يذكر فشلاً صادفه . واجتماع هاتين الصفتين يخلق الخجل . فالذي يخلق الخجل إذن هو الكبرياء دون معرفة ، الكبرياء المزيجة بالقلق فيما يخص قيمة الشخص الحقيقية .

٩ — **هذا ويجب ان لا نعمم هذه الملاحظات تعميما مطلقا** ، يجب ان لا نستنتج الاستنتاج التالي : « إنه خجول فهو إذن متكبر » . هذا صحيح في اغلب الأحيان ، ولكن ليس دائماً ، إذ ان هناك بكل تأكيد أناساً خجولين دون كبرياء ، خجولين لضعفهم فقط . إنهم يذكرون شللهم وعدم نجاحهم دون ان يكونوا على كبير رغبة في اللمعان ، إن هو إلا خوف الفشل لا اكثر ولا اقل .

١٠ — وإذا ذكرنا هذه الحالات الصحيحة ولكن النادرة **يكون الخجول انساناً ذا رغبة في الامتياز ويحسب حساب آراء الناس كثيرا** ، واعماق نفسه تفسرها صرختـان متضادتان : « ليتني امرٌ غير ملحوظ » و « ليتني افرض نفسي على كل الأنظار » . وهاتان الصرختان تخلقان هيجان الخجل .

ح — طبيعة الخجل

١١ — ما مرّ بنا ان **الخجل حالة بسيطة من حالات عدم التكيف مع المحيط** . ونحن نعلم ان كل هيجان خرق للتكيف ، وهذا برهان جديد .

ولكن عدم التكيف هذا هو من نوع خاص فالخجول لم يستطع التكيف مع **المحيط الاجتماعي** ، والذي يشله هو المجتمع البشري ، ووجود البشر هو الذي لا يستطيع الخجول مواجهته . وهكذا يظهر الخجل كأزمة تكيف اجتماعي .

١٢ — فهناك إذن صعوبة في تكيف الفرد مع محيطه الاجتماعي ، وسبب ذلك أن الناس يتصفون بصفة خاصة بهم تسبب القلق لغيرهم ، وهذه الصفة هي **نواياهم الخفية** ، فأنت لا تعرف ماذا يفكرون بخصوصك ، وأنت لا تعرف إن كانوا — في أعماقهم — يضمرون لك الخير أو الشر ، وينتج عن ذلك أن النفس الضعيفة نوعاً ما أو القاسية نوعاً ما لا تعرف كيف تتصرف معهم ، كيف تكلمهم ؟ وما هي الأوضاع الواجب اتخاذها معهم ؟ وهذا هو السبب في أن هذه النفس ذاتها تتخلص من كل خجل مع الأشخاص الذين تعرف ، لأن سرّ النوايا قد اختفى . وهذا هو السبب ايضاً في ان الأشخاص غير المنتبهين إليها لا يثيرونها ابداً بل قد لا يختلفون عن الأشياء بالنسبة إليها .

وعلى هذا فالخجل أثر قوي للتكيف الاجتماعي ، ومن ثم نرى الحوادث العادية في الهيجان : **يتحول هذا الجهد العاجز الى اضطراب دماغي ، مشوي ، مركي ذهني فيظهر مشهد الخجل** .

١٣ — وهذه الملحوظات تؤيدها بسيكولوجيا الطفل . ولقد درس عالم النفس الأميركي بولدوين Baldwin نموّ الخجل عند الطفل باعتناء ، فاكتشف فيه ثلاثة وجوه :

(١) **ظهور الخجل حوالي السنة الأولى** فالطفل يضطرب اضطراباً ظاهراً عند دخول الغريب ، فيقف ويقبض أصابعه ، ويفرك ثيابه ، ويخبئ وجهه ، ويحتمي بأمه .

(٢) **وفي قسم من السنة الثانية يختفي الخجل تماماً** فالطفل الذي كان خجولاً في الشهر الماضي ليس كذلك الآن ، فالغريب لا يثيره ، وهو لذلك يتحدث إليه باطمئنان ، ويجلس على ركبتيه ويريه ألعابه الخ ...

(٣) وفي حوالي **السنة الثالثة يظهر الخجل مرة ثانية ولكن يوجد فيه هذه المرة عنصراً** لم يكن موجوداً في سابقتها **وهو الاهتمام برأي الغير** ، الأمر

الذي لم يكن موجوداً عند الرضيع الذي لم يكن يعرف عن ذلك شيئاً ، والذي كان خجله نوعاً من الخوف من المجهول .

أما في حوالي السنة الثالثة أو الرابعة فيظهر عند الطفل اهتمام جديد يعبر عنه بجمل كهذه : « سيهزأ الناس بي » ، وحينئذ يظهر الخجل .

والخلاصة فان الخجل ، بادئ بدء ، ليس إلا الخوف الغريزي من وجود شخص مجهول أو غير معروف تماماً . وبعد فترة غياب يعود الخجل فيظهر مع قلق جديد وهو القلق من رأي الغير .

٥ — الخجل كصفة من صفات الطبع

ونقصد به ظهور الأزمة كثيراً وبشدة .

١٤ — لهذه الصفة من صفات الطبع **صلة بصفات اخرى : عزة النفس هثائرة بعض الثورة : وعدم الثقة بالنفس . وميل الى الاعتزال** وإلى النظر في النفس وإلى الحياة الداخلية ، وفي كثير من الأحيان **نقص في اللباقة :** فالخجول هو الذي لا يعرف كيف يتكيف مع المحيط الجديد بسرعة .

١٥ — وآثار هذا الخجل هامة وبعض الأحيان خطيرة . وعلى اعتبار أن الأزمات شديدة الايلام ، وفي بعض الأحيان قاسية ، فانه ينتج عنها **نتيجتان :** أولاهما **حب العزلة** ، فالخجول يمعن في الهرب من المجتمعات الجديدة ، ويلح في هذا الامعان ، وينتهي بالهرب من كل مجتمع ، **وهذه العزلة تزيد في خجله** فيقع فيما يسمى بالدائرة المفرغة ، وثانيتهما وهي أشدهما خطراً : **هي الميل الى الرياء** . فالخجول يحاول إخفاء هيجانه بأي ثمن كان لأنه يستحي منه ، ولأجل إخفائه يتعود إسبال قناع كثيف على وجهه ، وهكذا يضيع ما هو طبيعي وعفوي حتى أننا قد نرى خجولين يصبحون وقحين طليقي الوجوه ، وما ذلك إلا لإخفاء خجلهم وقد نغلط في طبعهم في كثير من الأحيان فنحسبهم قليلي أدب ، في حين أنهم خجولون .

١٦ — أهم علاجات الخجل هي **العلاجات الواقية** ، وفي هذه المرة — كما في كل مرة — يكون الأهم عدم ارتكاب بعض أخطاء تربوية . ويجب أن نذكر دوماً أن التربية السلبية هي الأنفع ، وهي التربية التي تشير إلى أخطاء يجب أن لا ترتكب . وهنا **اول خطأ يجب تجنبه هو اثارة كبرياء الطفل بواسطة المبالغة في المديح او النقد اللاذع وخاصة التهكم** . فما من شيء يثير عزة النفس ، وبالتالي الخجل عند الطفل ، بقدر الاستهزاء به ، أو جعله أضحوكة إذا أخطأ أو أساء ، وفي الصفوف يجب أن لا يلجأ المعلمون إلى التهكم إلا بمهارة وحذر ، فكثيراً ما يؤدي خوف التلميذ من سخرية معلمه الى خجله الشديد الذي يشل أعماله ، سيما وإن سخرية المعلم قد تغري به رفاقه ، فيسخرون منه . **و الخطأ الثاني** الذي يجب عدم اقترافه **هو تعويد الطفل تعليق اهمية أكبر من اللازم على آراء الناس فيه** ، ولو أننا ربيناه على البساطة التامة ، يحاول بذل جهده دون تساؤل عن إعجاب الناس او تقدم ، لكان من الممكن تجنيبه خطر الخجل .

وهذا العلاج الواقي هو الأهم ، لأن الطفل ليس على شيء من الكبرياء طبيعياً ، إنه ما هو فقط ، دون اهتمام بما يقال عنه ؛ ولكننا نحن الذين نقوده إلى هذه الكبرياء .

١٧ — أما شفاء الخجل — بعد أن نما — فصعب إلى حدٍّ كبير . ومع ذلك فهناك علاج توحيه إلينا النظرية المحيطية في الهيجان ، فنحن إذا ذكرنا أن الهيجان هو إلى حدّ ما ، إن لم يكن تماماً ، انعكاس للحوادث العضوية والأوضاع الجسدية ، أمكننا ان نأخذ منها تطبيقاً عملياً ينحصر في ان يتصرف الخجول تصرف غير الخجول ، فيجب مهما كان الثمن ان ينظر الى الناس في وجوهم لا أن يطرق ، وأن يسير إليهم منتصب القامة ورأساً ، وان يتكلم معهم بصوتٍ عالٍ ، وبهذا يستطيع التغلب على الخجل الى حدّ ما . وهذا السلوك ممكن ، إلا في الحالات المرضية ، بواسطة قليل من **الايحاء الذاتي** .

الفصل العشرون

الهوى

تصميم البحث

آ — كيف يتولد (أي كيف تصبح الرغبة في أوج قدرتها)

١ — السبب الأول : الوراثة .

٢ — السبب الثاني : عمق الهيجان الابتدائي .

٣ — السبب الثالث : العادة .

٤ — السبب الرابع : الجهد .

ب — المظاهر

١ — اندفاع قوي قبل كل شيء .

٢ — فكرة ثابتة .

٣ — ثورة الهيجانات .

ج — طبيعة الهوى

١ — يرى الهاوي الشيء المحبوب أو المكروه بصورة تختلف عن الآخرين - أحياناً يراه أحسن منهم .

٢ — والواقع أن الشيء الحقيقي صورة أو شبح يقف بيننا وبين الحقيقة .

٣ — أساس الهوى عمل خلق صورة .

٤ — هدفه تثبيت الدقيقة الابتدائية وحتى تخليدها .

د — قيمته . علاجه

١ — قدرة وغزارة عظيمتان .

٢ — خطر كبير .

٣ — ولذلك فلا يمكن تشذيب كل الأهواء بل يجب تنمية النبيلة ومحاربة الأخرى .

٤ = قواعد عملية : منذ البدء استعمل المنهج القوي أي قرار الارادة الآمر ، إن كنت تستطيع ، وإلا فالجأ إلى هوى آخر .

٥ = عمل المربي : مراقبة الأهواء ، والقضاء على السيء منها .

الهوى

١ — نقصد بالهوى **الرغبة الثائرة المستمرة** كالطمع والبخل والحب الأمي ، والحب ، والبغض ، والهوس في العلوم والفنون والوطن .

آ — كيف يتولد

٢ — ما يجب معرفته هو **كيفية توسع (تعاظم) رغبة ما وثورتها وصيرورتها متحكمة** قادرة ، عوضاً عن ان تبقى طبيعة عادية . نعم يمكن ان تمرّ حياة بكاملها دونما هوى ، إذ توجد عند الانسان مجموعة من الهيجانات : كالخوف والغضب والرحمة واللذة والألم دون ان تصبح لأحدها اهمية استثنائية ، ولكنها حالة نادرة وإن كانت ممكنة . إذن يجب أن نعرف كيفية اختلال هذا التوازن ، وتحكّم رغبة من الرغبات .

٣ — هناك **الوراثة** كسبب من الأسباب ، فاذا تسلط حبّ المقامرة عند شخص ما دون البخل ، فانه من الممكن ان يكون ذا استعداد وراثي في هذا الصدد . ولكنه من المناسب — حين الكلام عن الوراثة — ان نكون حذرين ، لأن التأثير هنا غير اكيد ولا مقنن ، ومن المستحيل ان نعرف دائماً مدى الدور الذي لعبته الوراثة او الوسط او التربية ، ولكنه من غير المشكوك فيه ان الوراثة ذات دخل .

٤ — اما السبب الثاني فهو **عمق الهيجان الابتدائي** : إذ انه موجود في اساس الأهواء دقيقة لا تنسى . لقد شعرنا ذات يوم بسعادة عظيمة ، وإعجاب عميق ، وارتياح شديد ، او ثورة وكره كبيرين لدرجة اننا نعيش منذ ذلك الحين تحت سلطة تلك اللحظة الحاسمة العظيمة . ومنذ ذلك الحين تبدأ الرغبة في التعاظم ، رغبة في التمتع الدائم المضبوط بذلك الهيجان الممتاز .

٥ — والسبب الثالث هو **العادة** : وهذا لا يعني ان الهوى عادةً ، كما قيل

ذلك في بعض الأحيان — إذ اننا سنرى فيما يلي ان في الهوى اشياء لا علاقة لها بالعادة البتة — ولكنه يعني انه من المؤكد ان بعض الناس يصبحون مقامرين من كثرة المقامرة او بخيلين من كثرة جمع المال . يضاف إلى هذا ان **السبب السابق يلعب هنا دوراً هاماً** . فالواقع إنه إذا كانت العادة تخلق الهوى ، فما ذلك إلا لأنه بتكرار العمل قد تظهر لحظة الهيجان العجيبة . وإذا كان الانسان الذي يقامر كل يوم يصبح مقامراً هاوياً ، فقد لا يكون ذلك لأنه يلعب كل يوم ، ولكن لأنه ذات ليلة ثار في نفسه هوى غامض عظيم التأثير . وإذا كان في مكنة الوجود المعتاد إثارة الحب ، فقد لا يكون سبب ذلك إعتياد هذا الوجود ، ولكن لأن غبطة مجهولة قامت ذات يوم في نفس الاثنين أو نفس احدهما .

٦ — وأخيراً يوجد سبب كثيراً ما أضيف إلى الأسباب السابقة يسام في إثارة الرغبة ، ونعني به **الجهد** : فنحن نثير الهوى بقدر ما نجهد في إرضائه ، وهذا هو السبب في أن **العوائق تثير الهوى** إلا إذا كانت عوائق لا يمكن تخطيها . وهذا هو السبب في انك كلما امعنت في الاحسان إلى شخص ازددت حباً له ، وكلما اوغلتَ في الإساءة إليه اندفعت في بغضائه . وهنا ايضاً يظهر ذلك النوع من الدائرة المفرغة الذي طالما أشرنا إليه في القضايا النفسية والوظائف الحياتية ، فنحن نجهد لأن الهوى قد ابتدأ ، والهوى بدوره يتزايد لأننا نجهد .

إذنْ فلسببٍ من هذه الأسباب ، أو لهذه الأسباب كلها ، تحدث رغبة ثم تتسع وتثور ، فتظهر حالة خاصة قد تدوم سنين هي الهوى .

ب — المظاهر

للهاوي صفات ظاهرة جلية يمكن معرفته بواسطتها بسرعة ، ولنبدأ بملاحظة ما يظهر منها ، ثم نبحث عما يختفي تحت هذه المظاهر ونفسره . هناك **ثلاث عوارض أساسية** :

٧ — أول ما نلحظ **اندفاع** أي تهافت قويٍّ على شخص او شيء ، وهذا

الاندفاع قويّ لدرجة يستحيل معها إيقافه : يجب — مهما كان الثمن — ان يذهب المقامر إلى قاعة اللعب ، كما يتحتم ان يسير المتيم إلى حيث يلقى فاتنته ، وما من شيء يستطيع ان يحول دون ذلك ، فكأن هناك دافعاً قوياً جداً يدفعه دفعاً لا هوادة فيه ولا رفق . ولكن **يجب ان لا نستنتج من هذا ان لا دخل للارادة هنا** : إذ تكاد تكون الارادة دائماً ، وعلى العكس ، عبدة للهوى وفي خدمته . وهنا نلحظ أعمالاً إرادية بحتة ، ولكنها ليست حرةً بالمعنى العملي للكلمة ، وذلك لأن الارادة عاجزة عن الانفلات من تأثير هذا الجاذب والاتجاه إلى هدفٍ آخر .

٨ — أما العارض الآخر السهلة ملاحظته فهو **الفكرة الثابتة** ، فالهاوي هاجس يعيد الأمور كلها إلى هدف واحد ، فهو إن تحدث لا يتحدث إلا عن هذا الشيء ، وإن استمع فهو لا يستمع إلا لمن يتكلم له عنه ، ولو تأمل الهاوي نفسه لاكتشف هذا الهجس بسرعة لأنه تحت ربقته ، وهذا الهجس يمكن ان يكون على درجتين من الخطورة مختلفتين يشير إليهما الأطباء : فقد يكون هجساً في فكرة ثابتة مقبولة كل القبول ، حتى اصبحت عقيدةً وإيماناً ، وصارت قطعة من النفس إن لم تكن النفس بعينها . كما قد يكون هجساً فيما يجب تجنبه والدفاع عنه النفس ضده

٩ — والعارض الثالث **هو عمق الهيجانات** ، فالهاوي يسعد ويشقى ويقلق لسبب وبدرجة لا تحدث عند غيره — وهذا هو السبب في أن الهوى تدل عليه علائم جسدية : الاحمرار ، والاصفرار ، والضيق ، والتأوّه ، والبكاء ، وخفقان القلب ، وذلك لأن كل هيجان عظيم على صلةٍ — كما نعرف — بتغيرات جسدية عميقة ، فالهوى الذي هو سلسلة من هيجانات حادة ، لا يمكن أن يمرّ دون اضطرابات فيزيولوجية عميقة . هذا ما نرى فلنبحث عن المنبع الحي في الأعماق .

د – طبيعة الهوى

١٠ – هناك ملاحظة شائعة وعلى شيء كثير من الصحة تقول بأن في كل **هوى عمل توهم عميق : التجميل** في الحب **والتقبيح** في الكره . والواقع أن الهاوي يرى غرض هواه على شكل يختلف عن الشكل الذي يراه الغير عليه **ونحن لا نقول انه يراه على غير حقيقته** ، لأننا نغلط إن قلنا ذلك كما سنرى فيما يلي ، والحقيقة إننا لا نستطيع رؤية ما في حبيبه من جمال وما في بغيضه من قبح .

١١ – ونضيف إلى هذه الملاحظة ملاحظة أخرى أقلّ شيوعاً ، وهي أنه توجد **في الهوى غالباً حسن رؤية ممتازة** .

ولا شك في أن المحبّ هو الذي يحسن الرؤية ، والأم وحدها على حقّ حين ترى في ولدها ميزات باهرة ، ونحن الذين لا نقدر على اكتشاف هذه الميزات ، لأننا قليلو الاهتمام والانتباه ، قليلو الميل ، متباعدون . إذن توجد عند الهاوي رؤية ممتازة متميزة ، لأنه يرى غير ما نرى ، وأحسن مما نرى في بعض الأحيان .

١٢ – **وسبب هذا الأمر الغريب هو التالي** : ما نحب أو نبغض بهوى وهوس ليس الشخص أو الشيء الحقيقي ولكن **صورة عنها نصطنعها لنفسنا** . **وليس الشخص الحقيقي هو الهدف الحقيقي للحب** ولكنه **الشخص المثالي الذي خلقه خيالنا** . وقل الأمر نفسه عن البغض والأهواء الأخرى جميعها ، إذ **يوجد دائماً خلق لشبح يقوم بيننا وبين الحقيقة** ، وحياة الهوى ذاتها رهينة بهذا الخلق المُتابَع بدون كلل وبنوع من التكالب ، ولا يكاد هذا الخلق يتوقف وتنقطع القوة المغذية لهذا الشبح حتى يموت الهوى . والانسان ذو الأهواء القوية هو – الخالق بدرجة عظمى – الذي يتوصل إلى تحقيق الصورة المثالية التي خلقها تقريباً ، والذي يحلها محل الكائن المادي الذي أثاره . ويمكننا القول بأن **الهوى**

جهد عظيم يقوم به الانسان ليخلق وإن هذا الجهد يوفق تقريباً لأنه يتوصل ، على الأقل ، إلى إعطاء حقيقة مركزية إلى شخص وحيد ، فيجعل منه مركز العالم .

١٣ — ذلك ، إذن ، هو العمل السري العميق الذي يحف بالهوى : انا **نخلق صورة نتأملها** ، ومن هنا يسهل تعليل سبب رؤيتنا الحقيقية بشكل يختلف عن الآخرين : ذلك لأننا لا ننظر إلى الواقع ، ولكن إلى شيء آخر ، وليس من الضرورة ولا من الشائع أن تتطابق الرؤيتان .

١٤ — ولكن يبقى أن نفهم لماذا نفهم أحياناً أحسن من الباقين كلهم . سبب ذلك سهل فهمه على من شعر بهذا العمل الخلقي كله : قلنا إننا في الواقع نتأمل صورة ، **والصورة يمكن ان يكون لها مع الأصل كل درجات التشابه الممكنة** : إنها **كاللوحة** التي قد تكون لوحة متوسطة رسمها رسام غير عبقري ، كما قد تكون لوحة جهيذ . فاذا كانت لوحة متوسطة ، فقد لا تكون مشابهة ، وقد لا يكون الرسام سجل إلا تعبيراً عارضاً ليس حقيقياً تماماً ، ولا يعود إلى الظهور إلا نادراً . أما إذا كانت لوحة جهيذ ، فالمشابهة شديدة عميقة دائمة ، وقد سجل الفنان تعبيراً أساسياً هاماً دائماً ، وإلتقط روح الأصل ، وهكذا ترينا اللوحة الأصل على شكل لم نره من قبل ، والأمر ذاته صحيح فيما يتعلق بالهوى ، إنه صورة ، إنه نوع من اللوحة نحملها في نفوسنا ، وهي الموضوع الحقيقي لحبنا . وقد تكون هذه الصورة واقعية أكثر من الواقع ، وقد نكون أثبتنا فيها وضع الانسان الأهم . وبالتالي **يوجد قسط وافر من الوهم** ، لأننا إثبتنا ما يتغير بلا انقطاع في الطبيعة ، ولكن رغماً عن هذا الوهم ، فاننا نحن الذين نرى الشخص الحقيقي ، الذي لا يعرف الغير كيف يراه . وفي هذا الحال يكون للهوى حظ البقاء والخلود ، لأن الأصلي قد تغير ، ولكنه لم ينفصل تماماً عن هذه الصورة

التي تشبه أعظم ما فيه من ثابت — وعلى العكس إذا كانت الصورة خاطئة (إذا كذبتها الوقائع) فان الهوى نتيجته خيبة الأمل والألم .

ذلك هو أساس الهوى : عمل خالق ، عمل فني .

١٥ — وهدف هذا العمل المتفرد هو إحياء اللحظة الابتدائية المحنطة وتخليدها . يتولد الهوى — كما قلنا — من ظهور مثير شيّق ، ومنذ ذلك الحين لا يبقى لنا هدف إلا الإبقاء على تلك اللحظة الخلاّبة أو بعثها ، ونحن لا نستطيع ذلك إلا بتثبيت الصورة كما كانت عليه في ذلك الحين ؛ وعلى اعتبار أن الشخص الحقيقي يتغير ويتطوّر ، ويظهر بمظاهر مخالفة ، وتعابير مباينة ، فنحن لا نستطيع الاحتفاظ بتلك الصورة بشكلها الأول إلا بأن نستبدلها بشبح .

هو بهذا الجهد لتخليد لحظة خلابة أساس الهوى ذاته . إنه جهد للانفلات من قانون الوقت ، وهو في الوقت نفسه جهدٌ لتبرير حماسنا أو تعززنا بتفسيرهما بالقيمة العظمى أو الحساسة الكبرى اللتين يتصف بواحدة منهما الشخص الذي أوحاهما .

د — قيمة الهوى . علاجاته

من هذه الدراسة نستخلص فكرةً واضحة عن قيمة الأهواء : **لا شيء أقوى منها ، ولكنه لا شيء أخطر منها .**

١٦ — **لا شيء أقوى منها : بسبب انصباب الشخص على فكرة ثابتة** واندفاعه الذي لا يقاوَم في سبيلها . هذا وحين يكون الهوى نبيلاً يكون غزيراً بشكل رائع . ولا **يستطيع الانسان أن ينعدى نفسه إلا بالهوى** . ومامن شكّ في أن **الهوى موجود على أساس العبقرية** ، وهذا ما يحرر الانتباه بشكل رائع ، فيوجهه بكل قوة إلى نقطة واحدة ، فتتمركز كل قوانا حول نقطة واحدة ، والهوى يسهّل ذلك بشكل ممتاز .

وبالجملة **فإنه هناك طريقتين للقيام بعمل : الطريقة الهادئة المفكرة وطريقة الهوى** . وبالتفكير وحسن المنهج نتوصل إلى حسن القيام بالعمل ، وعلى وجهه الأصح ؛ ولكن بواسطة الهوى وحده نستطيع أن نعلو إلى مستوى أعلى . وإن كان من غير المشكوك فيه بأن العمل المنهجي يستطيع أن يوصل إلى الكمال فانه صحيح أيضاً بأنه يوصل إليه بوقتٍ طويل . أما الهوى فيحل محل الجهد العظيم ، وساعة هوىً تنتج عمل ساعات جهد : **الهوى نوع من العمل بإلحاح شديد** .

١٧ — **ولكن لهذه الأسباب ذاتها يصح أن نقول بأن لا شيء أخطر من الهوى** . إنه خطر **لأنه أحلام وخلق خيالي** ، وقد يقود الاصطدام بالواقع إلى الانتحار . وهو بعد ذلك **يستعبد الإرادة** ، فنحن لا نبقي سادةً أنفسنا ، ولكننا نصبح ألعوبة في يد قوة ثائرة لا يعلم إلا الله وحده إلى أين تقودنا .

١٨ — وأخيراً **يوجد في أساس الهوى نفسه مبدأ ظلم** لأن الهاوي الهاجس في رغبة وحيدة يميل إلى تضحية كل شيء في سبيل هذه الرغبة ، وحتى في أحسن الأهواء : كأهواء الفن والعلم والوطن نجد هذه النزعة إلى درجة ما . ولكنها سائدة في الغالب على الهوى القائم بين شخصين ، فالحب والحب الأمي ذاته فيهما دوماً شيء من الظلم . الهوى بجوهره يخلق الظلم لأنه يخلق عدم المساواة ، عدم مساواة عظمى ، لأنه يقسم العالم إلى قسمين : المحبوب مركز العالم من جهة ، وكل الناس من جهة أخرى .

١٩ — وينتج من هذا أننا **لا نستطيع ان نحكم على الاهواء بالجملة** ، فانه من الخطأ أن نشذّ بها ، كما أنه من الخطل أن نقرها عمومها ، وهي ككل قوى الطبيعة قد تؤدي إلى مآسٍ كما قد تؤدي أجلّ الخدمات بحسب كيفية استخدامها ، ولذلك يجب التمييز .

٢٠ — ولذلك كانت القاعدة العملية الأولى هي التالية : **يجب الاختبار** ، فيجب عدم الانقياد إلى الهوى إلا إذا كان يؤدي إلى حيث نريد ، مثله في ذلك مثل القطار السريع ، إذ أنه عظيم جداً أن نركب قطاراً سريعاً يقودنا إلى حيث نحب ، ولكنه مؤسف جداً أن نخطئ في القطار ، وفي حالة كهذه يجب اختيار أول محطة للنزول ، وقد تكون بعيدة .

٢١ — وبعد أن أخذنا هذا الاحتياط يجب ان نقول إنه من غير المعقول أو المفيد أن نشذّب كل الاهواء على الاطلاق لأنه **ليس من العقل في شيء ان نبالغ في الاعتماد على العقل** . لأن الحكمة تقضي بعدم إهمال أي مقوّ منشط مهما صغر شأنه ، والهوى مقوّ عظيم وحافز له خطره فتجب الاستفادة منه ، أما أن ندعه جانباً بحجة أنه خطر ، فان شأننا يكون حينئذ شأن الذي يمشي دائماً على قدميه بحجة أن القطارات خطرة ، والعاقل كل العاقل هو الذي يهوى مهنته ، والعمل الذي يخلق ، والرسالة التي نصب نفسه لتأديتها ، والوطن الذي يعيش فيه ، والعلم او الفن الذي يعمل في خدمته ، وبذلك يستطيع تأدية واجبه بأمان ، وعلى شكل أكمل وبسعادة أعظم . وما دمنا نهتم بالتربية ، فان **على المعلم ان يغلس هذه الشباب اشياء مفيدة نبيلة** ، فلا يكفي أن تفهمهم واجبهم بل عليك أن تحببهم به ، لأن ذلك أضمن ، ولا يكفي أن يعلموا علماً أو يقتنوا فناً ؛ بل يجب أن يهووه الأمر الذي لا يخسر العقل والطريقة ، ويربّح العلم والفن والمجتمع كما يربّحهم هم انفسهم .

٢٢ — أما القاعدة الثانية فهي الآتية : **إذا كان الهوى خطأ او قف منذ البدء** . فالهوى النامي — إلا في بعض حالات استثنائية — إذا تحكم في نفس استعصى على العلاج : **ولا يمكن شفاء الهوى إلا حين ولادته** . ولذلك كان من المهم أن ننتبه إليه باكراً وأن نقوم بمعالجته بسرعة . **اما محاربة الهوى البازغ فتكون على طريقتين :**

٢٣ — الطريقة الأولى هي الطريقة القوية والبطولية **إنها قرار الارادة الحاسم :** وكل شيء متوقف على ماضيّ ، فاذا كنتُ في ماضي قد ربيت إرادتي كما يجب وتمكنت من التسلط على نفسي فيجب ان لا أتردد ، لأن هذا العلاج هو العلاج الهام والناجع تماماً . أنظر في الأمر ملياً وبوضوح ، فاذا قنعت بخطأ هواي الناجم انتويت ان أتخلص منه حالاً ، فأسافر او اتغيب او ابتعد عن المحبوب او المكروه .

ولكن يجب ان نذكر ان هذه الطريقة المفاجئة القوية تحتاج الارادة التي برهنت على قوتها كما تقتضي ان لا يكون الهوى قد استفحل .

٢٤ — أما إذا كان الانسان يشك في قوة إرادته ، فيتحتم عليه ان يلجأ إلى الطريقة الأخرى الأضمن **وهي محاربة هذا الهوى السيء بهوى احسن** وأنبل ، والواقع إن كثيراً من الناس يشفون على هذه الطريقة ؛ فالحب الأميّ أنقذ كثيراً من الأمهات من أهواء جامحة ، وهوى العلم أو الفن أو الرياضة مساعد ممتاز . والشرف والكرامة الشخصية والعدالة ، إذا كانت حقيقة وحية ، يمكن ان تنقذ من كثير من الاهواء الخسيسة . وابسط انواع الولع واكثرها عامية يمكن ان تؤدي خدمات لا تقدر : فما اسعد النجار ، أو الحداد الذي يهوى عمله ، وما اسعد كل صاحب مهنة يهوى مهنته ويمارسها بهذا الهوى الشديد .

٢٥ — أما عمل المربي فهو مراقبة الاهواء والقضاء على السيء منها :

١) — **مراقبة الأهواء :** وظيفة الأب والمعلم الأساسية هي تجنيب الطفل كل ما قد ينمي ميوله السيئة ، وذلك بالوسائط التالية :

١ً ـ رقابة على الطفل مستمرة ، لطيفة : مراقبة علاقاته وصداقاته وقراءاته وأحاديثه وأعماله .

٢ ـ تنمية ميوله الطيبة وتوجيهه نحو الخير وانتهاز الفرص المناسبة في هذا التوجيه واتباع الطرق التربوية الصحيحة .

٣ً ـ تربية إرادته وتثقيفها على النحو الذي سنراه حين نتحدث عن تربية الارادة .

٢٦ — ٢) — **القضاء على الأهواء السيئة** ، وهذه بعض الوسائل :

١ً ـ التأثير على ما قد يغذي الهوى ، وذلك بالسهر على حواسه (العين ، الأذن ، اللمس ، الذوق) ، والسهر على خياله وتوجيه هذا الخيال نحو ما هو نبيل ، وضبط هذا الخيال ومراقبته وتهذيبه ، ومحاربة ميوله السيئة لأنها هي التي تصبح أهواء .

٢ً ـ تجنيبه ما قد يغذي هواه السيء ويثيره وذلك بكل الطرق الممكنة .

٣ً ـ محاربة الأهواء المنحطة بأهواء نبيلة .

مراجع البحث

١ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثاني ، الفصل الرابع

٢ — عطية الله ـ أحمد : ص ٤٦ فما بعد

٣ — قنديل ـ أمين مرسى : الجزء الأول ، الفصلان ٦ ، ١١

٤ — المصري ـ ايريس حبيب : الجزء الاول ، الفصل السابع عشر (ب)

الفصل الحادي والعشرون

اللذة والألم

تصميم البحث

ليست اللذة والألم حوادث ولكنهما صفتان شاملتان للحوادث الانفعالية .

آ — الألم الجسدي

١ = تلقي الاحساس : نقاط الألم .
٢ = نقله : الحبال البيضاء .
٣ = المركز .

ب — الألم المعنوي

٤ = رد الفعل : التجنب .
١ = الشبه الوحيد بينه وبين الألم الجسدي : رد الفعل (التجنب) .
٢ = سببه : الشعور بالعجز أمام مانع أو عائق .
٣ = شكله النموذجي : القلق .

م — اللذة

١ = النموذجان : سلبي وإيجابي .
٢ = سببها : إتمام العمل : ذو شرطين (آ) القوة التي تصرف (ب) طبيعة العمل .
٣ = آثارها : إهاجة للعمل ـ إندفاع .

د — اللذة و الألم في التربية

١ = اللذة علامة ومنبع للقوة وهي لذلك خير .
٢ = المهم انتخاب اللذة .
٣ = الألم واسطة هامة من وسائط التربية ـ وجوب تعويد الطفل على تحمل آلام الحياة .

١ — اللذة والألم ليسا حوادث بالضبط ولكنهما **صفتان** شائعتان للحوادث الانفعالية ، فكل الحوادث الانفعالية المتولدة من **الرغبة** ، هي إلى حدّ ما مُرضية أو مؤلمة . إنما **الحوادث هي الهيجانات** ، وهذه الهيجانات تتصف ، إلى جانب الصفات الأخرى ، بأنها مسرة أو مؤلمة .

٢ — ومن الخطأ في شيء كثير أن نتحدث عن اللذة الجسدية واللذة المعنوية على انهما شيء واحد ، وأخيراً فانه من الخطأ أن نتحدث عن الألم الجسدي والألم المعنوي ، على أنهما شيء واحد ايضاً ، إذ أننا نتعرض لخلط عظيم ، ولذلك فسنفكر في كل هذه المواضيع على انفراد ، وسنرى اخيراً فيما إذا كانت من طبيعة واحدة .

آ — الألم الجسدي

٣ — دراسة الألم الجسدي ، في الحقيقة ، دراسة لفيزيولوجيا الأعصاب قمنا بها في مطلع ابحاثنا . وسنلخص هنا أهم ما يهمنا في هذا الموضوع ، على اعتباره يؤثر بصورة مباشرة على شعورنا وسلوكنا .

رأينا انه في كل حين نتحدث فيه عن انطباع عصبي يجب ان ننظر في (١) تلقي الاحساس و (٢) في نقله و (٣) في مركزه و (٤) في ردّ فعله .

٤ — **تلقي الإحساس** — كان علم النفس الفيزيولوجي الاتباعي يحسب ان كل الأعصاب يمكن إثارتها إثارة مؤلمة وان النهايات العصبية نفسها التي تعمل في اللمس والضغط والبرودة والحرارة تتألم إذا كانت إثارتها شديدة .

أما الآن فقد تبين (كما رأينا) بفضل الدراسات التجريبية الدقيقة التي أجريت على النقاط الحساسة من الجلد ، إنه توجد **نقاط خاصة** بالألم ، ولا يظهر الالم إلا إذا مُسّت هذه النقاط .

٥ — **نقل الاحساس** — لقد كان من المسلم به ان الإثارة المؤلمة تنتشر عن

طريق المحور السنجابي للنخاع الشوكي ، أما الآن فقد اصبح من المعتقد انها **تنتشر عن طريق الحبال الجانبية البيضاء** .

٦ — **مركز الاحساس** — المقام المركزي للحادث مجهول ، ويكاد يكون من المقرر انه **موجود في الدماغ** وليس في المراكز السفلى ، وذلك لأن الكلوروفورم الذي لا يخدر في البدء غير الدماغ يحذف ، في أول الأمر ، حس الألم ، مع أن حس اللمس باقٍ ، فهناك إذن فترة قصيرة يضيع فيها حس الألم تسبق التخدير العام ؛ ولكن المنطقة من الدماغ التي يتمركز فيها الحس مجهولة .

٧ — **رد الفعل** — جواب كل إثارة ردّ فعل حركي معين . وجواب إثارة الألم ردّ فعل **التجنب** إذ يحاول الانسان التخلص من السبب الذي يؤلمه فالعين المثارة مثلاً تبكي لتقضي على الغبار ، والعضوية المتألمة من جسم غريب تعبئ جيشاً دفاعياً كاملاً لكي تقصي الشوكة مثلاً ، والطفل الموخوز يبعد يده ليتجنب الدبوس الذي يجرحه .

ب — الألم المعنوي

لقد درسنا الألم المعنوي بالتفصيل حين درسنا الهيجانات ، ولقد رأينا أن سبب الهيجانات المؤلمة **صعوبة التكيف أو استحالته** ، فليس لنا إذن إلا أن نشدد هنا على هذه الصفة الخاصة بالألم ، الخبيثة في بعض الهيجانات .

٨ — **يظهر الألم المعنوي لا يشبه الألم الجسدي في شيء** ، فما الشبه بين ألم الفراق وألم الحرق ؟ في الواقع إنه لا يوجد **اشتراك** بينهما إلا **في نقطة واحدة وهي الأثر أي التجنب** ، وقد رأينا التجنب فيما يتعلق بالألم الجسدي ، أما فيما يتعلق بالألم المعنوي ، فالملاحظة سهلة ميسورة : لا نكاد نسمع خبراً مؤلماً حتى يكون رد الفعل الغريزي هو الصراخ : « ليس صحيحاً » ، « لم يفهم جيداً » ،

«لم يقرأ جيداً» ، «الأمر متعلق بشخص آخر» الخ ... ونحن في هذا ننزع الفكرة المؤلمة كما ينزع الحيوان السهم الذي اخترق أحشاءه .

٩ — **والألم المعنوي مرتبط دوماً بوقف للعمل واندفاع موقف .**

وسبب الألم هو العائق الذي نصطدم به ، فالغضب الأليم يتولد عن مانع للرغبة ، والحنق الشديد الايلام يصدر عن العائق الذي يحول دون انفجار الغضب . والخجل المؤلم أساسه الحيلولة دون الراحة الاجتماعية .

والخلاصة **فان الألم المعنوي هو الشعور بالعجز** — العجز عن التغلب على العائق .

١٠ — **والقلق** الذي هو من أشدّ حالات الألم ليس إلا الانتظار المؤلم لما لا يمكن تفاديه ، وهو مثال واضح يظهر بجلاء دور هذا العجز في الألم .

فالقلق الصحيح موجود حين لا نستطيع عمل شيء فنعجز حتى عن الهرب لتجنب الخطر : فالأم ، مثلاً ، لا تستطيع أن تقوم بأي عمل أثناء عملية جراحية تجرى لطفلها سوى الصلاة — إن كانت مؤمنة — ، وحتى الهرب فهو عبث . وهذا هو وجه الألم في القلق : العجز التام ، فالعائق هنا عظيم لدرجة أنه لا يوجد ما تمكن محاولته ، إذ تدل الحالة ذاتها على أنها خارج حدود إمكانياتنا .

ح — اللذة

يمكن دراسة اللذة الجسدية واللذة المعنوية دفعة واحدة ، لأنه توجد — على ما يظهر — هذه المرة خيوط عصبية خاصة للذة ، فاللذة في كثير من الأحوال تنضاف إلى أعمالنا وهيجاناتنا لا اكثر ولا اقل .

١١ — **نموذجا اللذة :** — توجد **لذات سلبية هي وقف الألم** لا أكثر ولا أقل ، كلذة الصحة بعد المرض والراحة بعد التعب والطعام بعد الجوع . كما توجد **لذات ايجابية** ليست غياب الألم فقط ، ولكن لها عمقها بحدّ ذاتها كلذة طعام محبب في وقت عدم الجوع ، وكلذة العطر والفن .

١٢ — **سبب اللذة** — الفكرة الأساسية التي أصبحت إتباعية منذ أيام أريسطو هي التالية : **ليس السرور موجوداً بحدّ ذاته ولا يمكن فصله عن العمل الموجود في أساسه ونعني به العمل المتقن اتقاناً خاصاً** . وهذا الاتقان (أو الكمال) **يتعلق بشرطين : القوة التي نعمل ، وطبيعة العمل نفسها** .

١٣ — **يجب اولاً ان نملك قوةً اكثر مما يجب لانهاء العمل** . لنفرض أنني أريد صعود جبل ، فقد لا تكون لي القوة الكافية ، وحينئذ قد لا أصعد وإذا صعدت أتعب تعباً مؤلماً ، وقد تكون لي القوة اللازمة بالضبط ، وحينئذ أصل القمة ، ولكن دون لذة أو سرور . وقد يكون لي من القوة أكثر مما يلزم ، وحينئذ لا أصل فحسب ، بل تبقى لي بعض القوة ، وهكذا يتحقق العمل بشكل سهل ، عمل موصوف باللذة ومصحوب بها .

هذا ويجب أن نلاحظ أن **فضل القوة يجب ان لا يكون كبيراً** وإلا وقعنا في حالٍ حيوية ممنوعة ، أي في حال ألم .

١٤ — **وشرط اللذة الثاني طبيعة العمل نفسها** . يجب أن لا ننسى قط أن على الانسان — ككل الأحياء — أن يتكيف مع محيطه ، وإلا هلك . فينتج عن ذلك **أن العمل لا يصبح كاملاً وبالتالي لذيذاً إلا إذا حقق تكيفاً** ، وهكذا يكون العمل الذي يقربني من الأصدقاء عملاً مسراً ، أما العمل الذي يقصيني عنهم فمؤلم ، وأقطع منه الاتصال بالناس الذين نكره . وقل الأمر نفسه عن الطعام الذي تستقبله العضوية بارتياح فهو طعام مسر ، لأن العضوية تتكيف معه بسهولة ؛ أما الطعام الذي ترفضه العضوية فبغيض ، إلا في بعض حالات نادرة .

١٥ — **آثار اللذة** : — **اثر اللذة الهام ، الاثارة للمداومة على العمل** .

فعندما نستشعر بلذة ، نجهد — عفوياً — للمحافظة عليها أو تجديدها . فالطفل الملتذّ بقصة يسمعها يصرخ « أيضاً ! أيضاً ! » .

١٦ — وهناك بعض **الآثار الفيزيولوجية** التي تستحق الذكر : **الإثارة الدموية** ، ولا سيما في الدماغ ، وينتج عنها الاحمرار ولمعان العينين ، و**الإثارة التنفسية** التي تستفيد منها العضوية بكاملها ، و**إثارة الحركات** : كقفز الأطفال ورقصهم ، وهو ميل لتوسيع الحركة وانتشارها ، فتصبح أكثر وأشمل عوضاً عن أن تنكمش وتقل كما في الألم .

د — اللذة والألم في التربية

١٧ — **اللذة في التربية** : — ما من سبب يخوّلنا حق النظر إلى اللذة ، على أنها شرّ إذا لم نكن زاهدين ننظر نظرة عداء لكل ما يصدر عن الطبيعة . **واللذة علامة للقوة ومنبع لها** ، وهي تدل على أننا نملك زيادةً في القوة ، وهي من جهة اخرى تنشط العضوية والانسان بكامله ، ولذلك كان من الخير في شيء كثير أن يسرّ الطفل في ألعابه ويلتذّ في عمله ، **وهذا لا يعني مطلقاً ابعاده عن كل جهد** ، ولكنه يعني العكس تماماً أي **تعليمه تقدير لذة الجهد نفسه** .

١٨ — إذن فنحن لا ننظر إلى اللذة على انها عدو . وكل ما يجب هو تعويد الطفل على **انتخاب لذائذه** ، والأخذ بيده إلى تفضيل اللذات النبيلة : لذات العقل والقلب والفن والفضيلة والعلم . فالمهم إذن الانتخاب لا النفي ، وما تجب محاربته والاحتراس منه ، هو خلق رجال لا يرون لذاذاتهم إلا عن طريق حواسهم ، وفي جمع الدرهم فقط . أما الذين يجدون لذتهم في الفهم وعمل الخير فنعمّا يفعلون .

١٩ — **دور الالم في التربية** : يجب أن لا نفهم أبداً من ميل التربية الحديثة إلى جعل المدرسة شيقة لذيذة تذليل كل صعوبة ، وتجنيب الطفل كل عسير ،

وإبعاده عن كل ألم ، إن كل تربية لا تعود الطفل الاخشيشان ، ولا تعوّده مجابهة الحياة بما فيها من مصاعب مشاق وآلام ، تربية فاسدة ما في ذلك من شك .

فالالم واسطة من وسائط التربية : ونعني بالألم هنا الألم المشروع الألم الحق الذي لا ظلم فيه ولا قسوة ، ألم العقاب العادل المناسب ، وألم الانضباط الضروري ، وألم الجهد اللذيذ ، وألم الحرمان الخيّر . الألم بوتقة تنصهر فيها النفس ، فتخلص من ادرانها وتتطهر من اوشالها . علينا ان نعوّد اطفالنا على تحمل الحياة بما فيها من آلام وتجارُب ، باسمي الثغر ، ماضيّ العزم .

مراجع البحث

١ — الجارم وأمين : الباب الرابع عشر

٢ — صليبا ـ جميل : الكتاب الثاني ، الفصل الأول

الفصل الثاني والعشرون

الارادة

تصميم البحث

آ — الأشكال المختلفة للحادث الارادي :

الحركة الارادية ، الامتناع الارادي ، التجديد Innovation ، التصميم .

ب — دراسة التصميم الارادي :

تصور ، مذاكرة ، تصميم ، تنفيذ .

م — علاقات الارادة والرغبة

د — ارادة الطفل

ه — تربية الارادة

ضبط النفس .

التربية المباشرة وغير المباشرة للارادة .

١ — هناك ملاحظة هامة : يجب أن لانتكلم عن (الارادة) ، وكأنها مجردة ، ولكن يجب أن نتكلم عن (**الأفعال الإرادية**) ، عن (التقرير) ، أو — إن أحببنا — عن التصميم . كما يجب الاحتراز من تفسير الأعمال الارادية بالارادة ، وإذا فعلنا هذا فان حالنا يكون حال مفسر النوم بقوة الأفيون المنومة ، ومفهوم طبعاً أن هذا ليس من علم النفس في شيء .

آ — الأشكال المختلفة للحادث الإرادي

٢ — يأخذ الحادث الإرادي — ككل الحوادث النفسية — أشكالاً مختلفة بعضها بسيط مبدئي ، والبعض الآخر أكثر تعقيداً ، ويمكن تمييز أربع درجات أساسية :

١) أبسط الأشكال هو **الحركة الارادية** : أريد أن أحرك ذراعي فيرتفع ، وهذا هو أول مظاهر الإرادة عند الطفل ، فحركات الطفل الأولى غير إرادية ، إنها أفعال منعكسة ، فهو إنما يحرك فخذيه وذراعيه ويديه آلياً ، وهو يمضي عهداً طويلاً يلتذ فيه برؤية أصابعه تتحرك وباحساسه بهذه الحركة ، ثم يتعلم رويداً رويداً كيف يحدث هو ، وفي الحين الذي يريد — هذه الحركات التي تلذ له — وهو يتعلم هذا بتقليده نفسه ، وبهذه الصورة يتوصل إلى التحكم في جسده .

٣ — ٢) **وعمل الامتناع** يكاد يكون بهذه الدرجة الابتدائية . فطفل ابن سنتين أو ثلاث يمنع نفسه ـ من حين إلى آخر ـ عن الصياح أو البكاء أو الغضب ، وهذا شكل هام من أشكال العمل الارادي نجده في كل الأعمار ، **ففي كل حين نصادف رغبة تكون إطاعتها سهلة ، أما الصعوبة ففي مقاومتها** : وهنا يتجلى ، في الغالب ، عمل الجهد الإرادي : قد أخاف مثلاً ، فالعمل الارادي ينحصر في منعي من الهرب .

٤ — ٣) **وعمل التجديد** أكثر تعقداً ، **فالعادة** هي الميل إلى الإعادة الخالصة البسيطة للماضي ، إنها الأمر الجاهز ، إنها الميكانيكية التي وجدت فينا خلال ما أمضيناه من العمر . أما **العمل الارادي فكثيراً ما يكون عملاً جديداً** ، نعم إنه يتراوح في الجدة بين حديها الأدنى والأعلى ، ولكنه ليس نتاجاً بسيطاً لعمل قديم . وهكذا فان عملاً إرادياً صغيراً ضروري لتغيير فعل معتاد مهما صغرت قيمة هذا التغيير ، فالكلام بلهجتنا العادية مثلاً سهل جداً ، ولكن الكلام بصوت اكثر انخفاضاً لئلا نزعج مريضاً يتطلب جهداً إرادياً قليلاً . وأخيراً فاننا نجد هذا العمل نفسه في حالات أشدّ خطورةً ، وذلك عندما يجب علينا أن **نغير طرازحياتنا** تغييراً يقلبها رأساً على عقب ، وذلك لنواجه وضعية جديدة كل الجدة : إفلاساً ، او موتاً ، او حرباً الخ ... ففي هذا الحال يجب التجديد ، ولكنه تجديد صعب أليم .

٥ — ٤) وهكذا نصل إشد الأشكال تعقداً ، ونقصد به **التصميم** او التقرير . **ومن الخطأ** — بكل تأكيد — **ان نحسب أن كل عمل ارادي تصميم** ، فليس هناك تصميم بالمعنى الصحيح في اكثر الحركات او اعمال الامتناع او التجديد التي تكلمنا عنها ؛ ولكن يبقى صحيحاً القول بأن هذا الشكل من العمل الارادي الذي يحدث في اللحظات الحاسمة من حياة الانسان ، حيث يتحتم عليه ان يقول نعم او لا هو شكل هام جداً . ولذلك فسنعني خاصة بتحليل هذا الشكل دون ان ننسى ان هناك افعالاً إرادية أكثر بساطة .

٦ — وهناك نقطة واحدة مشتركة بين كل الأفعال ، وهي الشعور بأننا سبب العمل الجاري والاحساس بالجهد الشخصي الذي يتطلبه العمل .

وعلى هذا يمكن تعريف **العمل الارادي** بأنه **عمل خارجي او داخلي نشعر بأننا سببه** .

٧ — ولقد درس مين دوبيران Maine De Biran هذا [الشعور بأننا

السبب] دراسة عميقة في تحليله الجهد الارادي وفي رأيه أن لحظة الجهد هي اللحظة المظهرة لشخصنا الحقيقي . وليس الحادث بسيطاً كغيره ، ذلك لأننا نشعر بالقوة التي تكون أنانا (شخصيتنا) .

ب — دراسة التصميم الارادي

٨ — **التصميم** هو العمل الارادي الحقيقي **هو جزء في كل** ، لحظة هامة بصورة خاصة في قصة تبدأ منذ تصور العمل وتنتهي بتنفيذه . وعلى هذا يمكن موافقة علم النفس الاتباعي على تمييز **اربع لحظات** أو وجوه في العمل الارادي الكامل : **تصور ، مذاكرة ، تصميم وتنفيذ** :

١ً) ما يسمى عادةً (**تصوراً**) هو أكثر من تصور بسيط إنه أكثر من خطور الفكرة في النفس إنه **حادث امتناع** . في الحالة غير الارادية تتحقق فكرة العمل أو صورته او الرغبة فيه من تلقاء نفسها ورأساً ، تحصل الحركة لوحدها ، ولكننا حين نتصرف إرادياً نقطع الرابط بين الحركة والفكرة ، **نوقف الحركة التي كانت ستحدث** .

٩ — ٢ً) وحينئذ تبدأ **المذاكرة** أعني **فترة التفكير والفحص** ، وليس الأمر كما يقال تردداً بسيطاً ؛ إنه عمل حقيقي ، **عمل العقل والمحاكمة وعمل التخيل** بصورة خاصة ، ذلك لأن على الانسان أن يرى المستقبل ، وأن يتمثل ما سوف يحدث إذا اختار هذا ، وما سيحدث إذا اختار ذاك وعلى ذلك فالمذاكرة عمل عقلي . وهنا الفرق بين الحيوان والانسان : الأول إذا وقع في مأزق جرّب مادياً ان يتخلص منه ، أما الانسان فقد تعلم ان يفعل هذا عقلياً .

وتتداخل في هذا الأمر دواعٍ ودوافع : **الاهتمام ، العاطفة ، الواجب**

الخ ... ولعل الأمر يعود — إذا تعمقنا فيه — إلى **التصادم بين الدوافع الفردية والدوافع الاجتماعية** : تصطدم رغبتنا بالارادة العامة (قواعد دينية او أخلاقية ، عرف ، تقاليد ، عادات الخ ..) ، ولعله لا يمكن اعتبار أي عمل إرادياً إذا لم يحدث هذا الاصطدام بين (انانا) الشخصية و (انانا) الاجتماعية .

١٠ — ٣ً) فاذا انتهت المذاكرة (وهذا ما لا يحدث دوماً عند المترددين) صمم الانسان على أمر ما ، **والتصميم** — كما رأينا — **هو العمل الارادي ذاته** . والتصميم دوماً **انتخاب** ، وما الانتخاب إلا امتناع ، ذلك لأن الانتخاب يقتضي وجود ميلين على الأقل أو رغبتين تصطدمان ، والانتخاب معناه منع احدهما من التحقق ، أي الامتناع عنه وكبته ، ومعنى هذا انتصار الآخر .

١١ — فنحن إذن حين نتكلم عن انتخاب او تصميم ، نخضع لوهم ، إذ نحسب ان المهم ما نعمل ، مع ان **الأهم هو ما لا نعمل** ؛ والجهد موجه دوماً نحو الرفض : أما ما نقبل فليس بحاجة إلى النجدة . ومثال هذا اننا نحسب إذا استيقظنا صباحاً في غرفة باردة ان الصعوبة في ترك الفراش الدافئ ، مع ان هذا وهم محض ، ذلك لأن اكثر الناس كسلاً يقفز من فراشه إذا كان الأمر منحصر في اخذ كتاب والعودة إلى الفراش حالاً ؛ إنما الشاق العسير ترك دفيء الفراش اللذيذ .

وهكذا **فالتصمير رفض وتمرد وايقاف** . ولا يعني هذا ان العمل الارادي سلبي ، ذلك لأن الجهد الايجابي تماماً ، القوي احياناً ، والبطولي في الأحيان الأخرى ، ضروري لكبت رغبة ما .

١٢ — ٤ً) يبقى **التنفيذ** ، اي التحقيق المادي لحركة او مجموعة حركات ، وليس في هذه المرحلة شيء سري ، وذلك لأن التصميم معناه كبت الرغبة المعاكسة ، **ولا يبقى الا انطلاق الرغبة المنتصرة** ، وكأن ما من شيء قد اوقف مرورها

في الماضي . وإذا كان الأمر متعلقاً — كما هو الحال في كثير من الظروف — بتصميم يطول امد تنفيذه شهوراً او سنين ، كان من الضروري ان **نجدد العزم** من حين إلى آخر لنتغلب على مغريات عدم المضيّ في المشروع ؛ ففي هذا الحال تكون هناك جمهرة التصميمات المتتالية يقودها التصميم الأساسي .

٣ — علاقات الارادة بالرغبة

١٣ — لقد اظهر التحليل السابق ان المسألة كلها تنحصر فيما يلي : يوجد في البدء **رغبة** او رغبات ، ثم يوجد تصميم إرادي ، والسؤال الآن هو : **كيف نمر من الأولى الى الثاني** ؟ او على الأصحّ ما هي العلاقة بين الرغبة والارادة (اي بين الرغبة والتصميم) ؟

١ً) هناك نظرة قديمة في القرن التاسع عشر ترى في **الارادة القوة التي تخلق الرغبة** . والرغبة — في نظرها — لا تتحقق من نفسها ، ولكنها تبقى املاً داخلياً محضاً ، والتصميم وحده هو الذي ينقلها إلى منطقة العمل ، اي إنه يعطي الرغبة ما ينقصها .

هذه النظرة التي قد توافق الارادة الالهية كما وصفها ليبنتز **تكذبها الوقائع** إذا طبقت على علم النفس البشري ، وذلك **لأن الرغبة تخلق من تلقاء ذاتها** إذا لم تصادفها عقبات ، وليست بحاجة إلى القوة التي تعطيها الارادة إياها . والأشخاص القليلو الارادة هم بالضبط الأشخاص الذين تتحقق كل رغباتهم ، وحتى افكارهم لا تلبث ان تصبح اعمالاً : أليس هذا حال الأطفال والمرضى بفقد الارادة ؟ هذا وإنه من المعروف ان الانسان في حالة الغضب والخوف تصدر عنه الأعمال من تلقاء ذاتها ، وعمل الجهد الارادي ينحصر في إيقافها لا خلقها .

وقد رأينا ان **الرغبة** — إلى حدّ ما — **عمل ينجز ، والعمل الناجم اذا لم يعقه عائق يصبح عملاً كاملاً** . إذن يجب ان نترك جانباً هـذه النظرة التي تتراءى صحيحة منطقياً ، والتي هي في الحقيقة عارية عن الصحة .

١٤ — ٢) وهنـاك نظرة اخرى تطرأ على الفكر : أليست **الارادة ضابط الرغبة** ؟ ما دامت الرغبة إذاً تركت لنفسها تصبح عملاً ، فليس للجهد الارادي إذن عمل إلا إيقافها وكبتها وضبطها ، وهو يوقفها احياناً وقفاً تاماً ، وهو يوقفها احياناً اخرى إيقافاً عارضاً ليراقبها ثم يدعها تمرّ .

إن ما يغرينا بهذه النظرة هو التحليل الذي قمنـا به آنفاً ، والذي ارانا ان **التصميم انتخاب وان الانتخاب ايقاف** .

١٥ — ولكن هناك ملاحظة على هذه النظرية : معلوم ان **النفس لا تضبط مستندة على خلاء ولكنها تستند على رغبة معاكسة** ، فهي إنما تعاكس رغبة برغبة مضادة . ثم ، اذا نظرنا الى الارادة على انها قوة توقف الرغبة نكون قد وقعنا في خرافة التجريد التي اشرنا إليها سابقاً . أليس من الأنسب ان نقول فقط إن بالتصميم تتغلب رغبة على رغبة اخرى ؟ ! وهذا ينقلنا إلى نظرية ثالثة :

١٦ — ٣) **الارادة رغبة سائدة** . نصل إذن إلى هـذه النظرية البسيطة جداً : **وقع نضال بين رغبتين وانتصرت احداهما** ، ذلك هو التصميم او العمل الارادي . وعلى هذا تكون العلاقة بين الارادة والرغبة علاقة هوية : ليست الارادة إلا رغبة منتصرة ؛ وليس هناك قوتان احدهما الارادة والاخرى الرغبة بل هناك رغبات لا اكثر ولا اقل ، كما ان هناك نضال رغبات وانتصار رغبات ، انتصاراً قد تتنوع اسبابه التي منهـا العمق او الموافقة لأوامر العقل ، او التمشي مع إرادة المجتمع ؛ وينتج عن هذا ان الارادة قد تتراوح في درجة حسنها وسوئها ولكن جوهرها هو هو . كائنة ما كانت صفة الرغبة المنتصرة ، فان هذا الانتصار تصميم ، وتصميم إرادي .

١٧ — وللتأكد من صحة هذه النظرية ، يكفي أن ننظر فيما حولنا ، ولكنها مع ذلك **غير كاملة** ، ذلك لأن هذه الرغبة المنتصرة ليست رغبة كغيرها : لنفحص مثلاً الحالة النموذجية حيث يكون التصميم أخلاقياً يتغلب على هوى قوي ففي هذا الحال لا يكون الذي يعاكس الهوى رغبة منعزلة ، ولكن وضعيتنا هي التالية : « خضوعي لهذا الاغراء غير لائق بي » ، أو بتعبير آخر فان **ما يقف في وجه الرغبة الحاضرة ليست رغبة حاضرة أخرى فقط ولكن شخصنا بمجموعه** بما فيه ماضينا ومستقبلنا ، ما كناه وما نريد أن نكونه وما نحن عليه الآن طبعاً : تقف كلها صفاً واحداً في وجه الرغبة . وبهذا المعنى الدقيق الايجابي تماماً يمكننا أن نقول : إن **التصميم ناتج عن تدخل (الانا) في نضال الرغبات** .

١٨ — يبقى أن نعرف إذن ما هو هذا الأنا : هل هو مجموع حالاتنا الماضية والحاضرة ، أو هل هو من أصل وحتى من جوهر اجتماعي ؟ أو — بحسب رأي مين دوبيران — هل هو قوة مركزية ، ينبوع حيوية ؟! إن الجواب على هذا السؤال غير داخل في نطاق علم النفس المحض .

ولكن خلاصة هذا التحليل من خصائصنا وهي : **التصميم الارادي حادث ايقاف وهذا الايقاف ليس ناتجاً بصورة ميكانيكية عن اقوى معاكس اقوى ، ولكنه ناتج عن تدخل الشخصية كلها** .

د — إرادة الطفل

١٩ — **تتجلى إرادة الطفل باكراً** ، ولكن عقله لا يضبط تصمياته الأولى وذلك بسبب سيطرة غرائزه ورغباته عليه . وبعد مضيّ بضعة أشهر **تتجلى إرادته بشكل اندفاعي** ؛ ولكن تصميمه ، لضعف محاكمته ، فجائي ومدعوم بنزواته . وقد يدوم هذا الطور عند الطفل حتى سنّ البلوغ .

وأخيراً تشعر شخصية الطفل بمكوناتها، فتدير هذه المكوّنات وتوجيهها وحينئذ تشهد تضاماً ظاهراً بين هذه العناصر المكونة للشخصية بشكل لا تستطيع معه إحدى هذه العناصر الشروع في العمل إلا بعد أن تتنبه العناصر الأخرى، وتدل على وجودها إن كان لا بد من ذلك.

٥ — تربية الارادة

٢٠ — من كل ما تقدم نستنتج أن **الغاية المثلى لتربية الإرادة هي التحكم في النفس**. وهذه الفضيلة شرط لكل الفضائل الأخرى، نعم إنها **غير كافية**، ذلك لأني قد أصدر إلى نفسي أوامر جائرة، ولكني إذا لم أحصل عليها أكون خلواً من كل شيء. يجب — حين أشعر برغبات سيئة — أن أقدر على إيقاف نفسي بنفسي. لو كانت الطبيعة البشرية كاملة قدسية لأمكن التخلي عن فكرة التحكم بالنفس ولكنها مع الأسف ليست كذلك، وإن كان ذلك لا يعني أنها شريرة: إنها خليط، ولذلك فما من شخص يستطيع أن يدع نفسه للدوافع الغريزية دون التعرض لخطر الجور.

٢١ — **كيف يتعلم الطفل التحكم في النفس**؟ نلاحظ تباشير ذلك حوالي السنة الثالثة أو الرابعة: ففي هذا السن يمنع الطفل في أحيان نادرة رغبة في البكاء أو رغبة في الغضب الخ... وأعمال الضبط هذه على جانب من الأهمية عظيم: بواسطتها تخلق الارادة.

٢٢ — على أنه من الثابت أن **الطفل لا يمتنع من تلقاء نفسه** ولكنه يفعل ذلك لأنه مُنع فالضابط بالنسبة إليه هو المنع نفسه يقوم به والده بشدة كثيرة أو قليلة (كثيراً ما تقوّى هذه الشدة بالتهديد أو الجزاء) ففي الحين الذي يظهر فيه الدافع يعود المنع للظهور في نفس الطفل ويضبطه. وليس الأمر مختلفاً عند الراشدين أنفسهم، إذ كثيراً ما يوقفنا عن العمل **منع مصدره الخارج**: منع ديني أو أخلاقي أو اجتماعي (قانوني).

٢٣ — **وتوقع النتائج** يلعب دوره الهام ، فالناس يمتنعون عن كثير من الأعمال خشية المضايقات والآلام التي يخاطرون بجلبها على أنفسهم . وإذا صحّ أنه ليس معقولاً أن هذا التوقع كفيل بكبت كل الرغبات فانه صحيح أيضاً أن كثيراً من هذه الرغبات يكبت على هذه الصورة . وفكرة النتائج التي قد يجرها عملنا على الغير قد يكون لها التأثير نفسه ، وفي هذا الحال يكون المانع أخلاقياً .

إذن **فعمل الامتناع هو اولاً اثر بسيط للمنع الخارجي بقوة خوف العواقب .**

٢٤ — ولكننا **ننتقل الى منع أنفسنا** ، وهذا بالضبط يميزنا عن الطفل : يتعلم الواحد منا أن يكون رئيساً ومرؤوساً في وقت واحد ، فنحن نمنع عن أنفسنا هذا العمل كما قد يمنعه عنها الغير .

٢٥ — **ونتعلم بالتمرين عادة منع كل رغبة نمر** ، وتلك هي فضيلة امتلاك النفس ، فهناك بعض الناس الذين يكون ردّ فعلهم السريع على الشكل التالي : في اللحظة التي يشعرون فيها برغبة ما يضبطونها اولاً ثم ينظرون فيها ويصممون إما على السماح لها أو منعها بتاتاً . وهذه العادة هي ما ينقص (المندفعين) الذين لا يكادون يشعرون بدافع حتى يخضعوا له أولاً ثم ينظرون فيه فيندمون .

٢٦ — **وعادة الضبط** هذه هامة لدرجة يجب أن لا نتوانى معها عن **انمائها في طلابنا** . فالحياة مليئة بالظروف الواجب فيها امتلاك النفس ، فهناك الرغبات السيئة كما هناك الرغبات البريئة (**الشرهة**) التي نحسن صنعاً إذا روضنا إرادتنا على منعها من حين إلى آخر عاملين في هذا عمل راكب الدراجة الذي يختبر ضابط دراجته دونما حاجة ، ولكن للتأكد فقط . وفي الكلام ميدان واسع لعمل الارادة فلما أستفيد منه . يستشعر واحدنا رغبة للفظ كلمة بذيئة فما أجمل أن يضبط... أو يستشعر رغبة في إفشاء سر فما اعظم ان يسكت ... هذا ثمن

حسن الحديث وجودة الكتابة ، وبهذا الشكل يكون الانشاء تمريناً للارادة .

٢٧ — ولكن **يجب ان لا ننعدى الحدود** حين نجهد في امتلاك النفس ، فعادة الضبط قد تصبح سبباً للشلل ، وهكذا قد تؤدي ببعض الناس إلى القضاء على كل دوافعهم : إن هذا أكثر مما يلزم ، ويجب أن نحسب حساب **الطبيعة** . فالانسان الذي لا يقوم بعمل قبل ان يقف ويزن عمله ينقصه شيء من الطبيعية وقد يقضي على خير ينابيعه وأصفاها .

أما مع الطفل فالأمر لا يتوقف على الفرد فقط ، ولكن على **الظرف** ؛ ففي بعض الأحيان يكون من واجبنا تقوية ضبط النفس لا لا نخلق من الطفل (مندفعاً) وفي بعض الأحيان يجب ان تقوي فيه الحركة لا لا نخلق منه (خاملا) .

ومهما يكن من أمر فان تربية الارادة على نوعين :

١ — التربية غير المباشرة للارادة :

٢٨ — كل ما يساهم في نمو العضوية وزيادة اتزانها يساهم في تمرين الإرادة — فصلة الجسد والنفس قوية لدرجة ان ما يزيد القوة الجسدية يؤثر على حيوية الارادة . وهنا تتجلى قيمة الغذاء الجيد الكامل ، وملاحظة قواعد حفظ الصحة ، والتمارين الرياضية التي تتطلب برودة الدم والشجاعة والاقدام والمثابرة وحب النظام وروح الانضباط وعاطفة التضامن .

وهذه الصلة بين الجسد والارادة تفهمنا سبب ضرورة درس أسباب الكسل والاستغراق عند الأطفال .

٢٩ — كل ما يساهم في تربية العاطفة يساهم في تربية الإرادة — لا شيء يؤثر في تكوين الارادة تأثير مقاومة المغريات والدوافع ، وكالقيام ببعض الواجبات غير المستحبة . إن مكافحة الميول الخسيسة وكبت العواطف الدنيئة أعمال تقوي الارادة .

٣٠ — كل ما يساهم في تربية العقل يساهم في تربية الارادة : — المعرفة

قائد الارادة ، وكثيراً ما تكون أخطاء الارادة وضعفها ناشئة عن الجهل وقلة المحاكمة .

٣١ — **كل ما يساهم في تكوين العادات يساهم في تربية الارادة :** — العادات نتائج جهد وتحكم في النفس يسهل مهمة الارادة ، والحصول على عادة يسهل الحصول على أخرى .

٢ — التربية المباشرة للارادة

في تربية الارادة نلاحظ أمرين هامين : (١) تقوية الارادة
(٢) توجيهها نحو الخير .

(١) وسائل تقوية الارادة :

٣٢ - **تتبع مراحل نموها :** — يجب البدء بأعمال بسيطة سهلة ثم الانتقال إلى أعمال أكثر تعقيداً بصورة غير شاعرة . وفي هذا النمو يمكن أن نميز بين مراحل ثلاث :

الطفولة : وفيها تبنى بعض عادات أساسية : كالنظام ، والاعتناء ، والنظافة والسكوت ، وحسن السلوك التي تتلخص كلها في **الطاعة** .

دور المراهقة : وفيه تصطلح سلطة العلم وحرية الطالب .

سن الرشد : وفيه يتفهم الشاب معنى المسؤولية ويشعر بقيمة التأثير الذي يمكنه إحداثه على الآخرين بواسطة كلامه وأمثاله .

٣٣ — **معاملة كل طفل بحسب طبعه واستعداده :** تجب إثارة الكسالى والمتذمرين وضيّقي الصدور بالمنافسة والثواب والمديح واللجوء إلى العقل وعاطفة الشرف وفكرة الواجب . كما يجب التأثير على طبائع التلاميذ (القُلَّب) بأن نوحي إليهم روح الحزم والثبات وتقوية اعتقاداتهم وعاداتهم الحسنة .

أما بثّ الأمان والطمأنينة في نفوس المتردّدين ، فيكون بتنوير أذهانهم . ويجب الصبر في إصلاح العنيدين وإراءتهم سخف غرورهم .

٣٤ — **إفهام الطفل ضرورة الجهد** : — إفهامه بادئ بدء أن تكوين إرادته عمل شخصي ، وعليه هو أن ينجح في ذلك ، وأن ما من عمل عظيم يتمّ بدون تعب .

٣٥ — **ضبط المدرسة ضبطاً حسناً** : — فكل انضباط تعود فائدته على الارادة : القدومُ في الموعد المحدّد ، والصمت ، والمحافظة على النظام وحفظ الدروس الصعبة الخ ... مناسبات حسنة لتربية الارادة وتقويتها .

ويكمل هذا النوع من تربية الارادة بالانضباط والعقاب المناسب على الأخطاء .

٣٦ — **استثارة العاطفة** : — إعلام الطالب مزايا القيام بهذا العمل ومضار إهماله . تشجيعه على أن يريد لنفسه بنفسه ، وأن لا ييأس إذا لم يحصل على ما يريد حالاً ومن المرة الأولى ، واللجوء في هذا الصدد إلى الحسنى عوضاً عن التوبيخ لكسب القلوب ومسّ النفوس . فالعاطفة هي المحرك الأسمى للفاعلية ، لأن الفكرة لا تؤثر إلا بصورة غير مباشرة على الارادة ، أما العاطفة والميل فهما الأشد أثراً .

وأخيراً علينا أن نقوي ثقة الطفل بنفسه .

(٢) وسائل توجيه الارادة نحو الخير

٣٧ — **التعريف بالخير والتحبيب به والحثّ على القيام به** : أما التعريف بالخير ، فعن طريق التربية الخلقية ؛ وأما التحبيب به فعن طريق الإقناع الحسي والعلمي ؛ وأما فيما يتعلق بالعمل فهو يقوي الارادة التي تسهل العمل بدورها ، وهكذا تنحصر المسائل في تكوين العادات الحسنة (عقلية وأخلاقية) .

٣٨ — **دع الطفل فرصة الاقدام** : هيأ له أن يثق بنفسه ، وتجنب شدة

المراقبة ، احترم فرديته وميوله وقابلياته وليختر ما يناسبه وما يشتهي من ألعاب .

٣٩ – **عوّد الطلاب التفكير** : لأنه اختيار للأفكار يستخدم فيه الانتباه الذي هو قوة لا يستهان بها .

٤٠ – **كن القدوة والمثل الصالح للطفل** : ولا تنس أهمية سِيَر العظام .

مراجع البحث

١ – الأبراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصل التاسع

٢ – الجارم وأمين : الباب الخامس عشر

٣ – صليبا ـ جميل : الكتاب الرابع ، الفصل الثالث

٤ – عبد المسيح ورفاقها : الباب الخامس عشر

٥ – عطية الله ـ أحمد : ص ١٤٩ فما بعد

الفصل الثالث والعشرون

الشعور واللاشعور

تصميم البحث

آ - طبيعة الشعور

١ — معرفة مباشرة .

٢ — معرفة شخصية .

٣ — ذات صلة بشروط دماغية .

٤ — ذات صلة بتغيرات التوازن .

٥ — إما عفوي وإما تأملي .

ب — الحوادث النفسية اللاشعورية ودرجات الشعورية

١ = وجود تحقق لدرجات في الشعور .

١' = حالة الانتباه العميق .

٢' = إحساسات غير انتباهية .

٣' — إحساسات لا ندركها .

٤' — إحساسات لا يطالها الشعور كائنة ما كانت درجة انتباهنا .

٢ = الأنواع الرئيسية للحوادث اللاشعورية .

١' — حوادث سوية .

٢ — حالات غير سوية .

ج — وظيفة الحوادث المتصفة بشعور ضعيف

١ = تغيرات المزاج .

٢ = التصميمات الارادية .

٣ = العطف والنفور .

٤ = ميول الطبع العميقة .

د — الشعور واللاشعور في التربية

الشعور

اعتبر علم النفس الاتباعي طيلة زمن طويل أن الشعور هو الصفة العامة لكل حوادث النفس ، ولقد كانت (حالات الشعور) مرادفة للحوادث النفسية . وسنرى فيما يلي أن هذا الترادف مشكوك به على الأقل ، ولكن المسلم به هو أن **الشعور صفة عامة لكل الحوادث النفسية التي تتصف ببعض العمق أو تنفصل انفصالاً كافياً عما سبقها ويليها** .

وسنبدأ أولاً بدرس هذه الصفة الشعورية في الحوادث النفسية ، ثم الحالات التي تتناقص فيها : حالات تحت الشعور واللاشعور .

آ — طبيعة الشعور

١ — الشعور معرفة مباشرة ، أو كما يقال حدسية ، وهي مباشرة وعفوية إلى حدٍّ يصحّ معه استعمال كلمة « أحسّ » أكثر من « عَرَفَ » ، فأنا أحسّ مثلاً بأنني أتألم ، أحس بأني أفكر ، أحس بأني أقوم بجهد ، والشعور هو الذي يغيب في النوم الخالي مَن الأحلام .

٢ — وهو ، بالمعنى الدقيق ، **المعرفة المباشرة الوحيدة** عندما أرى شيئاً خارجياً يجب ان أقول — لكي اكون مضبوطاً — شعرت بأنني رأيت هذا الشيء شعرت بالاحساسات التي يثيرها فيّ هذا الشيء : أما الباقي فيستنتج ، اي انه يعرف بصورة غير مباشرة ، كما رأينا . عندما أذكر ماضيّ يجب ان اقول لكي اكون مضبوطاً : « اشعر بصورة ، افهمها على انها حادث ماضي » . عندما أبرهن برهاناً رياضياً اشعر بادراك وجود صلة . وهكذا فكل معرفة تعود إلى معرفة بواسطة الشعور .

٣ — وهذا النوع من المعرفة يتميز بأنه **شخصي محض** بمعنى ان الشخص الشاعر وحده يأخذ علماً بما يشعر به ، انا أحسّ ألمي ولكن ما من أحدٍ غيري

يحسه : يمكن للغير ان يحزره كما يمكنه نظراً لعطفه عليّ ان يشعر بما يشبهه ، اما ألمي فلا يحسه سواي .

٤ — وهذا هو السبب في تشبيه النفس البشرية بعالم مغلق ، إنها صومعة لا يدخلها احد ، وفي هذه الصومعة تظهر إحساسات وصور وافكار ورغائب ، ثم تغيب ، وانا وحدي والى الأبد مشاهد هذا المشهد .

٥ — وهذا هو ، بالتأكيد ، السبب الذي من اجله **يقال في بعض الأحيان (الشعور) عوضاً عن أن يقال (النفس)** . نسمع بعض الأحيان تعابير كالتالية : حادث ظهر في الشعور ، صورة خارج الشعور الخ ... وهذه ليست إلا طرائق للكلام يمكن ان نقبلها ، على ان لا نخدع بها ، وعلى ان نعلم انها مجازية ، وذلك لأن الشعور ليس إلا صفة اكثر **الحوادث النفسية** .

٦ — ويظهر ان **للشعور صلة بأوضاع الدماغ** : فوقف الدورة الدموية في الدماغ بواسطة الضغط على الشرايين التي تحمل الدم للدماغ ، او نفخ الهواء في هذه الشرايين تقضي على الشعور موقتاً ، ويحدث الأمر نفسه حين يتسمم الدماغ بالكلوروفورم او الأتير ، ولا يعني هذا ان الدماغ يخلق الشعور ، ولكنه يعني ان للشعور شرطاً لازماً هو سلامة الدماغ .

٧ — كما يظهر **ان الشعور يشترط نوعاً من التضاد بين الحوادث النفسية** ذاتها ، فلقد رأينا اننا غالباً ما نكف عن الاحساس بالانطباع المستمر المتشابه ، فاليد ، مثلاً ، التي تبقى غير متحركة على شيء ما ، تكف سريعاً عن الاحساس بملامسة هذا الشيء ، ويجب تحريكها للاحساس ثانية بهذا الشيء . إذن فالشعور — كما يظهر — صلة بتغيرات التوازن وتحولات التكيف التي يقوم بها الانسان نحو محيطه .

٨ — هناك انواع عديدة من الشعور ، ولكن يجب على الأقل التمييز بين نوعين منه ، وذلك لأهميتهما الخاصة وهما : **الشعور البسيط** (كثيراً ما يسمى الشعور العفوي ، وهي تسمية غامضة يجب إهمالها) . **والشعور التأملي** . أما

الشعور العفوي فهو الذي وصفناه سابقاً ، هو عمل الحس بما يمر في نفسي ؛ وأما الشعور التأملي ، فهو الانتباه الموجه نحو الحالة الداخلية ، ومن الواضح ان الشعور التأملي أقلّ حدوثاً بكثير من الشعور البسيط فنحن نحس كثيراً من الانطباعات دون ان نلاحظها ودون ان نفكر بأننا نحسها .

ب — الحوادث النفسية تحت الشعورية

٩ — (آ) وجود اكيد لدرجات في الشعور

طالما اختلف العلماء في المشكلة التالية : هل توجد حياة لا شعورية للنفس ؟ وقد كان **ليبنتز** اول من اعلن وجود هذه المناطق المظلمة في النفس ؛ اما اليوم فقد قبل العلماء اجمعين فكرة وجود درجات في الشعور تتدرج من النور الكامل إلى الظلام المطلق عملياً .

١٠ — (١) في القمة توجد الحالات التي يصل فيها الشعور إلى اقصاه من الوضوح وهذه هي **حالات الانتباه التحليلي** ، فاذا أصغيت مثلاً بانتباه عظيم إلى قطعة نثرية أهتمّ بها كثيراً ، شعرتُ بوضوح تامّ باحساساتي وأفكاري وبالجمل التي اسمع .

١١ — (٢) لنهبط درجة حيث نلقي **احساسات غير منتبهة** ، مع أنها شعورية ، ومثال ذلك ان امشي دون انتباه — وانا أتحدث — في الشوارع المزدحمة نسبياً : ارى عوائق أرى مركبات بالمقدار الذي يساعدني على تجنبها : إنها ومضات شعور يتبعها نسيان مباشر .

١٢ — (٣) ولنهبط درجة اخرى حيث نلقي **احساسات لا نلحظها** اي نفوتنا لأننا منهمكون في اشياء أخرى ، ولكننا نستطيع ان نلاحظها متى اردنا بتوجيه انتباهنا نحوها . وهذه الحالات هي الاعم ، ويمكن ان نسميها (لا شعوراً موقتاً) ، وخير مثال على ذلك جمجمة الطاحون بالنسبة للطحان او دقات ساعة الحائط التي لا اسمعها عادة والتي أستطيع سماعها متى اردت وبانتباه بسيط .

١٣ — (٤) اما في هذه الدرجة فتوجد **احساسات** او افكار أو رغبات

لا نشعر بها مهما وجهنا اليها من الانتباه ، ومثال ذلك المثل المشهور الذي اعطاه ليبنتز ، ألا وهو ضجيج البحر : فنحن رغماً عن كل جهودنا لا نستطيع تبين ضجيج كل موجة على حدة ، رغماً عن ان لكل موجة ضجيجاً خفيفاً ، وإلا لكان المجموع صفراً . وهناك مثل آخر هو مثل الذاكرة المؤلفة من مجموع الذكريات الغافية ، فما من جهد انتباهي يستطيع إراءتنا هذا العدد غير المحدود من الصور ، مع انها موجودة فينا .

١٤ — هذا المثل عن الذاكرة يسمح لنا بتحديد كلمتي (لا شعوري) و (تحت شعوري) اللتين لم نميز بينهما حتى الآن ، **فنحن نسمي مجموعة الذكريات** الغافية التي لا تمثل دوراً ما في الوقت الحاضر : (**لا شعورية**) ، **وذلك بمعنى سلبي محض ، ونحن نسمي** : (**تحت شعورية**) **الذكريات التي رغماً عن أنها غير مشعور بها ، تؤثر على تفكيرنا الشعوري** ، فهي مثلاً تملي علينا كلاماً ما ، او تساعدنا على معرفة اشخاص او مناظر او اشياء ، إذن فللمعنى هنا **سلبي ايجابي** في آنٍ واحد : سلبي لأنها غير شعورية ، وإيجابي لأنها موجودة تحت الشعور وإن كانت غير ملحوظة ، فالرغبة التي اجهلها ، والتي مع ذلك توجه سلوكي ، هي رغبة تحت شعورية . وهكذا فجمجمة الطاحون تحت شعورية للطحان النائم ، وذلك لأن انقطاعها يوقظه . وقل مثل هذا عن استيقاظنا صباحاً في الساعة المعينة ، ففكرة الاستيقاظ كانت إذن تحت شعورية لأنها ايقظتنا .

١٥ — إذن ففي مكنتنا — بكل تأكيد — ان نتكلم عن حياة لا شعورية ، وحياة تحت شعورية للنفس ، ولكن بشرط ضروري : وهو بقاء كلمتي (**لا شعورية**) و (**تحت شعورية**) **صفتين** . أما وجود اللاشعور ، فأمر ميتافيزيكي ممكن لا علاقة له بعلم النفس الايجابي .

(ب) الأنواع الرئيسية للحوادث اللاشعورية

١٦ — لقد رأينا أنه من الممكن وجود حوادث لا شعورية في كل فصول علم

النفس التي درسناها . هناك أعمال ورغبات وإحساسات وصور وأفكار ومحاكمات لا شعورية ، فتعدادها لا نهاية له ولا فائدة منه ، ولكن من الممكن تصنيفها تصنيفاً سريعاً في زمرتين رئيسيتين : الحوادث السوية والحوادث غير السوية (المرضية) .

١٧ — الحوادث السوية — وهي تنحصر بالأنواع المهمة الآتية :

العادة : وهي تنقل حوادث الشعور الواضح إلى الشعور غير الواضح أو الى اللاشعور ، وهذا هو الحال في القراءة والكتابة والسير الخ ... التي تبدأ شعورية انتباهية ، ثم تصبح لا شعورية : فأنا حين أقرأ لا ألحظ كل شيء ، فلا أميز كل الحروف والمقاطع والكلمات ، أو على الأقل لا ألحظ كل التفاصيل .

١٨ — تشتت الذهن (**الالتهاء**) أو الوجه الآخر للانتباه العميق الموجه إلى نقطة ما ، وهو سبب معروف من أسباب اللاشعور (سبب كثيراً ما يخلط بينه وبين العادة) : أخرج ساعتي لا شعورياً لأني أفكر في شيء آخر ، وأنا حين أكون منهمكاً في عمل ما لا أشعر بضجيج الشارع ، وحين أدخل في مناقشة حادة أتنزه دون أن ألحظ أني أصطدم بالمارة أو أني أتجنبهم وأني أرى الدرج وأصعده أو أنزله وحتى في بعض الأحيان دون أن ألحظ أني أقابل أحد معارفي وأحييه .

١٩ - والرغبة كثيراً ما تتطور تطوراً لا شعورياً ، كما رأينا ، فأنت حين تكبت رغبة بقولك « لن أخضع لهذه الرغبة » لا تقهرها لأنها تملي عليك أعمالاً وأقوالاً تجهل سببها أنت نفسك ، فكم من مرة يرى الانسان نفسه أمام بيت حبيبه دون أن يقصد إليه .

٢٠ — وفي حوادث **الايحاء** التي كثيراً ما تنسب إلى قوة خارجية سامية تمثل الأفكار والصور والكلمات واللهجة من تلقاء نفسها ، ودون اختيار شعوري ، مع أنه من المعلوم أن مثولها يحتاج إلى عمل توجيهي ، ولقد كان تحت شعوري بحت .

٢١ — وأخيراً **فالذاكرة** مملكة اللاشعور ، فنحن نحمل في نفوسنا في كل لحظة آلاف الذكريات التي لا نشعر بوجودها مطلقاً .

٢٢ — الحالات غير السوية — في كثير من الأمراض العصبية ، وخاصة فيما يسمى بـ (**الهستريا**) ، وهي حالات لا شعورية ، نجد أحسن وصف لها في كتابات بيير جانه Pièrre Janet ، وهاك أهمها :

٢٣ — **أنواع الشلل المسمى بالشلل الهستري** : يفقد ذراع المريض إحساسه حتى أنه إذا وُخز في ذراعه لم يشعر بشيء ، ومع ذلك فاذا سئل فيما بعد — وقد نوّم مغناطيسياً — ذكر أنه وُخز . وبديهي أن هذا الحادث لا يفسر إلا بقولنا : « لقد أحسّ لا شعورياً » .

٢٤ — **الكتابة الآلية** — يكتب المريض صفحات دون أن يشعر ، صفحات فيها عقل وعاطفة ، وإذا سُئل أنكر أن يكون هو الكاتب . وهذا العمل لا يفسر إلا بقولنا : « يكتب لا شعورياً » .

٢٥ — **الايحاء المعين وقت تنفيذه** : يطلب إلى شخص منوّم مغناطيسياً أن يقوم بعمل معين بعد وقتٍ محدّد من استيقاظه ، ثم يوقظ ، فاذا هو جاهل كل شيء يتعلق بالأمر ، ثم لا يكاد يحين الوقت حتى ينفذ الأمر الذي طلب إليه ؛ وهذا العمل لا يفسر إلا بقولنا « إن المنوّم قد حسب الوقت لا شعورياً » .

٢٦ — هذه حوادث لوحظت بشكل لا يدع مجالاً للشك في صحتها العلمية ؛ يبقى أن نشير إلى أن الأشخاص المهسترين كثيراً ما يغشون ، ولذلك يجب أن نكون يقظين حذرين في مثل هذه الأحوال .

د — وظيفة الحوادث المتصفة بشعور ضعيف

الحوادث المتصفة بشعور ضعيف أو بلا شعور أو تحت شعور تلعب في حياتنا العقلية دوراً هاماً .

٢٧ — إنها تفسر كثيراً من **تغيرات مزاجنا** ، فمزاجنا الحسن والسيء متعلقان بعددٍ كبيرٍ من الانطباعات الصماء التي لا نستطيع نحن أنفسنا معرفتها ، **فالانطباعات الغامضة للحياة العضوية** مثلاً هي من الانطباعات العظيمة التأثير : تمرُّ بنا بعض الأيام التي تكون فيها صحتنا على أحسن ما يرام ، فيكون مزاجنا بالمقابل على خير وجهٍ ، حتى أننا لا نعرف مصدر سعادتنا ؛ ونشاطنا يتوقف إلى حدٍّ بعيد على تعب جسمنا وعلى مقدار نومنا . هذا والانطباعات الغامضة للحياة الأخلاقية والاجتماعية تؤثر على مزاجنا وتكيفه : يكفينا مديح واحد لتحلو الحياة في نظرنا ، ويكفينا نجاح واحد لنتمنى الخير لجميع المخلوقات . وهكذا فعطف من حولنا أو مشاكساته تترجم بسعادتنا أو تعاستنا ؛ ولكننا مع ذلك لا نشعر إلا نادراً بهذه التغيرات العابرة التي تعيّن حالتنا الأخلاقية .

٢٨ — **والحوادث المتصفة بالشعور الضعيف تفسر كثيراً من أعمالنا وتصميماتنا الارادية** : كثيراً ما ندهش للحاول التي نتخذها ؛ ولكن تفسير ذلك أنها كانت تتهيأ في نفوسنا فكفت رغبة تحت شعورية لإمالة الميزان .

٢٩ — وهذه الحوادث **تفسر** قسماً كبيراً من **هنائنا وعطفنا وكراهيتنا** ، لماذا يجذبنا حالاً شخص نلقاه للمرة الأولى ؟ في أغلب الأحيان لا ندري السبب ولكن لو تمعنا قليلاً لرأينا أنه خلق فينا انطباعات مقبولة لذيذة ، أو أنه أثار فينا ذكريات عزيزة ، أو أنه يشبه شخصاً نحب ، أو أنه على الأقل واساطة تحرضنا على الكلام أو التفكير بمقدار من الحيوية كبير .

٣٠ — وأخيراً فان قسماً كبيراً من **طبائعنا** نفسها مكوّن من ميول تحت شعورية . يجب أن ندع جانباً الفكرة القائلة : بأنه من السهل أن يعرف الانسان نفسه ، والحق إن الانسان — إلا في حالات استثنائية نادرة — يجهل طبيعته الحقيقية جهلاً عميقاً ؛ صحيح أنه يعرف عن نفسه تفاصيل يجهلها ، ولكن هذه ليست إلا تفصيلات ، أو سمّها إن شئت : أسراراً صغيرةً ، أما الأساس فقد أفلت من يديه ، مع أن أصدقاءه قد يعرفونه .

وصعوبة معرفة النفس على درجتين : فهناك أولاً **خطر الكذب على النفس** وهناك **خطر الانخداع بالنفس** ، وذلك بسبب عدم الكفاءة للشعور ببعض العواطف المخبوءة أو الرغبات تحت الشعورية .

د — الشعور واللاشعور في التربية

٣١ — **اللاشعور النفسي والتربية : لا شيء يضيع في التربية** : فالكلام ، والأمثال ، والقراءات ، والزيارات ، والانطباعات الخ ... كلها تترك أثرها في نفس الطفل .

ونظرية اللاشعور النفسي يجب أن **تعزي المعلم** عندما يلمس نتائج عمله الظاهرة فقط . إنه سيرى في المستقبل البعيد نتائج كل ما زرع . وعلى هذا فليتبع المعلم الكمال ، إذ أن سموّ نفسه سيلقي صداه الكامل في إنهاض من حوله إلى الكمال .

٣٢ — **وجوب تعليم الطفل دراسة حوادث شعوره** : والواسطة الحسنة لهذا الأمر هي النظر في النفس وحوادثها (فحص النفس بالنفس) ، ودراسة هذه الحوادث تنحصر في استحضار الحادث إن أمكن ، وتحليله بكل تفاصيله وبالنظر لظروفه ، ثم استعادة النتائج الحاصلة بنية الشعور بها شعوراً تاماً ومناقشتها على ضوء هذه الشعور .

٣٣ — **أهمية تعويد الطفل التفكير** : ليس حسناً أن يغرق الطفل في التفكير ؛ ولكن عادة التفكير تؤدي خدمات جلى .

١) **تهيؤه للحياة الداخلية** ، الحياة العقلية والأخلاقية التي تكاد تكون معدومة عند الكثيرين . وهكذا يستطيع الانسان أن ينظر في أموره عوضاً عن أن ينساق لعواطف عابرة .

٢) **إنها تزيد شعوره بمزاياه ونقائصه** ، وتهيؤه لإتقان مهنته أو عمله في المستقبل .

٣) **تنمي فيه روح الدقة** : التي تمكنه من اكتشاف أفكار الغير وعواطفهم خلال حركاتهم وأوضاعهم وحركات سحنهم الخ ...

٣٤ — **وسائط تعويد الطفل التفكير** :

١) **طالب الطفل بالنظر في أعماله** : ليصف ما رأى وما أحسّ وما يفكر به ؛ وإذا كان قد أساء فليصف شعوره بعد هذه الاساءة ، وكل ذلك بأسلوب يشوقه ولا يأخذ شكل الاكراه .

٢ — **أعط الطفل فكرة ملاحظة رفقائه ومقارنة نفسه بهم** : إنه يفعل ذلك عفوياً في كثيرٍ من الأحيان ، فاستفدْ من ذلك ؛ ولكن حذارِ من التحاسد والبغض .

٣ — **ليلاحظ العالم** : مستفيداً مما يتعلمه في الدرس .

٤ — **استرعِ انتباهه** : ذلك لأن الالتهاء مانع من التفكير .

٥ — **خذْ بيد الطفل** في تفكيره ، ممهداً السبلَ أمامه ، مستثيراً اهتمامه مرشداً إياه .

٦ — **أفهمه قبل ان تعلمه** ، وذلك لأن الفهم واسطة التفكير الوحيدة .

٧ — **كل تعليم يجب ان يستهدف تنمية التفكير** ، وإلا فلا فائدة منه .

٨ — **استعمل الاستفهام بمهارة** : طريقة السؤال السقراطية ضرورية في هذا الصدد .

٩ — **استخدم الفعالية اللاشعورية للنفس** : يحدث في نفس الطفل عملٌ غامض في التنظيم ، على المعلم أن يعرفه ويوجهه . ولقد أعطى (هيمون) بعض قواعد عملية في هذا الصدد :

آ) أثر على عواطف الطفل العميقة **بأن تكرر الانطباع ذاته** « حب الخير مثلاً » .

ب) أثر على عادات الطفل ، وذلك **باعطائه المثل الصالح** في عاداته وسلوكه .

د) اعتمد إلى حد ما على **العمل اللاشعوري للعقل** .

مراجع البحث

١ — الأبراشي ورفاقه : الجزء الاول ، الفصل الثالث

٢ — الجارم وأمين : الباب الثالث

٣ — صليبا ـ جميل : الكتاب الأول ، الفصلان الخامس والسادس

٤ — عطية الله ـ أحمد : ص ٩ — ١٤

٥ — قنديل ـ أمين مرسى : الجزء الأول ، الفصلان الرابع والخامس

الفصل الرابع والعشرون

نظرة جامعة : الشخصية

الأنا والطبع

تصميم البحث

آ — الأنا

مشكلة وحدة كياننا المركب (الكثير الأجزاء) .

١ً — تفسير فيزيولوجي : نماء الجملة العصبية .

٢ً — تفسير بسيكولوجي : (١) الذاكرة .
(٢) الإرادة .

٣ً — تفسير اجتماعي : الانتقال من فكرة أنا الغير إلى فكرة أنانا .

٤ً — تفسير ميتافيزيكي : مامن شك في أن هناك قوة مركزية وحيدة . أمراض الشخصية وتغيراتها .

ب — الطبع

١ — ما هو الطبع ؟

سطوح عديدة متزايدة العمق :

١ً — طريقة تصرف قياسية . ٢ً — عادات . ٣ً — جبلّة (مزاج) .
٤ً — رغبة سائدة .

٢ — المؤثرات المكونة للطبع .

١ً — الجنس . ٢ً — الوراثة . ٣ً — الوسط الاجتماعي . ٤ً — الإرادة

م — شخصية الطفل وطبعه

د — نزعة الشخصية والطبع

الشخصية

بقي علينا أن ننظر نظرة **عامة** ، فنرى الكائن الأخلاقي المعقد أي الفرد كما تقدمه الحياة إلينا ، لأننا لا نصادف في الواقع أفكاراً وصوراً وعواطف ، ولكنا نصادف أشخاصاً .

ولكن **ما هو الشخص او الفرد ؟ إنه كائن له وحدته** التي تبقى هي نفسها من يوم إلى آخر ومن سنة إلى أخرى . هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى **هو كائن يتميز عن الآخرين** ، عن جيرانه وأشباهه .

وهذه الوحدة هي ما نسميها بالأنا ، وهذا التميز هو ما ندعوه بالطبع ولو استعنا بالجسد لاستطعنا إيضاح الأمر ، فلكل منا عضوية هي واحدة من جهة ، ولكن هذه العضوية تتميز عن العضويات الأخرى ، لأن لها سحنة خاصة من جهة أخرى . وقل الأمر نفسه عن النفوس .

آ — الأنا

١ — تقوم **مشكلة الأنا** بشكل بسيط : **ما دام من المسلم به كوني مكوناً من عناصر كثيرة** : أعضاء وخلايا من جهة ، ورغبات وصور وأفكار من جهة أخرى ، **فما مصدر اعتقادي بأني كائن فرد واحد** ؟ ومن أين يتأتى لي أن أشعر بأني أنا نفسي خلال الزمان ؟

علينا — إذن — أن نفسر وحدة شخصنا رغم تعدد العناصر التي تكونه .

هذا **وليس هنا موضع البحث عن هذه العناصر** وتعدادها ، فهي كل ما درسنا في فصول هذا الكتاب .

٢ — إنما يهمنا هنا أن نشير إلى أن **جسدنا هو قسم مما نسميه (أنانا)** .

ولو أردنا الضبط لقلنا : إن هذا الجسد يتراءى لنا على أنه طبيعة مزيجة : فهو من جهة أنانا ، وهو من جهة اخرى شيء من العالم الخارجي شأنه في ذلك شأن الشجرة أو المنصة . إنه تماماً وسط بين (الأنا) و (اللا أنا) .

إذن فكيف يتأتى أن تكوّن هذه العناصر المختلفة المتتالية المتغيرة شخصاً وحيداً اسمه (أنا) ؟

٣ — تفسير هذه الوحدة أمر معقد ، يجب لإدراكه أن نتخذ وجهات نظر مختلفة : عضوية ، بسيكولوجية ، اجتماعية وميتافيزيكية .

(١) يجب ان نبدأ بالتشديد على تكوّن الوحدة العضوية ، والفردية الجسمية ؛ فمليارات الخلايا التي توجد فينا تكوّن كائناً وحيداً ، فرداً ، عوضاً عن أن تكوّن مستعمرة بسيطة ، كما هو الحال عند الحيوانات الدنيا . وسبب ذلك راجع إلى نماء الجملة العصبية ، فهذه الجملة التي تكون بادئ بدء متفرقة ، تنتهي عند الحيوانات العليا بنوع من التمركز التام لوجود الدماغ والنخاع الشوكي ؛ فالدماغ مركز يصدر عنه وينتهي إليه كل ما له علاقة بأية خلية في الجسد .

٤ — ولكن هذه الوحدة المادية لا تقوم باكثر من تهيئة الوحدة المعنوية وهي كافية لخلقها .

(٢) أهم اسباب الوحدة المعنوية وظيفتان نفسيتان هما : الذاكرة والارادة .

فالذاكرة — بكل تأكيد — شرط وحدة الأنا ، فاذا اقتصرت على الحاضر — كما يحدث في بعض أمراض فقد الذاكرة — لم يبقَ الفرد نفسه ، ومتى أصيب الانسان بشيء من فقد الذاكرة ، اضطربت ذاكرته ، فينكر أعمالاً قام بها وينسبها إلى غيره ، وهذا ما يسبب انحلال الشخصية . وإنه لمن الحقق

كون فقد الذاكرة هذا ناشئ عن أسباب أعمق ، ولكن المحقق أيضاً أنها تحطم الشعور بالأنا .

٥ – وتشترك الذاكرة في خلق هذا الشعور على شطرين : فالفرد يعرف نفسه من يوم إلى آخر ، ومن عهدٍ إلى ثان ، فينسب إلى نفسه أعماله وعواطفه وأفكاره في العام الماضي – ثم ، وعلى الأخص ، يكوّن كل منا قصة لحياته تدريجياً متخذاً من صور الماضي مادة لهذه القصة التي تسير في الزمن بانتظام : وهذه القصة المستمرة هي التي تجعل من الانسان شخصاً واحداً ، بطلاً لقصته .

٦ – وتتعاون الإرادة مع الذاكرة ، فهي تعمل عملها الانتقائي الذي يعتبر جوهرها ، فالطفل الذي كان يستسلم بكليته لدوافعه من : غضب وخوف وجوع ورغبة الخ ... يبدأ بالمقاومة ، فيعتاد كبت بعضها ، ويتوصل بالتدريج إلى ضبط معظمها ، ومن هنا تنشأ الوحدة .

فالرغبات التي تكبت بصورة منوالية تنتهي بأن تصبح غريبة ؛ اما التي يسمح لها بالظهور فتكوّن مجموعاً يزداد تجانساً . وإذا كانت هناك رغبة اساسية مستحكمة يكون التمركز حولها . وأخيراً فإن عادة المراقبة تخلق نوعاً من الاثنينية : فمن جهة المبول المراقبة ، ومن جهة اخرى امرٌ يراقب . وهذا الأمر (وسنعود إلى الكلام عنه فيما بعد) يكون (انا) مركزياً حقيقياً معاكساً للرغبات نفسها .

٧ – والإرادة هامة ، باعتبارها منبع الشخصية ، لدرجة ان التمييز بين الأنا واللا انا متوقف على قدرتها ، فالانسان يسمى (لا انا) كل ما لا يقع تحت إرادته كالسماء والنجوم والأرض والناس الآخرين (الذين يطيعه بعضهم أحياناً والذين يستطيعون التمرد عليه كل حين) ، وهو يسمى (انا)

كل ما يخضع لارادته : جسده (هنا تحفظ سنشير إليه) ، تصميماته ، نواياه ، صوره ، أفكاره التي يستطيع — في الحالة السوية — إبعادها متى أراد .

٨ — **وهذا ما يفسر طبيعة الجسم المختلطة ، ذلك المظهر المزدوج الذي أشرنا إليه آنفاً** ، وفي الحقيقة **فجسدنا طيّع من جهة** : إنه يطيع إرادتنا فنستطيع أن نأمره بالتحرك أو التوقف فيطيع . **ولكنه يقاومنا من جهة اخرى** فلا نستطيع تغييره ولا نستطيع الافتراق عنه أو تجنبه كما نتجنب فكرة عارضة ، فهو إذن مطيع عاص في الوقت نفسه : **وهذا سبب كونه (انا) و(لا انا) في الوقت ذاته** .

٩ — **(٣) تأثير المحيط الاجتماعي** : أثر المحيط الاجتماعي على حياتنا العقلية معروف ، ويجري هذا التأثير على (الأنا) ويساهم في منحها الوحدة ، فالطفل يعيش مع أشباهه ، مع أبويه وإخوته وأخواته ورفاقه ، ويتعلم النظر إلى كل منهم ، على أنه شخص متميز ، فرد ؛ **انه يتعلم معرفة (انا) الغير** ، وبالتالي يرى نفسه بينهم كواحد من بينهم ، وهذا يعني ان فكرته عن نفسه متأثرة جزئياً ، بفكرته عن الغير ؛ كما أن فكرته عن الغير متأثرة ، جزئياً بشعوره بنفسه .

١٠ —(٤) وأخيراً فان من الواضح بأن كل هذه التفاسير تبقى ناقصة لو لم يكن هناك منذ البدء وقبل الحياة الاجتماعية وقبل الذاكرة وقبل الارادة **كائناً وعبداً وقوة مركزية ومنبعاً حياً لكل حياة عقلية** . **والواقع فإن ما نفسره هو كيفية تحكم هذه القوة** ، إذا كانت موجودة ، في العناصر العديدة للعضوية والنفس ؛ أما إذا لم تكن موجودة ، فان هذا الشعور يكون مستحيلاً ويكون الكلام عنه فارغاً لا معنى له . إذن فنحن هنا في نقطة حدود بين علم النفس وما وراء الطبيعة . فوجود الأنا ، الأنا التي تعرف ذاتها ، يدل بلا شك على وجود

حقيقي لقدرة نفسية روحية تحسّ ذاتها في جهدها الارادي ، وتبقى أثناء مرور الحوادث الدائم كالصور على الشاشة ، فالنفس هي المشاهد المنتبه غير المتحرك وقد يكون الخالد .

١١ — **امراض الشخصية وتغيراتها** : يميز عادةً بين أمراض الشعور بالأنا وأمراض الأنا ذاتها .

١) **امراض الشعور بالأنا** : كثيراً ما يحدث أن **تستولي فكرة ثابتة** عميقة على الأنا ، وحينئذ يمكننا أن نقول دون أن نخطئ — على حدّ تعبير ريبو — بأن هذه الفكرة هي الفرد ما دامت تحتل شعوره .

وفي أحيان أخرى يحدث الحادث المسمي **بانحلال الشخصية** فيكف الشخص عن معرفة نفسه في جسده وذكرياته ، وقد تضاعف هذه الأفكار معرفةٌ خاطئة للأنا أو استبدال الشخصية القديمة بشخصية جديدة .

١٢ — ٢) **امراض الشخصية** : ويميز عادة بين **تضاعف الشخصية الحادث في وقتين مختلفين** أو أوقات مختلفة ، **والتضاعف الحادث في وقت واحد** . في التضاعف الأول ينسى المريض حاضره وماضيه ، وينبثق من أعماق وجوده شعور جديد متصف بشكل من التمثل جديد .

أما التضاعف الحادث في الوقت نفسه فهو عبارة عن وجود عملين (وظيفتين) متمايزين : واحد تشعر الأنا به ، والآخر لا تشعر به ؛ إنما تنسبه لكائنات غير مرئية ، ويحدث ذلك في الوقت نفسه .

هذا وإنه من المؤكد ، في هذا الحادث وفي سابقه ، عدم وجود انقسام للأنا السوية ، وكل ما في الأمر تفتح لأنا جديدة ، كما أنه من المؤكد بأن كل التضاعفات الحادثة في الوقت نفسه يمكن تفسيرها بالآلية ، فهي لا تتعلق بالارادة وهي تبرهن على وجود الحوادث اللاشعورية في أعماق نفوسنا ، وهي — اخيراً — لا تبرهن ابداً على وجود شخصيتين .

ب — الطبع

١٣ — **يخلص علم النفس بكامله إلى مشكلة الطبع** ، ففي الحياة الاجتماعية اليومية تواجهنا **المشكلة البسيكولوجية** على الشكل التالي : **معرفة طبائع الناس** . والواقع ان هذا ما يهم الناس لأن ما ينتظرونه من الغير او يخافونه منهم متصل بهذه المعرفة . فما هو الطبع ؟ وما هي المؤثرات التي تكوّنه ؟

١ — ما هو الطبع

١٤ — لمعرفة ماهية الطبع **يجب أن ندرسه كما تقدمه لنا الحياة اي بواسطة سطوح بتزايد عمقها** : ففي الذين يحيطون بنا نرى سطحاً ما ، ولكننا نستطيع أن نتعمق إلى سطوح أبعد غوراً . فلنقم بدراستنا إذن مبتدئين بالسطوح الظاهرة متعمقين إلى السطوح العميقة ، شأننا في ذلك شأن ما يجري في الحياة .

(١) نرى في **السطح الأول نوعاً خاصاً من التصرف تجاه الأوضاع** : فلان مثلاً تأخذه الخيلاء إذا سمع مديحاً ، اما الآخر فيحمر ويرتبك خجلاً .

هذا ما نراه أولاً ، **وهذا النوع من التصرف على شيء من النظام القياسي** — **نسبياً** — **يسمح لنا بالتنبؤ** . فأنا استطيع مثلاً ان اتنبأ ، بشيء كثير من الصدق ، عن تصرف صديقي تجاه الوضع الفلاني .

١٥ — (٢) وإذا **تعمقنا** اكتشفنا **اسباب هذا النظام** ، وثبات التصرف هذا : إن هذه الأسباب هي **العادات** وهي بالتأكيد **إحدى عناصر الطبع الهامة** . فلان مثلاً عنده عادة الكذب ، وهي جزء هام من طبعه ؛ اما فلان الآخر فعنده عادة الاخلاص المندفع ؛ وفلان الثالث عنده عادة الوقاحة الخ .. وهذه العادات تحدد الطبع .

١٦ — **هل هذه العادات جماع الطبع ؟ كلا لأنه يبقى ، من جهة ، ان**

نعرف ما إذا كانت هذه العادات نفسها قد حصل عليها الفرد لأن له طبيعة ما ؛ ومهما جربنا افرى يصدف ان يكون تحت العادات وانواع الحياة النظامية والحركات الآلية ، شخصية لم يشعر بها حتى الأقربون ، وقد تظهر فجأة بسبب صدمة نفسية أو حادث ما .

١٧ — (٣) يجب إذن ان نهبط إلى سطح ثالث حيث نجد الجبلة (المزاج) اي الفردية العضوية ، توازن وظائف الجسد او سيادة بعضها . وهنا ، في العضوية ، كثيراً ما يكتشف منبع العادات التي يتصف بها الفرد ، فاذا كان الانسان ، عادة ، حماسياً او بارداً ، مجازفاً او هادئاً الخ .. فسبب ذلك ، بدون شك ، الجبلة ، اي قوة الجسد او ضعفه ، قدرته او عجزه .

١٨ — ومن المعلوم ان القدماء قد ميزوا بين امزجة مختلفة : الدموي ، اللنفاوي ، الصفراوي ، السوداوي ، العصبي ، العضلي .

١٩ — (٤) هل يجب أن نقف ؟ طبعاً لا ! لأننا كثيراً ما نرى أناساً لا يقبلون امزجتهم ويجهدون طوال حياتهم نحو هدف لم نعينه لهم طبيعتهم العضوية . نعم إنهم يفشلون ويتألمون ، ولكن هذه مسألة أخرى لا تغير في الأمر شيئاً إذ اننا نجهلهم إذا اقتصرنا على معرفة مزاجهم .

٢٠ — إذن فهناك ما هو اعمق : هو اصل الانسان الرئيسي ، علوه السامي ، او قل هو مثله الأعلى . ونحن نصل الأعماق حينما نصل هذا السطح ، فمثل فلان الأعلى الثروة ، اما الآخر فالعظمة ، واما الثالث فالمجد ، واما الرابع فالسلطة ، واما الخامس فالحب ، واما السادس فالفضيلة والتضحية الخ ...

فعلى اساس الطبع توجد الرغبة التي نطلب تحقيقها لو كانت [العصا السحرية] او [خاتم المارد] في متناول يدنا .

٢ — المؤثرات التي تكوّن الطبع

٢١ — هذه العادات وهذا المزاج وهذه الرغبة العميقة مصدرها اسباب معقدة نذكّر بأهمها :

(١) **الجنس او كونّا بشر** : فهذا يعين اساساً للطبيعة البشرية ثابت مهما اختلف .

٢٢ — (٢) ثم **الوراثة** اي انتقال مزاج الأسلاف وبعض عاداتهم إلى الخلف ؛ فأنت حين تعرف شخصاً ما وتعرف عائلته جيداً تجد فيه غالباً أباً او أماً او جداً (قريباً او بعيداً) يعود للحياة ، ودليل ذلك واضح في السحنة .

٢٣ - (٣) **الوسط الاجتماعي** : ذلك الوسط الذي ننجم فيه والذي يساعد في خلق وحدتنا ويؤثر فينا وفي طبعنا تأثيراً لا نستطيع قياسه ، **فالتربية** والعادات الاجتماعية (**العرف**) **والرأي** (مجموع اعتقادات الجماعة التي نعيش فيها) **والتقليد** ، ادوات يستعين بها المحيط على طبعنا بطابعه إلى درجة عظيمة جداً .

٢٤ — (٤) **والارادة** نفسها ، رغم كل الشباك التي تحيط بها ، تستطيع ان تغير طبعنا او تخلقه . إنها ، كما نعلم ، قدرة إيقاف وضبط ومقاومة ، فهي لذلك تستطيع — بجهد كاف — كبت بعض الميول والسماح لبعضها ، ولذلك ما أريد ان اكونه لا يقل اهمية عما انا بالطبيعة .

٢٥ - **وهنا محل مشكلة طالما اصطدم فيها النفاس : مشكلة الحرية** فنحن — **حتى حين نناضل ضد طبيعتنا** — **ألسنا نكون تحت تأثير ميول ونزعات اننا هي نفسها عن طريق الوراثة أو المحيط** ، وليست متعلقة بنا ؟ وجهد الارادة الذي أناضل فيه نفسي ، اليس ، هو نفسه ، محدوداً او مستحيلاً عند البعض ، ولا يمكن تفاديه عند الآخرين ؟

ليس علينا ان نعالج هذا المشكل هنا ، لأنه ليس نفسياً ، ولا تمكّن ملاحظة الحوادث من حله .

٢٦ — وكل ما نستطيع قوله اننا **لو اقتصرنا على استشارة الذوق السليم** اي عاطفتنا المباشرة وشعورنا في وقت الحادث **لرأينا لاستحالة الشك : اننا نشعر شعوراً عميقاً بأننا السبب الحقيقي لحركاتنا** . اما إنكار الحرية فقد كان لأسباب منطقية ، واسباب طريقة عامة ، فيقول المنكرون : « لا نفهم الحرية ، إذن ننكرها » ؛ اما الذوق السليم وبعض كبار الفلاسفة وفيهم ديكارت فيجيبون : « رغماً عن اني لا افهم فأنا لا انكر ، لأنه من السهل كثيراً ان افسر سبب وجود اشياء لا افهمها » .

٥ — شخصية الطفل وطبعه

٢٧ — يشعر الطفل بشخصيته قبل ان يقول (انا) ، او قبل ان يتكلم بصيغة المتكلم وهو في اول الأمر يشعر بوجوده بشكل غامض ، ولكنه يدرس جسده بواسطة الاحساسات اللمسية والعضلية ويشعر بذاته ككلٍ مادي ؛ ثم يبدأ الإحساس بالأنا .

٢٨ — ويرى الدكتور جميل صليبا (١) ان الأمر يجري كما يلي : « الغالب على الظن ان الطفل **لا يشعر بشخصيته شعوراً واضحاً** ولا يعرف انه فرد مستقل عن العالم الخارجي وعن الأفراد الآخرين ... على ان الطفل لا يلبث ان يكتسب هذا الشعور وهذه المعرفة بالشخصية شيئاً فشيئاً ... نعم إن هذا الشعور مبهم ، ولكن الطفل يقتبسه عن تجاربه وحياته ، فيربي نفسه بنفسه ، ويتوصل شيئاً فشيئاً إلى معرفة شخصيته . ولكن كيف تتكون الشخصية عند الطفل ؟ إن **شخصية الطفل تشتمل في البدء على النفس والجسد معاً** ... ويميز الطفل جسده من الأجسام الأخرى لأسباب عديدة ، منها : ان الجسد يؤلف جملةً من

(١) علم النفس ، الفصل الخامس ، ص ٣٨٠ - ٣٨٢ .

الاحساسات الحاضرة ، وإنه واسطة بيننا وبين العالم الخارجي ، وإن إحساسنا به مضاعف ، وإنه أقل مقاومة لارادتنا من الأجسام الخارجية .

ثم إن الجسد مركز **الأحوال الانفعالية** من لذة وألم ، إذا خمشت بالدبوس خمشاً بسيطاً تألمت ، وإذا لطمت على رأسك شعرت بوجع شديد ، فأنت إنما تتألم وتتلذذ بجسدك قبل كل شيء ، ثم تنتقل من معرفة الجسد إلى الشعور بالشخصية وحدها ، لأن الجسد لا يفارق الأحوال الانفعالية ، وهي تؤثر في الأفكار والرغائب وغيرها ، حتى قيل إنها النواة التي يبنى عليها تصور الشخصية .

ثم إن هذا التصور يزداد وضوحاً **بتأثير الفاعلية** . كلما تحركت العضلات صادفت في طريقها عقبات تعوقها عن العمل ، فتشتد وتتوتر للتغلب عليها . إن هذه العوائق الخارجية تعارض حركاتنا الغريزية ، فيتولد من هذه المعارضة شعور بالشخصي والخارجي ، ويؤدي هذا التضاد بين الأنا واللا أنا إلى توليد فكرة الشخصية .

والطفل مغرم بنفسه **مفتون بفاعليته** ، فيسره أن يبدل ما يحيط به من الأشياء فيقربها أو يبعدها ... وتلذذ الطفل بذلك دليل على أنه يحب أن يكون سبباً ... إن هذه المشاغل ليست ألعاباً بسيطة ، بل تجارب يتعوّد بها الطفل أن يصبح سبباً مؤثراً شاعراً باستقلاله عن غيره .

ثم إن الطفل يفرق بين نفسه وجسده كما فرّق بين جسده والأجسام الأخرى ، فيشعر أن جسده محسوس وأنه ذو امتداد على عكس السرور والحزن والرغبة والارادة والحلم وغير ذلك من الأحوال النفسية العارية عن الامتداد . ثم يشعر أيضاً أن الاحساسات التي يتركب منها جسده مباينة لهذه الأحوال النفسية من حيث أنها أكثر منها ثبوتاً ومقاومة وأقل خضوعاً للارادة ...

لا يتوصل الإنسان إلى شعور تام بشخصيته إلا حين يجرد نفسه من جسده .

ولا يزال هـذا التجريد يقوى حتى تصبح الشخصية ذاتاً مجردة متحققة الوجود وتسمى إذ ذاك بالأنية » . اه

٢٩ — وتظهر شخصية الطفل ، منذ سنيها الأولى ، بحساسية كبيرة باللوم ، وبعواطف الكبرياء والغيرة ، والعطف والتعاون ؛ وبغريزة التملك والميل إلى البناء .

ثم يصبح خياله مبدعاً : فيقرن به كلمات وصوراً ؛ وتبدو عنده تباشير التركيب ؛ ويميل إلى تمثيل الأشخاص والحيوانات والأشياء .

ثم تتكوّن شخصيته رويداً رويداً بواسطة التربية العائلية ، والصلات مع أشباهه من الأطفال ، وتأثير المدرسة ، والحصول على العادات والخِبَر ، وطرق التفكير والتصرف .

وعندما يشارف سنّ الرشد نلاحظ عنده إحساسات بشخصيته أكثر تعقيداً وأعظم سمواً ، كما نستشعر عنده حيوية هيأها لمواجهة العالم الخارجي ؛ « فالمراهق يغوص على ذاته (شخصيته) ويستمد منها قوى يجر بها في كل اتجاه ، وكأنه يريد إثبات هذه الذات إزاء الناس والأشياء كما يريد الارتفاع بهذه الذات إلى عالم أسمى » (دولا فيسيير) .

٣٠ — أما فيما يتعلق بطبع الطفل فلعلّ أول ما يجب أن يقال بأن للطفل بصورة عامة ، **طبعه الخاص به** ، وليس الطفل بحال من الأحوال (مختصر رجل) كما كان يظن . ثم إن **لكل طفل طبعه الخاص** الذي يتجلى منذ الشهور الأولى لحياته والذي يميزه عن غيره : فهذا طفل حادّ الاحساس كثير البكاء ، نفور ، كثير الحرد ؛ وذاك وديع ، أليف ، خجول الخ ... والأمر نفسه صحيح فيما يتعلق بالأمور العقلية ، فالذاكرة مختلفة من طفل إلى آخر ؛ والخيال متباين القوة بين أخ وأخيه : هذا نبيه وذاك شرود الخ ... وقل الشيء ذاته عن الارادة فهذا الطفل قوي الارادة ، وذاك عنيد ، والثالث ضعيف الارادة ، والرابع متردّد الخ ...

وهذه المجموعة من الصفات الابتدائية تكوّن ما يسمى بالطبع الموروث وهي نقطة البدء في كل التطور المستقبل للكائن ، وهي كل شيء بالنسبة لبعض الأطفال ، ولكنها القاعدة بالنسبة للآخرين ، ولذلك كان من المهم أن يتعرف المربي على طبائع الطفل ليكيف طرقه مع ما يناسب هذه الطبائع .

٣١ — **وفي بعض الأحيان يغير الأطفال طباعهم فجأة** ، وقد تكون الأزمة ، في بعض الأحيان ، مرتبطة بتغير في الحياة ؛ وفي أحيان أخرى تتوافق مع دور من أدوار النموّ الجسدي . ويلاحظ بصورة عامة أن طاعة الأطفال تقل حوالى الثامنة كما يقل إحساسهم بالتوبيخ ويزداد عنفهم وتأخذ الخطوط الأساسية لطباعهم بالاتضاح السريع . ولكن **الأزمة الكبرى** تحدث حوالى الثالثة عشرة أي في وقت البلوغ فيتألم الطفل المهتاج الثائر بسبب حاجته الملحة إلى الحرية ويشعر باضطراب نفسيّ سوداويّ وضغطٍ عاطفيّ لا يحسن استعماله . وهذه الأزمة هامة جداً في تكوّن الطبع ولا نبالغ إذا قلنا إنها أهم حدث في حياة الطفل .

وأياً ما كان فان واجب المربي أن يذكر **صلة الجسد الوثيقة بالطبع** وقد تكفي المداواة الجسدية في تقويم ما اعوجّ من طبع الطفل .

د — تربية الشخصية والطبع

٣٢ — **يجب ان تكون التربية فردية** : فانه لخطأ فادح أن نحاول صبّ شخصيات الأطفال وطباعهم في قالب واحد ، وإنه لواجب محتوم أن نعترف لكل فرد بحقه في أن يكون كما هو ، ولذلك وجب أن يكون التعليم فردياً ، وأن تتنوّع طرق التربية بتنوّع الأفراد .

ومن هنا كان من واجب المعلم أن يأخذ قابليات الأطفال الخاصة ومواهبهم

الفردية وإمكانياتهم الشخصية بعين الاعتبار ، وأن يعمل على تنشيطها وتوجيهها واستغلالها . وهذا لا يعني أبداً المبالغة والتخصص المبكر .

٣٣ – **وجوب احترام شخصية الطفل** : من واجب المربي أن يحترم شخصية الطفل فلا يهينه ولا يرهقه ولا يعامله بخشونة ، ولا يقسره على أعمال لا داعي لها وليس في إمكانه تأديتها ، عليه أن يتوجه بالخطاب إلى ذكائه وعقله وخلقه ويدفعه إلى العمل بملء إرادته وبديهي أن هذا الاحترام لا يعني مطلقاً ترك حبل الطفل على غاربه وإعفائه من كل نظام وانضباط .

٣٤ – **وجوب اللجوء الى المناهج الفعالة في تنشئة الشخصية** : تثير المناهج الفعالة الفعالية العقلية عند الطفل وتوجهها ، وتوقظ انتباهه ، وتستثير فضوله وتدفع به إلى التفكير ، وتجعل العمل أكثر جاذبية وفائدة . إنها تعود الطفل الملاحظة المنتبهة الدقيقة الطرائقية ، وتدفع به إلى التفكير الشخصي . ومن هذا كله تظهر أهميتها الفائقة في تربية الشخصية والطبع .

٣٥ – **وجوب العناية بالتربية البدنية** : رأينا أن الجسد دعامة هامة من دعائم الشخصية ، وسبب هام من أسباب الطبع ، ولذلك كان لا بد من العناية في تربية الشخصية والطبع ، بتربية الجسد والرياضة البدنية ، فالصحة الجيدة دعامة كبيرة من دعائم الشخصية القوية والطبع الهادئ المتزن ، وقد تكفي مداواة الجسد لشفاء الغضوبين والسوداويين الخ ...

٣٦ – **وجوب تربية العواطف** : عواطف الفرد عنصر هام من عناصر شخصيته ، ولذلك كانت تربية العواطف أحد أركان تربية الشخصية والطبع ، فالعاطفة السامية شرط الطبع النبيل والشخصية الممتازة التي لا بد في الحصول عليها من محاربة الأنانية والطمع والأثرة وغيرها من العواطف الخسيسة والميول الدنيئة والأهواء المنحطة .

٣٧ – **أهمية تربية العقل** : أما أهمية التربية العقلية في تربية الشخصية والطبع فما لا يحتاج إلى الاطالة والشرح إذ أن العقل أهم أسس الشخصية وأعظم مقوماتها

وأكبر العوامل في توجيهها وتنشئتها ، ولذلك فكل تربية عقلية تربية للشخصية ما في ذلك من شك .

٣٨ – **أهمية تربية الارادة** : نستطيع أن نقول دون أن نخشى تهمة المبالغة بأن الارادة هي الطبع والشخصية ، فقوة الارادة هي شرط عظم الشخصية وامتياز الطبع ، ولذلك فكل ما قلناه عن تربية الارادة صحيح في تربية الشخصية .

٣٩ – **وجوب تكوين العادات الجيدة** : فالعادات هي التي تكوّن الطبع وهي التي تدل على الشخصية ، حتى لقد قيل إن الطبع هو مجموعة عادات لها محور إرادي . فالفضيلة والعادات الأخلاقية مترادفان .

٤٠ – **التربية الأخلاقية غاية جدا في تربية الشخصية** : كل أنواع التربية التي أشرنا إليها : عقلية وعاطفية وإرادية وبدنية ، لا قيمة لها إذا لم تتوّجها التربية الأخلاقية في تنشئة الشخصية ؛ الخلق الطيب والفضيلة العملية والمثل الأخلاقية العليا زينة كل شخصية وأنبل ما في كل طبع .

٤١ – **الانسجام والمرونة** : وختاماً فكل ما قلناه لا قيمة له ولا وزن إذا لم يتوفر للشخصية الانسجام اللازم والتناسق الضروري والاتزان الواجب ، انسجام العقل والعاطفة والعمل ، وتناسق الميول والأهواء والرغبات ، واتزان الصفات والمواهب والمثل .

مراجع البحث

١ – الأبراشي ورفاقه : الجزء الثالث ، الفصل الحادي عشر
٢ – الجارم وأمين : الباب السابع عشر
٣ – خلف الله – محمد : الجزء الثاني ، الفصل الخامس
٤ – خليل – نظمي : الفصل الثالث
٥ – صليبا – جميل : الكتاب الثالث ، الفصل الخامس

الفصل الخامس والعشرون

الوراثة

تصميم البحث

آ – الوراثة

مجموع الصفات الكامنة في البيضة الملقحة .
الحيوان المنوي . البيضة .
مندل وعمله .

ب – قوانين الوراثة

١ – النظير ميال لولادة نظيره .
٢ – الاختلاف موجود دائماً . قوانين الاختلاف :
(١) منحنى الصدفة .
(٢) قانون التناقص .

ء – الوراثة الاجتماعية

الوراثة والمحيط عاملان متكاملان متناسبان .
لا تستطيع التربية العمل إلا في حيل بعينه .

آ – الوراثة

١ — لا يستغني طالب علم النفس عامة ، وعلم النفس التربوي خاصة ، عن الالمام بمبحث الوراثة ، لأهميته الفائقة في التعريف بالكائن البشري وخطره العظيم في عملية التربية . ولا بد للمعلم من دراسة الوراثة والاطلاع على قوانينها والاهتداء بمكتشفاتها في عمله التربوي . ولقد عرف المعلم فيما مضى ، وبخبرته الخاصة ، أن بعض الطلاب أذكياء بفطرتهم ، وبعضهم أغبياء بطبيعتهم ؛ بعض الأطفال ميالون إلى الموسيقى فطرياً ، وبعضهم لغويون طبيعياً ؛ ولكن جمهرة الناس لا تعرف هذا ولا تقرّ به ، بل تعزو كل نقص للمعلم وتتهمه بالقصور في كل مناسبة وتلومه عوضاً عن الطبيعة .

٢ — وإذا أردنا أن نتفهم الوراثة ، كان علينا أن نعود بالمخلوق البشري إلى أدوار نشوئه الأولى ، وحينئذ نرى أن الانسان تبدأ حياته بحجيرة اسمها (**البيضة الملقحة**) تكوّنت من إلتقاء (**الحيوان المنوي**) الذي يفرزه الذكر بـ (**البييضة**) التي تفرزها الانثى . وفي البيضة الملقحة تكمن كل الصفات العقلية والخلقية والعاطفية والجسدية التي ستتجلى في المولود الجديد . وهكذا يتقرر ما إذا كان المخلوق الجديد سيكون ذكراً أو أنثى ، قصيراً أو طويلاً ، أسود العينين أو أزرقهما ، ذكياً أو غبياً الخ ...

وعلى هذا أصبح في مكنتنا تعريف الوراثة بما يلي : **مجموع الصفات الكامنة في البيضة الملقحة** .

٣ – **أما المحيط فليس إلا مساعداً للوراثة** ، إنه يقرر الصفات التي ستنمو ومبلغ نموّها ، وهكذا فالوراثة هي العنصر الثابت في الفرد والمحيط هو العنصر المتبدل ؛ فتحسن محيط الفرد يستتلي نموّ صفاته الموروثة الكامنة فيه . ولعل من واجبنا أن نشير إلى أن أثر المحيط لا ينتقل إلى النسل الجديد ، أو على

الأقل لا ينتقل إلى الأجيال القادمة المباشرة ، وإذا أثر فربما كان أثره في الأجيال القادمة البعيدة .

٤ — والنتيجة المحتومة لما قلنا هي أن **التربية** — وهي عاملٌ محيطيٌّ — **محدودة الأثر تقتصر على الفرد نفسه** ، ولا تتعداه إلى أجياله القادمة ، رغم كل ما لها من عظيم الأثر وكبير الفائدة . ومعنى هذا أن على المعلم أن يقبل أطفاله كما هم ، ويفهم أن عمله محصور في تبين قابلياتهم والكشف عن مواهبهم الفطرية ثم محاولة استغلالها وتنشيطها على قدر الامكان .

ومعناه بعد ذلك أن على المعلم أن يعيد العمل مع كل جيل جديد ، وفي هذا عناء كثير وعائدة قليلة ؛ ولكنه ككل أمرٍ آخر لا يخلو من عزاء هو إن امتناع انتقال آثار التربية الحسنة الرشيدة إلى الجيل القادم يرافقه امتناع انتقال آثار التربية الفاسدة أيضاً .

٥ — ولا بد — قبل المضيّ في بحث الوراثة — من التنويه بأبحاث (**مندل**) القيمة سنة ١٨٦٦ وما كان لها من الأثر العميق في تنوير الأذهان وفتح الآفاق الجديدة في هذه الأبحاث ، فقد نشر في هذا العام أبحاثاً عن عددٍ من التجارب التي أجراها على بذور الأزهار في حديقة الدير الذي كان يرأسه ، ولكن هذه الأبحاث بقيت مهملة حوالى ثلث القرن ، أي حتى مطلع هذا القرن . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه القوانين عماد الدراسات البيولوجية كلها ، وانتقلت من النباتات إلى الحيوانات السريعة التوالد : كالفيران والجرذان والأرانب ، ثم تعدتها إلى الانسان نفسه .

٥ — قوانين الوراثة

٦ — (١) **النظير مبال لولادة نظيره** : وهذا هو القانون المهم الأول من قوانين الوراثة ، فالمواليد الجديدة تشابه نوعها وأبويها أكثر مما تشابه الأنواع الأخرى أو باقي الآباء . وهذا القانون صحيح في الصفات العامة صحته في الأوصاف

الخاصة والتفاصيل والتشابه بين الأبناء والآباء سببه بقاء الجرمبلازما Germ-Plasm — الجزء الهام من جوهر الأبوين الذي لا يموت بموتهم بل يخلد في نسلهم — وطريقة عمل الجهاز الوراثي . وقد ثبت أن الجرمبلازما الموجودة في حجيرة الأبوين التناسلية لا تستهلك كلها في بناء جسد المولود الجديد بل يحفظ قسم منها غير متغير لتكوين حجيرات التناسل في الجيل التالي .

٧ — والواقع أن حجيرات التناسل التي يشتق عنها الجيل التالي تنفصل عن باقي الجسد في دور مبكر من النموّ الجنيني . وبهذا المعنى يكون **الوالد والولد من عمر واحد ، كما يكونان أخوين من والدتين مختلفتين .**

ولا نظنا بحاجة إلى الافاضة في البرهنة على صحة هذا القانون فالأمثلة أكثر من أن تحصى والشبه ملحوظ جسدياً وعقلياً وعاطفياً ، في المواهب والاستعدادات والميول والأمزجة ، ويكفي أن نلتفت حولنا لنرى الأمثلة التي لا تحصى . وقد أدت دراسة بعض العائلات إلى بعض النتائج الهامة ، ومنها أن الصفات العقلية الممتازة والمنحطة تورث عائلياً . وهاك الآن بعض الامثلة :

(ماكس جوكس) صياد متنقل تزوج فرزق أولاداً ، تزوج اثنان منهم بأختين من عائلة منحطة عقلياً وأخلاقياً ، ولهاتين الاختين أخوات أربعة دُرس نسل ثلاثة منهن مع نسل الاختين السابقتين ، وقد بلغ عدد المدروسين (٢٨٢٠) شخصاً ، كان فيهم ٣٦٦ متسولاً و ١٧١ مجرماً و ٢٨٢ سكيراً و ٢٧٧ مومساً وقُتل منهم ١٠ ونجح في المدرسة ٦٢ وبلغ الدرجة المتوسطة ٢٨٨ منهم ورسب في صفه مرة أو مرتين أو أكثر ٤٥٢ منهم ، وكلف كل هؤلاء خزينة الولايات المتحدة ٢٠٩٣٦٨٥ دولاراً .

وتزوج (رتشرد ادوردس) من (اليزابت توئل) الحادة الذكاء ، فكانت جدة الفيلسوف المشهور ورئيس جامعة برنستون (جوناثان ادوردس) الذي بلغ نسله حتى عام ١٩٠٠ (١٣٩٤) شخصاً فيهم ١٣ رئيس جامعة و ٢٩٥ خريج جامعة و ٦٥ أستاذ جامعة و ٦٠ طبيباً و ١٠٠ قسيس و ٧٥ ضابطاً و ٦٠ مؤلفاً و ١٠٠ محام و ٣٠ حاكماً و ٨٠ موظفاً و ٣ نواب وعضوان في مجلس الشيوخ ونائب رئيس لجمهورية الولايات المتحدة .

وتزوّج (رتشارد ادواردس) ذاته بعد ذلك من امرأة أخرى عادية الذكاء فلم يرتفع أحد من نسلهما فوق المتوسط .

٨ — (٢) **بالرغم عن أن النظير مثال لولادة نظيره ، فإن الاختلاف موجود دائما :** فالتشابه ليس تاماً بين المولود الجديد وأبويه ، والفروق تتراوح تراوحاً كبيراً . وكثيراً ما يخلط بين الاختلاف والتغيير ، في حين أن الاختلاف وراثي مرده الى حجيرات التناسل والتغيير كسبي مرجعه إلى التربية ، الأول كامن في حجيرات التناسل ويورث ومصدره الداخل ، في حين أن الثاني مصدره المؤثرات الخارجية ولا يورث .

أما أسباب الاختلاف فمجهولة ، كل ما نستطيع قوله هو أن الجرم يلازما تحمل ، فيما تحمل ، صفات جديدة تنقلها إلى المواليد الجدد تخالف صفات الآباء والأجداد . والاختلاف هو الذي يسمح بالتطور والارتقاء في النبات والحيوان وهو أساسهما .

٩ — وللاختلاف قانونان :

(آ) **إذا لاحظنا صفة ما في عدد كبير من الأفراد المتجانسين ، غير المنتخبين ، لوجدنا أنهم يتوزعون بالنسبة إلى هذه الصفة بحسب منحنى الصدفة (منحنى الاحتمال) .**

وهاك مثالاً يوضح ما نقصد بمنحنى الصدفة[1] : لنأخذ عشر قطع من النقود المعدنية ولنرمها ١٠٢٤ مرة ، ولنحص عدد (النقوش[2]) التي تظهر في كل مرة فنحصل على الجدول التقريبي التالي :

عدد النقوش	مرات ظهورها
٠	١
١	١٠

(١) عن ماندفورد في كتابه « علم النفس التربوي » .

(٢) في لعبة « طرة أم نقش ؟ » .

عدد النقوش	مرات ظهورها
٢	٤٥
٣	١٢٠
٤	٢١٠
٥	٢٥٢
٦	٢١٠
٧	١٢٠
٨	٤٥
٩	١٠
١٠	١
	١٠٢٤

ويرى من هذا الجدول أن (خمسة نقوش) تظهر عدداً من المرات يفوق غيرها ويليها الـ (٤ و ٦) ثم (٨ و ٢) ثم (٩ و ١) وأخيراً (٠ و ١٠) ؛ أي إن الكثرة الغالبة تكون في الوسط وتقل كلما تقدمنا إلى إحدى النهايتين ؛ وهذا التوزع يسمى بالتوزع بحسب منحنى الصدفة .

١٠ — وعلى هذا فان توزع الناس في صفاتهم المختلفة كالطول والقصر والقوة والضعف والقوة والذكاء ، ضمن جماعة ما ، يكون بحسب منحنى الصدفة ، فالمتوسطون في الطول أكثر من الطوال والقصار والمتوسطون في الذكاء يفوق عددهم الأغبياء والنابغين الخ ... ولا نبالغ إذا قلنا إن اكتشاف (منحنى الصدفة) في توزع الصفات المختلفة عند الانسان والحيوان أهم الاكتشافات في التربية والطبيعة وهو يظهر بوضوح أن السائد هو المتوسط فأغلب الناس متوسطون في صفاتهم المختلفة وكلما ابتعدنا عن الوسط قلّ عدد المتصفين .

١١ — (ب) يميل الأفراد المختلفون ، مع تعاقب الأجيال ، إلى التقرب من الوسط في النوع الذي ينتمون إليه :

ويسمى هذا القانون بقانون التناقص ، وهو قانون إحصائي وليس طبيعياً ،

وهو يظهر الطبيعة وكأنها تكره الشذوذ وكثرة الاختلاف وتحب المحافظة على الوسط . وهكذا يكون أولاد الطوال ، عموماً ، أقصر من آبائهم وأطول من متوسط الجماعة ، وأبناء القصار يكونون أطول من آبائهم ، أي ينزل الطوال ويصعد القصار نحو الوسط . وهذا القانون صحيح في كل الصفات العقلية والجسدية في الجماعة أكثر منه في الأفراد . وهو كما يلاحظ لا يمنع تحسين النسل إذا حرصنا على الانتقاء كما يفسر سبب عدم وجود عمالقة جسديين وفكريين ما دام العالم يتبع نظمه الحالية في الزواج .

د — الوراثة الاجتماعية

٢٢ — لعل أحسن تفسير رأيناه في الفقرتين السابقتين هو **أن الوراثة والمحيط عاملان متكاملان متناسبان** ، فالطبيعة (أو الوراثة) تجهزنا بما تملك من القوى الكامنة ، والمحيط (أو التربية) تقرر ما إذا كانت هذه القوى الكامنة ستتجلى أم لا .

ليس في إمكان التربية مثلاً أن تجعل من طفل ضعيف العقل طفلاً سوياً ، وجل ما تستطيعه هو أن تعلمه بعض الأعمال النافعة اقتصادياً ، وإنه لمن المهم جداً أن يعرف المعلمون هذه الحدود فلا يطمحون إلى خلق النوابغ عن طريق التربية وحدها من جهة ، ولا يهملون تهيئة المجال فسيحاً أمام قابليات الطلاب الكامنة ومواهبهم الموروثة ، وإيجاد الظروف الملائمة التي تسمح لهذه المواهب بالظهور والنماء من جهة أخرى .

نعم قد تستطيع التربية القيام بالعجائب في جيل ما ، ولكن نتائجها قلما تجاوز حدود هذا الجيل ، والطريق الوحيد لتحسين الجنس البشري هو تحسين النسل أولا وتربيته ثانياً وبعد ذلك .

١٣ — ومع ذلك فان الملاحظة العارضة كافية لاظهار أن الوراثة الاجتماعية وهي ضرب من المحيط التربيوي ، يتعدى تأثيرها الجيل الواحد . **يولد الأطفال**

بوراثة بيولوجية معد ولكنهم ايضا يولدون في محيط معين له إرثه الاجتماعي الخاص . ورغماً عن الآباء لا يستطيعون توريث نسلهم معارفهم ومعلوماتهم وراثة طبيعية فان المعارف والعادات والتقاليد تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التوريث الاجتماعي بوسائطه المختلفة من كتب ولوحات وتقاليد وعادات الخ ... وهذه منبهات محيطية ذات قوة كامنة تثير الأجيال القادمة شريطة أن تتمتع تلك الأجيال بالذكاء الطبيعي الذي يمكنها من الاستفادة منها طبعاً .

وعلى هذا فالوالد الذي يحيط أولاده بالكتب القيمة واللوحات الفنية الممتازة ، وكل ذلك في بيت يتجلى فيه الذوق ، ويهيئ لهم فرصة السفر ، ويتحدث إليهم شارحاً لهم الأمور التي تقع تحت أبصارهم بتؤدة وحكمة ، والد كهذا يقدم لأولاده إرثاً اجتماعياً ممتازاً ، فاذا لم يستفيدوا من هذا المحيط الاجتماعي الغني فقد يكون السبب في ذلك عجزهم . والأمر نفسه صحيح بالنسبة للمعلم الذي يحيط أطفاله ، ويجب أن يحيطهم ، بخير ماوصل إليه التراث البشري في عالم الفكر والعاطفة والأخلاق . **وهذا الارث الاجتماعي كما هو ملحوظ يجب ان يكتسبه كل جيل من جديد** .

١٤ — **وفي بعض الأحيان نستطيع الوراثة الاجتماعية الجيدة أن تعدّل من الوراثة الطبيعية السيئة الى حدّ محدود** كما يحدث في حال المريض الضعيف النبيه الذي يعرف قواعد الصحة ويتمسك بها ، فيتمكن بذلك من التغلب على بعض المصاعب . ولكن حتى في هذا الحال يكون التحسن طفيفاً ومحصوراً في جيل بعينه ؛ فلا يستطيع الارث الاجتماعي بالغاً ما بلغ من الجودة أن يقوم مقام الارث البيولوجي الجيد ، ولكن المعلم مع ذلك يخصص وقته ويكرّس جهده للتربية كإرث اجتماعي لأنها العامل الوحيد الذي يملكه والذي يستطيع بواسطته أن يستغل إلى أقصى حدود الاستغلال النافع إمكانيات الطلاب التي يجلبونها معهم إلى المدرسة .

مراجع البحث

١ — الابراشي ورفاقه : الجزء الأول ، الفصل الثاني عشر (ص ٢٤٧ — ٢٤٨)
٢ — خليل ـ نظمي : الفصل الثالث
٣ — عبد المسيح ورفاقها : الباب الثالث
٤ — نجار ـ فريد : الفصل الأول

بعض المراجع العربية في علم النفس مما قد يفيد القارئ وما أشرنا اليه في نهايات الفصول

١ — الأبراشي ، وعبد القادر ، وسعيد : في علم النفس . (٣) أجزاء .

٢ — الجارم ـ علي ، وأمين ـ مصطفى : علم النفس وآثاره في التربية والتعليم .

٣ — خلف الله ـ محمد : الطفل من المهد إلى الرشد .

٤ — خليل ـ نظمي : علم النفس في الحياة (تعريب) .

٥ — صليبا ـ الدكتور جميل : علم النفس .

٦ — عبد المسيح ، والنحاس ، وسليمان ، وشاهين : تربية الطفل ومبادئ علم النفس .

٧ — عطية الله ـ أحمد : بسائط علم النفس .

٨ — قنديل ـ أمين مرسي : أصول علم النفس وأثره في التربية والتعليم . (جزءان) .

٩ — المصري ـ إيريس حبيب : التربية العلمية وعلم النفس .

١٠ — نجار ـ فريد : علم النفس التربوي (تعريب) .

تصحيح أخطاء

ص	س	خطأ	صواب
١٦	٦	لعالم النفسي	لعالم النفس
٢٠	١٦	وغيرها لانها	وغيرها ، إلا أنها
٢٥	١٢	م٢	م١
٢٦	١٠	أما الفعل المنعكس	أما الفعل الغريزي
٢٨		عددنا (١٣) غريزة عوضاً عن (١٤) ولذلك يجب إضافة غريزة (البحث عن الطعام) وانفعالها (الجوع)	
٣٥	٧	الوجة	الوجهة
٣٧	١٥	التربة	التربية
٤٠	١٣	الانعالية	الانفعالية
٤١	٢	العطام	الفطام
٤٨	١٦	الفيزيائية	الفيزيائيين
٥٠	٢	دليل	دليلاً
٥٥	١٤	بعيد	بعيدة
٦٠	٥	الحلم	العلم
٦٦	٤	ألعاب	بألعاب
٦٦	٥	اللذين	اللتين
٦٦	١٥	تعني	تعنى
٦٨	١٨	الحظور	الخطور
٧٦	١٧	ضرورية كالحالة العامة	ضرورية : فالحالة العامة تؤثر
٧٦	١٨	فالعقل	فالعطل
٨٧	١١	بقائه	لبقائه

ص	س	خطأ	صواب
٩٢	٢٠	٢ً)	١٠ — ٢ً)
٩٦	١٨	لتخيل	التخيل
٩٦	٢٢	ويقوم	٤ — ويقوم
١٠٠	١٨	صغير	صغيرة
١٠٩	٨	تجد	يجد
١٠٩	١٨	هي عبارة عن إعادةمقصودة أول الأمر	هي عبارة عن إعادة مقصودة لحركات كانت تحدث في البدء من تلقاء ذاتها ، فالطفل يصرخ أول الأمر
١١٠	١١	العفوية	العضوية
١١٢	٩	اخطاءالحاب وهذا صحيحه	اخطاء الحساب وهذا صحيح
١١٦	١٢ ، ١٣	العقلي	العضلي
١٢٠	١٥	الصوت	السوط
١٢١	٥	إذن	إذ
١٢٥	٢١	الأشخاس	الأشخاص
١٢٧	٨	تأكيد وجودفكر بلالغة	تأكيد عدم وجود فكر بلا لغة
١٤٣		يضاف إلى آخرها ما يلي : هـ — التجريد والتعميم عند الطفل و — الأفكار العامة والتربية	
١٤٤	١٢	نجدّد	نحدّد
١٥٥	١٢	إلا الحادث السوي	إلا أن الحادث السوي
١٦٥	٨	بسبب	يسبب
١٦٧	١٣	فوضى . وعدم انسجام عقلنا	فوضى وعدم انسجام . عقلُنا
١٦٩	٢٤	كل حديد يتمدد	كل معدن يتمدد
١٧٠	٦	نعترف	نتصرف
١٧٠	١٥	الأخلاق ... بعد الاعتبار الاختلاف ... بعين الاعتبار	
١٧٢	١٩	شخصيته	شخصية

ص	س	خطأ	صواب
١٧٥	١٧	إختبارياً	إخبارياً
١٧٥	٢٠	الامن	إلا من
١٩٠	٥	ثمانية سنين على	ثمانية سنين الاجابة على
٢٠٠	١٥	طبيعة	طبيعية
٢٠٠	١٨	أنها	إنها
٢٠٣	١٦	كأنها رفاص يدعي كبت	كأنها نابض (رفاص) يدعي كبتاً
٢٠٣	١٩	لا لم	الألم
٢٠٧	١	أقدم هذه	اقدم هدف
٢٠٨	١٩	منها	فلها
٢٢١	١	اضطراب عقلي وعضوي	اضطراب نفسي وعضوي
٢٢٣	٢	معنى خاطئاً	معنى خاطئ
٢٢٣	٤	عقلية	عضلية
٢٣٨	٥	النوعين	نوعين
٢٤٠	٢٢	تصبح باصطدامها	تصبخ غضباً باصطدامها
٢٤٨	٧	ايضاً	إذن
٢٥٧	٢٣	عنصراً	عنصر
٢٥٨	١٠-١١	عزة النفس الثائرة	عزة نفس ثائرة
٢٥٩	١٢	تجنيه	تجنيبه
٢٦٠	١٧	صورته	صورة
٢٦٣	١٥	إن لم تكن النفس بعينها	إن لم تكن النفس بعينها ؛ كما قد يكون هجساً فيما يجب تجنبه والدفاع عن النفس ضده .
٢٦٤	١٥	عنها	عنهما
٢٦٦	١٠	هو وهذا	وهو هذا

ص	س	خطأ	صواب
٢٦٨	١٥	اشياء	اهواء
٢٧٤	١٧	لأنه توجد	لأنه لا توجد
٢٨٠	١٥	صحياً	صحيحاً
٢٨٦	١	وتوجيهها	وتوجهها
٢٩٤	٢٣	العضوي	العفوي
٢٩٥	١٧	حقائق	عوائق
٢٩٩	٩	نترجم	تترجم
٣١٩	١٣	الملحقة	الملقحة

وهناك بعض الأخطاء الأخرى التي لا تخفى على فطنة القارئ .



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

150
A31imA
C.1